

إبراهيم الكاتب



إبراهيم عبد القادر المازني

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

إبراهيم الكاتب

بقلم
ابراهيم عبد القادر المازنى

ذاكرة الكتابة (١٨)

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني

رقم بريدي : ١١٥٦١

- الكتاب: إبراهيم الكاتب
- المؤلف: إبراهيم عبد القادر المازني
- طبعة: الشعب - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م
- الطبعة الثانية: الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٠م

الإهداء

إلى التي لها أحيا ، وفى سبيلها أسعى
وبها وحدها أعنى طائعاً أو كارهاً ...
إلى نفسى ...

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

القسم الاول

« كل الأنهار تجرى إلى البحر
والبحر ليس بملآن ... »

الفصل الأول

« وكان مساء ... »

— ١ —

شوشو فتاة يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهى ذات قامة معتدلة وجسم غض ووجه صبيح متألق ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها فى عزلة، قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدنين ، فلم تألف أذنها عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك التعمل الذى يدرب الفتاة عليه تنبه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عيناها بمزية : هى أن من يراهما لا يحتاج أن يعدوهما أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يجتلى نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها ، مركزا . وهما سوداوان غير أن سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . تحدق « فيه » تحديقك « فى » بئر ، ولا ترنو « إليه » كما ترنو « إلى » رسم .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء إليها على فرط حسنها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبتنا هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسعك إلا أن تحس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس إليها خمس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذى لا يدرى أن فى الدنيا ما يتقى ، ومن حرارة النفس الغريرة التى لم يصدمها من التجارب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التى لا يثقلها إلحاح الهم . ويعرف من يعرفها أن لها أحيانا تبدو فيها كالظمأى إلى مجهول ، أو كالتى تختلج فى صدرها خواطر واحساسات هى أغمض من أن تتولى الكشف عنها عبارة ، أو أوجع من أن ترفه عنها دمعة . ولم تكن كذلك الآن فى هذه الفترة التى زخرت فيها تيارات حياتها ، والتى نخصها بالذكر .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولفت الحقول فى شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدلفان فى الطريق بين المزارع على حمارين، أحدهما مسرج ملجم ، يعانى الفتى الحضرى الذى يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه إلى الانطلاق فى العدو ، وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط التقلقل . وثانيهما — أى ثانى الحمارين — يخطو وادعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لاتكاد رجلاه تتحركان ، كأنما هما خشبتان مشدودتان إلى جانبي الحمار ، وكان الفتى فى شاغل من متاعبه ، فقطعا أكثر الطريق فى صمت إلى أن ألتفت الفتى إلى رفيقه وقال :

— لم أعرف أسمك إلى الآن فهل تسمح لى به ؟

— اسمى ؟ آه ! أحمد الميت .

— الميت ؟ ولماذا يدعونك الميت ؟

فقال القروى وهو مطرق كما كان ، وعيناه إلى أذنى حماره :

— لأنى مت .

فابتسم فتانا ساخرا وقال :

— سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، ولكنى أحسب يوم النشور لايزال بعيدا ، فكيف عدت إلى الحياة قبل الأوان ؟

فرفع القروى رأسه فجأة والتفت إلى الفتى التفاتة المغضب وقال :

— لقد قلت لك أنى مت وانتهى الأمر .

فاسترسل فتانا فى سخره وقال ولم تزايله ابتسامته :

— إذن من الراكب على حمارك يارفيقى ؟ أهو عفريتك ؟

فقهقه القروى وقال يطمئنه :

— عفريتى ، لا لا ! لاتخف ! أنا أحمد الميت .

— ولكن ألاتحدثنى كيف حييت كرة أخرى ؟ ومن الذى ردك إلى الحياة ؟

— لم يردنى إلى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر .

فحملق الفتى فى وجهه وهو مبهوت وكف عن الكلام ، وقد دار فى نفسه خاطر لم يرتح معه إلى صحبة هذا الرفيق .

وبعد قليل قال أحمد الميت :

— ليست هذه أول مرة جئتنا فيها ؟

— بل هى الأولى . . (ثم بعد قليل) لوددت أنى ما جئت !

وسكتا برهة ثم عاد القروى يصل ما انقطع :

— لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك إلى ناحيتها .

— وأنى لى برؤيتها وهذا الظلام أكثف من جلد الفيل ؟

فضحك القروى ضحكة حفلت بالقرقعة ثم أمسك فجأة وقال :

— إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر فى الظلام .

فقال الفتى وفى صوته مرارة تنم على ما يكتم من الألم الذى جره عليه نشاط دابته :

— كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطط .

ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروى بعدها :

— أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟

— كلا !

— أنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ ...

— من تعنى بأفندينا هذا ؟

— أفندينا اسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل ، ونصب على جانبيه الزينات التى لم نرها لا قبلها ولا بعدها إلى الآن وأقام الأفراح أربعين يوما فسر أفندينا جداً وقال له ساعة هم بالركوب عائدا : إنى جعلتك من بيكواتى وعكنتك بعد أن أرجع إلى مصر أن تزورنى فى أى وقت تشاء لأكافئك على كرم ضيافتك وسخائك فى استقبالنا . ومضت سنون بعد ذلك لا أذكر عددها ، وفى يوم تذكر البيك كلمة أفندينا فنهض وقال : أنى ذاهب إليه من توى . فلما

صارف مصر مضى إلى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : ماذا تبتغي ؟ » فحكى له ما كان ، فقال له : « أن اسماعيل مضى وجاء غيره ، فعاد. وأخبر القرية أن اسماعيل الثاني . . . »

— اسماعيل الثاني ؟ أظن ياصاحبي أن في تاريخك خطأ .

— كلا ! لا خطأ على الإطلاق ! إنها حكاية مشهورة ! وليس مثلي من يخطيء في الرواية ، أمن أجل أن كتبكم لا تحوى هذه القصة تكون خطأ ؟ وأنا بعد لم أتممها لك ولم أخبرك بما وقع له مع اسماعيل الثالث . .

— إن هذا لايطاق . كلا ! لن أحتمل اسماعيل الثالث . ووثب إلى الأرض عن ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ، ومال إلى حافته اليمنى كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن . ورأى القروى ذلك فكف عن محادثته ، وجعل يقول لنفسه : ما أغرب هؤلاء الأفندية الذين يجيئون من الأمصار ! أما والله لولا أنه بعث بالقرابة إلى الباشا رحمه الله . .

وبلغا البيت فنهرتهما الكلاب ، وأفزع الفتى نباحها وهيئتها الوحشية ، فدنا من رفيقه بكرهه ، حتى كاد يدخل في ثيابه فزجرها القروى عنه ، وصعد به السلم .

— ٣ —

قالت شوشو لقريبها بعد أن أصاب حظا من الراحة :

— تعال بنا إلى بهو السلم ، فإن الجو بديع في هذه الليلة .

— ولكن السلم يؤدى إلى الغيط مباشرة بلا حاجز ، و . . . و الكلاب . .

— آه الكلاب ! أتخافها ؟ انها لن تؤذيك . . تعال . . تعال . . أيصح أن تكون أضعف منى قلبا ؟

فمضيا إلى البهو وجلسا ، ثم شرعت فتاتنا تنادى : « مرجان ، بخيت . مرزوق » فعجب الفتى وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لا تتعبي الخدم يا شوشو بلا داع » :

والتفت فإذا ثلاثة كلاب تصعد مسرعة على السلم وتقبل عليها وتتوثب

حولها وتمسح بثوبها وتحرك أذنابها وتلعق حذاءها ؛ فأشارت إليها فربض واحد إلى يمين الفتى ، وثان أمامه ، والثالث إلى يساره ، وعادت هى تحادث قريبها حتى عرضت مناسبة ، فنهضت وأخبرته أنها ستغيب عنه برهة قصيرة ، ولم تنتظر أن تسمع ما هم أن يقول له إذا صح أنه فتح فمه ليتكلم ! وتركته .

فأسلم أمره لحظه ولهاتيك الكلاب ، وجعل يلاحظها خلسة ، وشاءت بعوضة أن تلدغه فى جبينه ، فرفع يده ليذبها ، فرفعت الكلاب الثلاثة رءوسها وزامت !

فحط ذراعه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذى كانت فيه ، فهم بتحريكها فعادت الكلاب ترفع رءوسها وتزوم ، فتركها مكانها .

وكثر البعوض فجأة ، وتوالى الإحساس باللدغ فى الوجه واليدين والرجلين ، وهو يتجلد إشفاقا من هذه الكلاب الضارية ، حتى جاوز الأمر الطاقة ، وكاد يذهب رشده فصاح — وهو مسمر فى مكانه ، ومن غير أن تتحرك شعرة فى جسمه : « ابعدوا عنى هذه الكلاب ، وإلا قمت وتركتها تمزقنى » .

وفى هذه اللحظة فتحت نافذة مطلة على البهو ، وظهرت منها شوشو مستغرقة فى الضحك .

الفصل الثاني

« وكان صباح ، يوما واحدا »

قضى فتانا إبراهيم — وهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم إذا استثنينا حلما قصيرا ركب فيه جوادا بلا لجام جمح به فى طريق وعر ، ينحدر على أحد جانبيه نهر جائش ، وتعترضه فى بعض المواضع أقنية تختلف ضيقا وسعة ، عليها ألواح من الخشب ، وقف الجواد الخبيث فجأة ، فوق واحدة منها وأهوى برأسه وقادميته إلى الماء ليشرب !

وبدأ الصبح بأصوات العصافير ، ثم نهض ولبس حذاءه ومعطفه وطربوشه ، وخرج متسللا كاللص . وكانت السماء غائمة ، والجو مطلولا لا تخلص معه الأنفاس . وكان هو يكره الرطوبة ويتقيها ويشفق من عواقب التعرض لها ، وكثيرا ما ثنته عما يقصد إليه ، ولكن منظر الحقول فى هذه الساعة قبل طلوع الشمس ، والضباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئاً فشيئاً عنها — وهو منظر لا عهد له به — أغراه بالمضى فانطلق على غير هدى ، حتى وقف على ترعة صغيرة نزرة الماء ، تكسوا الحشائش جانبي مجراها ، ويفترش الماء فى قاعها بساطاً سندسياً ليناً . وجعل ينظر إليها تارة ، ويدير عينه فى الحقول المستوية تارة أخرى . وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر إذا اجتمعت ، كما هى الآن ، أحالت الحب فى النفس الحساسة قلقا ، وهوت بالأمل إلى الشك ، وهبطت باليقين إلى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع إلى سعى . ذلك أنه كان أمامه — على قدر ما وسعه أن يرى — هذه الترعة السوداء ومن ورائها مثل الجدار القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم ، وبعضها زرع لا يدرى أى شيء هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى زايله منذ لحظة . وكل

ما حوله أشكال ليس لها معارف – كالدرهم المسيح – توحي إلى النفس أي شيء، ولا تنطق بشيء، إذ كان الضباب لايزال يكسوها ثوباً يزيدها في رأى العين والقلب عرياً وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة يحس المرء أنها تهم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتتلقاها في الغرب السحب ، فأطراف المنازل ، والأكراخ والنوافذ ورءوس الاشجار ، فالاغصان النابتة على وجه الأرض فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة ، لا من فم آدمي .

وأحس لطول ما وقف ، بالبرد يسري من قدميه إلى سائر بدنه ، فثنى خطواته إلى الدار ، وما كاد يفتح الباب المؤدى إلى الجناح الذي أفرد له ، حتى طالعته زنجية لامعة الجلد ، منتفخة الأوداج ، كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقة الأسنان ، واسعة العينين حمراؤهما ، قد غرز رأسها المعصوب بين كتفيها غرزاً ، واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً ، وأما خصرها – إذا جاز أن يسمى هذا خصراً – فهضيم جداً ، حتى كأن ما نقص من هذا زيد في ذاك ، ويلي الخصر ردفان ثقيلان تحتهما ساقان قصيرتان كالقمعين فكأنهما زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب ، والمرء بأيسر مجهود من الخيال يستطيع أن يتصورها مفككة .

فابتدرته الزنجية بقولها :

– أين كنت يا سيدي ؟

فلم يرتح إبراهيم إلى هذه المفاجأة ، ولم يسره لونها الأسود البراق بعد ذلك الضباب الذي لبث فيه . وكان من أثقل الأشياء على نفسه أن يسأل عن روحاته وغدواته ، فقال لها :

– أين كنت ؟ وكيف يعنيك هذا ؟

– لقد أزعجتنا جدا يا سيدي ، ولم يخطر لنا قط أنك قد تخرج في مثل هذه البكرة المطلولة ، فخرجت ماذا أصنع ...

— لعلك لم تقلقى أحداً من أجلى ؟

— نعم ، أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذا بالله ؟ أتريننى طفلا أم أنا هنا سجين ؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يغضبه سؤالها وإشفاقها عليه ، وأفزعتها نظرته أكثر مما أفزعتها لهجته ، فرمت بعينيها إلى الأرض وأخذت تتمتم :

— لا .. لا ياسيدى . عفوك ! إن هذا بيتك ..

— من قال لك أنى فى بيتى يضرب على نطاق من الخدم ؟

— أنا .. أنا .. لا ذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام أن أخبرها ..

فلم يمهلها حتى تتم كلامها ، وصاح بها وقد تملكه غضب شر ما فيه أنه يعلم أن لا داعى له :

— إذا كانت سيدتك هى التى شاءت أن تسد فى وجهى الأبواب ، فسأرحل هذا النهار . نعم لا بد من السفر ، فلست أنوى أن أعصب رأسى وأسدل على وجهى قناعاً !

ودفع باب غرفته بعنف ، ودخل وهو يتمتم بصوت يزيده تهدجاً شعوره بأنه مخطىء فى غضبه ، وأنه تبرم بلا مسوغ . وشرع يعد حقيبته ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ، ونسى أن للمدن أيضاً قيودها .

ولم يكن صاحبنا إبراهيم قد بلغ سن الفلسفة ، أو إن شئت فقل سن التبلد أو الحزم أوما شئت غيرهما ، وأن كان بطبعه لا طياشاً ولا قليل التؤدة وكان من ذلك الطراز الذى نستطيع أن نقول أن الله وهبه كل شىء ، إلا القدرة على الإنتفاع بالحياة والتوفيق فى الدنيا ، وأن يكن أشبه بالنساء فى المرونة وسرعة التكيف . وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتداد

عليها ، ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والتقحم على الناس . وفيه أنفة كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة . وقد غلب عليه «الكاتب» وصار لقباً له وعلماً عليه ، كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن مزيته الابتكار أو العمق بل أنه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يجلوها في أحسن معرض ، وإلا استطاع — إذا لم تكن مما ابتكر — أن يضيف إليها ويزيد عليها ماليس دونها . على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه في بنفسه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيا هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها ، ولكنه قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الحذر ولا سيما مع النساء اللواتي لم يألف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لهن كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع ، وأن جمالها ليس إلا شركاً تنصبه الحياة ويحسن كثيراً أن يتجنب ، وأن الرجل أجمل من المرأة على العموم ، لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتنته — كجمال المرأة — من الغريزة النوعية . وكان سلوكه إزاء المرأة مظهراً لرأيه فيها وتعني أنه كان يعدها مخلوقاً جديراً بالعطف والمداعبة في غير ضعف وبدون أن يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة إلى حد كبير تكون في جسم ضئيل هزيل لا يحتمل شيئاً ! فقد كان صاحبنا قصيراً ضامر الجسم دقيق العظام واهي التركيب ، وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التي انطوى عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة ، وعيناه الواسعتان الحادتان ، وهامته المستطيلة القوية ، وأنفه الكبير الأقنى ، وشفته المقوسة الغليظة بعض الغلظ . على أن قوته تنحصر على الأكثر في جبهته وعينيه . ولم يكن يخفى عليه هذا السر فكان يبلغ بنظرة يسددها ما لا يبلغه الرجل الضخم بالعصى في يده . ولكنه كان على ذلك رضي الطباع ، دمث الأخلاق ، سريع الفيء إلى الرضى .

ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ، ووقفت خلفه وهو مشتغل

بنزع غطاء حقيبته ، ووضعت كفيها على عينيه ، فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

ــ آه . شوشو !

ــ نعم أنا شوشو . من كنت تحسبني ؟

فاحمر وجهه الأسمر قليلا وابتسم .

وكانت لآخر عهده بها قبل عام طفلة ألفاها في هذه اللقية امرأة بارعة الشكل ممشوقة القد ، تغترف العين بشارتها وترتاح النفس إلى نضارتها : سوداء العينين عميقتهما ذهبية الشعر ترسله أمواجا على كتفيها ، بيضاء مشرقة ، حمراء الخدين قرمزية الشفتين لينتهما . عينها نار ، ولحظها حب ، وصوتها تغريد ، وقوامها أتم ما يكون استواء وصحة وعزما ونشاطا ، وحركتها مملوءة ظرفا ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، ذائبة حينا ، متدللة متجبرة أحيانا ، ساخرة طورا ، وطورا ساذجة غريزة ، جميلة في كل حال . وقالت وهي تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

ــ دعني أخرج لك ما تريد من الثياب . أن هذا عمل النساء لا الرجال . أصعد أنت إلى « فوق » فأنهم ينتظرونك ليفطروا معك وسأعد لك كل شيء .

ــ ولكنك لاتعرفين ماذا أبغى ؟

ــ أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر مني ؟ أنك كالطفل الصغير يحتاج حتى إلى من يلبسه الجورب ! .

فلم يدر أعرفت وتجاهلت أم هي لاتعلم شيئاً مما حدث ، وكانت نفسه قد سكنت فآثر أن يطوى الأمر ، وبدا له أن هذا خير مايمكن أن يصنع ، وقال مغالطاً : « ولكني لاأعرف من أين أصعد » .

ــ إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود إلى هذه الحقيبة . أليس كذلك؟

ــ نعم .

ــ هيا إذن .

ووضعت كفها على كتفه اليمنى وجعلت تطفر إلى جانبه وتتواثب كالفراشة .

الفصل الثالث

«كل لتكون فيك قوة ، اذ تسير فى الطريق ..»

صعد إبراهيم وشوشو – أم ترى ينبغى أن نقول شوشو وإبراهيم ؟ – إلى غرفة الطعام فألفيا حول المائدة «نجية» كبرى اخوات شوشو ، وابنيها . وهى سيدة جميلة الوجه ، ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معدة – وما لنا لا نقول «كرشا ؟» تمشى أمامها . ولها إيمان راسخ بالمشائين فى الظلام ، ونعنى بهم الشياطين والعفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين ، غير إن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء ، وأكثر ما تدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم ، وما أقل من لم تقل له «لاشك أنك رأيت عفريتاً . لقد رأيتهم أنا بعينى هذه مرات عديدة فى البيت وحوله . ولكنهم لا يؤذونك إلا إذا كلمتهم أو تعرضت لهم »

وللعفاريت معها حادثة لا تكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة . وتلك أنها فيما مضى من الزمن وفى مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل إلى حاجتها واستصحبت معها خادمتها فاطمة الزنجية التى عرفتها فى الفصل السابق ، فلم تكد تبلغ الحمام حتى سمعت وقع حوافر المعيز صاعدة ونازلة على السلم ، وعابثة فى المطبخ ، فصرخت وعادت تعدو إلى غرفتها ولكن زوجها أبى أن يصدق أو يلتفت إلى سبب فزعها «فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التى كانت فى المطبخ مكسرة ، ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك يأبى ابن عمى (أى زوجها) أن يصدق !» .

وتضرب بطن يسراها على ظهر يمناها فوق كرشها الكروية ومن أجل هذا تمنى قبل الذهاب إلى مخدعها بأن تمر بغرفة بنيها ، ومن

تكون فى ضيافتها من أخواتها ، وأن تمسح رءوسهم وتتلو آية الكرسى ثم تستودعهم الله وتمضى .

وهى من الطراز المحافظ الذى يستنكر كل جديد ويعده بدعة يجب أن يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت فى رمل الأسكندرية مد إليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أعياها الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الأباء أن تدخلها غرفة نومها ! فرأى زوجها أن يرضيها بهذه التضحية الصغيرة . ولا يزال البيت تضيئه الكهرباء إلا هذه الغرفة التى بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر . وجهز زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا ، وأصرت على الاستحمام فى « الطشت » وأهمال الحوض !

أما التليفون فله فى بيتها بالرمل عشر سنوات ومع ذلك لا تعرف كيف تستعمله ، وتقول شوشو عنها أنها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل ١٥ » بدلا من الرمل ١٥٩ مثلا !

ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام ، فأصح الناس من يلتهمه التهاما ويأتى على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدا . بل قيمة المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكبار الأكول البطين أما من يأكل بقدر أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب وقوست قناته السنون أو الحادثات . وأثمن ما تهديه من النصائح إلى المريض أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل » هذا عندها الدواء من الحمى والمغص والصداع الخ . ولا تصدق الأطباء فإنهم يميتون الناس قبل أن تفرغ آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر فى عينها صاحبنا ابراهيم وإن كان قد ناهز الثامنة والعشرين وماتت له زوجة وبنون لم يعش منهم إلا واحد .

وجعلت تسأله على الطعام عن صحته ، وعن العملية الجراحية التى أجريت له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذى أقام به حتى شفى وتقول : « يا ابن خالتى ! كيف رضيت بالبنج ؟ » .

فيقول : « وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك ؟ »

فتهز رأسها غير مصدقة ، وتسأل : « وهل كانت العملية ضرورية ؟ لقد لبثت لا أنام منذ علمت بخبرها ، حتى طمأنني ابن عمي وأنبأني أنك خرجت من المستشفى ، ومع ذلك لم أطمئن تماما إلا بعد أن علمت أنك آت الينا . وكيف صحتك الآن ؟ »

— كما ترين ، حسنة .

— لقد كان دخولك المستشفى حماقة ، فكر .. أن المستشفى كالمجزرة ولا بد أنه مملوء بالعفاريت .

— لا . لا . لا عفاريت ولا ..

— كيف يمكن ؟ الدم .. والذين يموتون فيه . أن بيتنا هذا جديد ، ومع ذلك فيه عفاريت. ولو كان زوجي هنا لقص عليك كيف تطلع وتنزل كالمعيز على السلم الخشبي .

فقاطعتها شوشو قائلة :

— إن ابن خالتي ينام وحده في ذلك الجناح ، ولا يحسن أن يعرف هذه الحكاية التي سمعناها مائة مرة .

فقال ابراهيم : « دعيها يا شوشو تقصها ، فإن سير العفاريت لا تفزعني ولكم تمنيت أن يظهر لي عفريت ! ولكم سرت عمدا بين المقابر في الظلام الحالك ، آملا أن أرى واحدا » .

فصاحت به نجية : « ماذا تقول ؟ أمجنون أنت ؟ » .

فلم يغضب إبراهيم لأنه كان أعرف بها من أن يثيره كلامها ولم يزد على أن قال لها :

— وما الضرر ؟

— الضرر ؟ أحذر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان أحمد خادمنا عائدا على حماره من المحطة في بعض الليالي ، فلما دنا من البيت وقف الحمار

يغته ، ونشر أذنيه وأدار رأسه ، ونظر أحمد فإذا الطريق قد سده مارد ولكن الله ألهمه أن يتلو آيات من كتاب الله ، وأن يستحث الحمار فنجا ولم يكد . فحاذر أن تخرج في الليل وحدك ! إنك لست في مصر ، ولا آمن عليك أن خرجت ، وسامر الخدم أن يخبروني كلما هممت بذلك ! يجب أن تعود سليما إلى بيتك .

* * *

وكانوا قد فرغوا من الطعام ، فمضت به شوشو إلى غرفة أخرى ، وجلست إلى جانبه تستخبره عن المستشفى ، وكيف كان يقضي لياليه فيها ، ومن كان يؤنسه في وحدته ، وكان يوجز ما استطاع في أجوبته ، وتأبى هي إلا الإطناب وتلح فيه :

— قل لي . قل بالله (وأحاطت عنقه بذراعها اليمنى) أكنت تقضي الليل كله وحدك ؟

— نعم .

— ألا يجالسك أحد ؟

— الزوار .

— وإذا لم يزرك أحد ؟

— أنا أحب الوحدة .

— ولكن هبني كنت مكانك : فأنا لا أحب الوحدة ولا أطيقها .

— هنالك الممرضات .

— آه . أهن شابات أم عجائز ؟

— لا أعرف إلا المستشفى الذي كنت فيه .

— حدثني عنه إذن ! لماذا لا تتكلم ! أن هذه ليست عادتك ! أهنالك شيء لا يصح أن أعرفه ؟

— كلا .

— إذن لماذا تأبى الكلام عن المستشفى ؟

— لأنها ذكرى . : تؤلمني »

— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك؟
فصمت قليلا وقال وهو مطرق : « لاأدرى ! »

فاعتدلت ونظرت اليه بعينيها العميقتين ،ووضعت يمينها على جبينه ، ورفعت رأسه وسألته : « كيف لاتدرى ؟ لست أفهم ! »

فقال وجفنه مرخى ، ونظرته الى الأرض، وأصبعه ينفض السيجارة شوشو! اسمعى ! انك لاتزالين صغيرة .

كلا ! لست صغيرة ! أنا أطول منك . أما ترى .

ونهضت ورفعت أطراف كفيها الى كتفيها ، وعيناها الى صدرها ثم هوت بيديها الى ركبتيها ووضعتهما عليهما ، وانحنت اليه : وحدقت فى وجهه باسمة ، وهمت بالكلام ولكن هيئته صدتها ، فأسرعت الى مكانها بجانبه وجذبته من كتفه وقالت :

— مالك ؟ قل لى !

— فقال وهو منحن الى الأرض :

لاشىء اطمئنى ! كل شىء . .

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى الى النافذة ويداه فى جيوبه معطفه ، وجعل ينظر من خلال الزجاج دون أن يرى شيئاً ، ولحقت به ووقفت الى يساره هنيهة ، فلما لم يلتفت اليها طوقته بذراعيها وقالت وهى تجذبه جذبة بعد كل كلمه :

— ابراهيم ، ابن خالتى ! مالك ؟ ما تتكلم ! لست أفهم !

— ربما كان خيرا لك ألا تفهمى .

— فأدارت إليه وجهها وقالت :

— ولكنى لا أستطيع أن أراك هكذا ! ألست بنت خالتك ؟أم أنت تستصغرنى ؟

ـــ كلا يا شوشو .

ـــ قل لى إذن ولا تدعنى أتألم من أجلك هكذا بسبب جهلى ما يؤلمك.

ـــ ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشفيت ولكنى خرجت بمرض جديد شر ما فيه أنه لا طبيب له إلا . . .

ـــ إلا من ؟ قل أسرع !

ـــ لا أقوى على أكثر من هذا يا شوشو . بل أقول أنى ما أتيت إلى هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على ما يظهر.

فجرى ببال شوشو خاطر هت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمتم :

ـــ أ . . سامحنى ولكن أأنت فى حاجة إلى .. ما ..

فالتفت إليها بسرعة وقد أدرك غرضها ولم يدعها تتم الكلمة وصاح وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم :

ـــ يا بلهاء !

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوتة واجمة تحملق فى أثره وفمها مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيحته هذه تمثالا للبلاهة .

الفصل الرابع

« الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال
اذهب الى جبل المر والى تل اللبان . »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى فى هذا التاريخ —أو فى هذه الفترة من حياة صاحبنا ابراهيم — نكر راجعين بالقارىء بضعة أسابيع لنجلو ما عساه يكون مشكلا مما أسلفنا قصه فى الفصل السابق . وهى أوبة تردنا إلى أيام عشرة قضاها فى مستشفى لا حاجة بنا إلى اسمه إذ كنا لن نعود إليه مرة ثانية ، وكانت طلبتنا عنده قد زايلته . وكان كبير الأطباء صديقا لابراهيم فأوصى به الخدم والممرضات ، وأطلق له الحرية فى استقبال الزوار ، وأمرهم أن يتوخوا فى ذلك مرضاته . وكان هذا شرط ابراهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية ، فقبله واكتفى بأن ينبهه إلى وجوب الاقلال من تقبل الزيارات فى الأيام الأولى على الأقل .

وفى صباح اليوم المضروب للعملية ذهب ابراهيم وحده إلى المستشفى دون أن يخبر أمه أو ابنه .. وهما كل أهل بيته إذا أسقطنا الخدم — كأنه ماض إلى عمله . وتقدم إلى غرفة الجراحة بجأش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة — ولكنا نقول غير مكترثة لما عساه أن يكون . ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقدارا كبيرا من الكلوروفورم ، فإنه لم يكد يغسل يديه حتى كان ابراهيم قد فتح عينيه وأفاق إلى حد كبير ، فحملوه وهو منتبه ووضعوه فى سريره وتركوا إلى جانبه ممرضة تعنى به ، فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولايصنع أكثر من أن يدير عينيه فى السقف والجدران أو يرفع يديه من حين إلى حين ويمسح جبينه لغرض واحد هو أن يثبت لممرضته أنه مفيق . وهى تحدجه بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تعجب لجلده ، ثم لفت وجهه فجأة وقال : « ما اسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادى بل كان أشبه بحركة متوجع .

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر أن يسألها عنه ، فلم تجد الجواب حاضرا وتلعثمت وهي تخبره أن أسمها « مارى » وحول وجهه عنها قبل أن تنطق وعاد إلى صمته ، وكأنما توهمت أنه لم يسمع وخشيت أن يسره حسبانه أنها لم تجب أو كأنما ملت طول الصمت الذى ألزمها إياه — والصمت أشق على النساء منه على الرجال — فالت إليه وحنت عليه وكفاها على السرير لتعتمد عليه وقالت :

— أقول إن اسمي مارى .

فتصلبت عضلات وجهه وانزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيهة قبل أن يقول لها : «نعم سمعت .. أرجو ألا تضعي يدك على الفراش فيتحرك، مؤقتا على الأقل .. » .

فرفعت يديها بسرعة عن السرير وقد أدركت أن صمته تجلد وأنه يكابد من الألم ما يود أن يكتمه لسبب ما .، ونهضت وقد حدثتها نفسها أن خير ما تحسن به إليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضا إلى ما خطر لها فأومأ إليها بعينيه فعادت إلى كرسيها فقال :

— هل تعلمين أن أهلي يجهلون أنى هنا ؟

— كلا !

وبدا عليها شيء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى هو في كلامه فقال :

— أرجو أن تغتفرى لى ما أنا قائل . إن وجودك معي الآن على الأقل لا يكاد يجديني . وأنت في الخارج أنفع لى منك هنا . كم الساعة الآن ؟ .

— التاسعة والربع .

— لا يزال إذن في الوقت فسحة . إن أخي على موعد معي هنا . وهو لا يعرف شيئاً مما حدث ولا يتوقعه . وكل ما أطلعته عليه هو أني سأعرض نفسي على الدكتور .. وأني أحب أن يكون معي . وسيحضر بعد قليل .

والآن افتحى الدولاب وناولينى الورقة التى فى الجيب الأيمن من سترتى .. أشكرك .. متى جاء أخى فأطلعيه على الحقيقة وهونى عليه الأمر ما استطعت، وإذا طلب أن يرانى فقولى له إنى نائم — فإنى أخشى أن يكثر من الأسئلة الفارغة البلهاء.. وأكدى له أنى كتبت هذه الورقه بعد أن أفقت من العملية وزال عنى ألمها وذلك ليطمئن قلبه — إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض الأوقات ضروريا واطلبى منه أن يعمل بما فى الورقة حرفيا .. أحسبنى تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن أعتمد على ذكائك وحسن تصرفك ؟

فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل أن تنصرف حاجة أخرى ؟

— نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبرينى بما فعلت . ويمكنك أن تقولى له إنك آتية لترى أنائم أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوقى مالا أود حدوثه .

— ٢ —

وجرى كل شيء على ما رسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله وخاصة خلصائه ، ووحدة طويلة تتخللها فترات جعلت تطول شيئا فشيئا تؤنسه فيها مارى بمحضرها وحديثها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية الأصل وأنها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سوريا ثم تزوجت شابا إيطاليا جاء بها إلى الإسكندرية ولبثت معه ثلاث سنين قضى نحبه بعدها وخلف لها طفلا ، فزاولت الحياكة أولا ثم التمريض وها هى ذى إلى جانبه .

ومن العسير أن يصف المرء « مارى » هذه وصفاً دقيقا . ولعل من المستحيل أن يستطيع المرء وصف إنسان ما على وجه الدقة . ولكن من الممكن أن نقول — ومن الممكن أن يصدق القارىء — أن مارى كانت

تبدو فى بعض الأحيان جميلة وفى البعض الآخر غير جميلة تبعا لحالتها الصحية والنفسية . وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجثمانى أنها ذات وجه ناطق دقيق المعارف ، وأن لونها أقرب إلى الشحوب ، وأنها ضامرة الجسم ، وأن من يراها يخيل إليه أنها ظمأى كالعود من الزهر انقطع عنه الماء ، وأنها لو سقيت هذا الشراب ، الذى تقرأ فى عينيها ولونها احتياجها إليه لربت واهتزت . والمرء يستشف فى وجهها النزوع إلى انتظار رأيك قبل أن تفضى إليك برأيها — وإلى انتظار عملك أيضاً على الأرجح قبل أن تقدم هى على عمل . ومما أكد هذه النزعة فيها ، مزاولتها مهنة التمريض . والمستشفى كما يسهل أن يدرك القارىء — أشبه ببقعة معزولة عن العالم أومنتزعه من أحشائه ، يكون فيه التفكير أكثر من العمل والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجرى التفكير فيه ، حين يجرى، إلا فى دائرة ضيقة ، وقلما يؤدى إلى نتائج خيالية . ولكنه على ذلك مسرح تمثل عليه روايات تدانى فى جلالها واتساقها ووحدتها أحيانا ، خارجيات سفوكليس وشكسبير ، ويساعد على إكسابها هذه المزايا ، تركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوات على بعض .

وقد خلق إبراهيم عطوفا أليفا ، سريع الإحساس بالجمال ، ليس أقوى من نفسه من عواطف الأدب والحب ، وخلقت مارى سمحة النفس رضية الطباع ، حساسة كالوتر المشدود ، وشاءت المقادير أن يتشابها فيما وقع لهما ؛ فهو فقد زوجته وهى فقدت بعلها . وكل من الفقيدين خلفا وراءه طفلا ، وفى كلتا النفسين ذلك الحنين المخنوق الذى خلفه موت الفقيد ، ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لاعجه . وكان إبراهيم على حياته ، لا يكاد يألف إنسانا حتى يفتح له قلبه ، ويرسل معه نفسه على سجيتها ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان صاحب فكاهة وعبث ، وما عرفته امرأة إلا أعجبها منه ما فيه من الدعابة ، والفكاهة من أقصر الطرق إلى قلوب النساء ، فلم تمض إلا

خمسة أيام حتى كان إبراهيم قد تعلق بمارى ، ومارى قد شغفت بإبراهيم ، وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، — إذا صدقت الظواهر — وما أكثر ماتلاقت شفاههما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المنزوى ، الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد أن بارح المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات . غير أن الإرادة التى وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ، ففطن إبراهيم إلى مافى علاقتهما من الحرج وأدرك أن الأمر يوشك أن ينقلب مشكلا . ورأى أنه لا يستطيع أن يرضاها زوجة ، وأنها تطمع فيما هو أسمى من مرتبة الخليلة ، وهبها لم تطمع فإن ذلك لايحل مشكل حياته ، ولا ينيله مأربه ولا يبلغه مايتمنى من السكون إلى الحب المنزلى الذى لايعدل به شيئا ، فخطر له أن ينأى عن القاهرة زمنا عسى أن تطيب نفسه عنها ، وأن تروض هى نفسها على بعده . ولما لم يهده التفكير إلى خير من ذلك ، صمم عليه وشرع فى إمضاء هذا العزم من توه .

والتقيا ليلة سفره وتنزها قليلا ولما آن أن يفترقا سألته :

— متى نلتقى غدا ؟

— ليس غدا .

فقالت وهى تبتسم ولا تدرى ما عقد النية عليه : « وماذا يشغلك عنى يابرامينو ؟ » وكان برامينو ، أسمه عندها تناديه به حين تداعبه . فأجابها وهو يتكلف الابتسام :

— يشغلنى أنى مسافر .

— مسافر ؟؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟

— أوه ! لا إلى مكان معين . سأنتقل من بلدة إلى بلدة . ومن قرية إلى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

— وما داعى ذلك ؟ متى عزمت عليه ؟

— لاداعى له إلا أن دكتورك أمرنى بهوألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها وحدقت في عينيه وقالت :

— إنها إرادتك أنت لامشورة الدكتور ! لاتمار ! إنى أعرفك !!

فلم يزد على أنه ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكترث لما لظن به ، فسال ماتجمد في نظرها ولانت عضلات وجهها وبدا فيه الضعف ، وأمسكت بكتفه وقالت وهي تهزه ولاتعبأ بمن عسى أن يراهما من الناس :

— لا لا ! لاتذهب ! قل إنك باق !

فرفع كفيها عنه في رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها ، وإن لم يكن في كلامه مايعين على ذلك :

— ولكن هذا مستحيل ياماري ! لقد أبرقت إلى بعض أقاربي أنبئهم باعتزامي السفر غدا وأطلب أن يرسلوا من ينتظرني .

— أبرق إليهم مرة أخرى بعكس ذلك .

فهز كتفيه وقال :

— وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد إن لم أسافر غدا ! فالرحلة لابد منها على كل حال .

وهم أن يدعوها إلى التمشي قليلا ليسرى عنها ، غير أنه عاد فرأى أنه من الأحزم والأجدى أن ينتهي الوادع حيث هما . فاكتفى بأن يهون الأمر عليها — وعلى نفسه أيضا — ببضع كلمات ، ثم ربت لها ذقنها بأطراف أصابعه وسلم ، فقالت بعد أن تلفتت يميناً ويساراً كأنما كانت تحدثها نفسها باختلاس ضمة : « ياله من حلم قصير » .

وكان قد خلى يدها ونأى خطوة فقال :

— لالا ! لا تقولى هذا ياماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حسن وقع ذلك في نفسي قبيل سفري !!

فنبهها ذلك فدنت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان .

أما هو فسلم مرة أخرى وشد على يده وهو يبتسم ولم يجب !

الفصل الخامس

« فلت اكون حكيما اما هي فبعيدة عني »

رجع بنا الحديث إلى الريف ::

بعد أن انطلق إبراهيم من الغرفة التي كان فيها مع شوشو وخرج منها مارقا كالسهم ، انحدر مسرعا إلى غرفة نومه واستلقى برهة على « كنبة » فيها وأغمض عينيه كالذى يريد أن ينام ، وما به من نوم ، فكر أمام مخيلته كل ما وقع له مع « مارى » مما قصصناه وما لم نقصصه فى الفصل السابق ، فعاوده الحنين إليها والأسف على فراقها والألم لما خلفه لها ، ولم يكن إبراهيم ممن يحبون أن يخدعوا نفوسهم وينحلوها من المزايا ما عطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيبا إلى النساء مرموقا منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحس بالجمال ، وأحسن تقديرا له ، وأشد شعوراً بمواطن الضعف فى نفسه ، وأفطن لعيوبه من أن يتأتى له أن يغضى عن هذه العيوب وألا يكترث لها ، أو أن ينحيها عن عينيه ولا يدعها تبرز وتحجب مزاياه ؛ ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « مارى » متلهية عنه بكل ما يعدها صباها وجمالها له : ومن هو إبراهيم حتى تشغل نفسها به وتشيح بوجهها عن الدنيا من أجله ؟ ؟ أن صباها الذى ألقت بها حرارته بين ذراعيه خليق أن يلقى بها بين ذراعى سواه ، ولن تعدم رجلا يكون أفتى منه وأوفى أيضاً ! وأى حق له عليها بعد أن آثر أن يطرحها ويفر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟ ؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة استخلاص أنفاسه قليلا ؛ وكانت نافذته تطل على فناء خلفى رحيب ، بعضه — وأكثره — بستان زهر وشجر باسق ، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والأرانب وغيرها ، وحوله سور أسفله مبنى بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالحصير ، ليحجب من يكون فى الداخل

من عيون المارة . وفي الجنوب باب الخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً إذا شئن ، وكذلك من الرجال الذين يمتون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة . ورأى إبراهيم الخدم يدخلون ويخرجون ، وحديد الباب يلمع في ضوء الشمس فأدرك أن دهانه جديد ، وراقه أن يرا قب الداخلين والخارجين وما يصنعون إذ يفتحون الباب أو يغلقونه ، ومبلغ التفاتهم إلى الدهان ، وعنايتهم باتقاء تلويثه لأيديهم أو ثيابهم . فلم يجد الرجال — وكانوا قليلين على كل حال — يتفاوتون تفاوتاً يذكر ، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً أما النساء فكن أكثر اختلافاً : جاءت أولاهن — أو أولى من أبصر منهن — في ثوبها الأسود الذي يكنس الأرض وراءها وذراعاها مثنيتان إلى صدرها وعموديتان عليه ، وكفاها مفتوحتان كأنما تريد لتتقي بهما شيئاً ، فلما بلغت الباب دفعته براحتيها ودخلت وكأنما أحست أن شيئاً لصق بهما فنظرت إليهما وصاحت « يوه » ووقفت مكانها حائرة ، ثم كأنها لم تدر ماذا تصنع فجعلت تتلفت يمنة ويسرة ومضت إلى أقرب رجل أخذته عينها لتستشيره على الأرجح ، ولم تصوب نظرها مرة واحدة إلى ثوبها لترى ماذا أصابه ! وبعد قليل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب منحته جنبها ودفعته بكتفها ، ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التي ارتسمت على ذراعها مما يلي الكتف ! فرفهت هذه المناظر وأمثالها عن نفس إبراهيم ، وانبسطت أسارير وجهه ولمعت في عينيه ابتسامة خفيفة ، وإنه لمشرف على هذه الصور وإذا بصوت من ورائه يقول : « خالي ! شوشو تسأل عنك ! » وكان المتكلم محمد ابن نجية . وهو وأخته يدعوانه خالهما اختصاراً ، فألتفت إليه كالمفيق من حلم أو كأنما كان قد توهم وهو مطل من النافذة أنه مشرف من السحاب ، فلما سمع الصوت الذي يناديه أحس كأنما هبط إلى الأرض . ولكنه إحساس لم يطل ، فتناول الصبي ورفعه إليه وطبع على فمه قبلة أبوية وسأله : « أين هي ؟ » فقال الغلام : « في غرفة الاستقبال »

ويظهر أن إبراهيم إستغرب هذا فصمت قليلا كأنه يفكر ثم قال : « حسن قل لها إنى هنا لا أصنع شيئاً ، فلتأت إذا شاءت » .

فخرج الغلام يعدو ، ومشى إبراهيم الى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه . وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير فى كل ما يرى أو يسمع ، ومن عادته إذا خلا بنفسه ولم يرغب فى المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشىء محاورات وأحاديث . فجعل يفكر فى قول الصبى أن شوشو فى غرفة الاستقبال : فى غرفة الاستقبال ؟ لقد تركها هناك ! فهل تراها لم لم تبارحها . وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها منذ غادرها ، وامتدت يده الى جيبه مدفوعة بحركة لدنية وأخرجت الساعة ، وتأملها ولكنه لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر إلى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت فى هذه الغرفة . ولكن لماذا تبقى فى الغرفة وحدها ولا تزايلها ؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة ! أتراها ساءها مابدر منه ؟ ربما ! بل لا شك فى ذلك فإنها فتاة متعلمة مهذبة ولابد أن يكون قوله لها « يابلهاء » قد حز فى نفسها ، وانطلق يلوم نفسه ويعنفها ويستهجن شكاسة طبعه .

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم إليها باسطاً كلتا يديه وقال :

— أعتذر إليك يا شوشو ! سامحينى ! لقد أسأت إليك وكان ذلك سوء أدب منى بلا ريب ، فهلا تغفرين ؟

فتناولت كفيه فى كفيها وجذبتهما إليها وفى عينيها نور البشر وحول وجهها كالهالة ، وقالت وامالت رأسها إلى كتفها اليسرى : « تعتذر إلى ؟ مم بالله ؟ هيه ؟ تعالى هنا » ومضت به الى الكنبة : « قل لى ماذا كنت تصنع وحدك هنا ! أتراك جئت لتقضى الوقت كله فى هذه الغرفة ؟ اسمع ! سأغلقها بيدى بعد أن تستيقظ من النوم واحفظ مفتاحها معى ولا أسمح لك بدخولها الا وقت النوم أفهمت ؟ » .

فأعداه بشرها وقال وقد شاع فى كيانه السرور : « فهمت وسمعت ،

وأطعمت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت فى غرفة الاستقبال وحدك؟ » :

فدفعت رأسها إلى الوراء قليلا وهزتها كما يفعل العصفور بعد أن يشرب وقالت : « أنا ؟ أوه ! لاشيء ! وماذا عساني أفعل وأختى تأبى إلا أن تعدنى ضيفة ولو أقمت معها العمر كله ! » :

وفى هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل ، فأصغى إبراهيم أما شوشو فنهضت الى النافذة وأطلت منها ثم التفتت إلى إبراهيم وهى تقول : « الدكتور ! ».

فوقف ابراهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفة وهو لا يفهم :

— « دكتور ؟ هل مرض أحد ؟ » .

فبادرت إليه وقالت : « لا لا ! إنه الدكتور محمود .. قريب ابن عمى (زوج اختها) ألا تعرفه ؟ له عيادة فى البندر ويزورنا من حين الى حين ، وكلما جاء قريبنا يعود مريضاً ، والآن سأذهب لاستقباله وأجيء به » :

— ليس إلى هنا وأنا فى هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت : « لا تخف ! بل فى الغرفة التى أمام غرفتك .. هذه (وأشارت إليها) أما ثيابك فما لها ؟ إنك فى قرية ولا حاجة بك إلى تغييرها » ، ومضت تعدو ...

الفصل السادس

« ارجعى ، ارجعى ، ياشوليت ! ارجعى ارجعى ، فننتظر إليك » :

لم يسمع إبراهيم إلا أن يطل من النافذة . ولم يكن يعرف هذا الدكتور ولا سمع به ، أو على الاصح لا يذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغربال الواسع الخروق ، وكانت الأسماء أول ما ينسى إذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيرا ما كان ذلك يخجله ، وكان ربما التقى بالنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو أسميهما جميعا ، أن يقوم بواجب التعريف . وكان إذا تحرج الموقف ولم يجد بدا من أداء هذا الواجب ، يلجأ إلى المداعبة ويقول لهما : « إذا شئتما أن تتعارفا فلا اعتراض لى ولكن لا تنتظرا منى معونة ! » . فيتقدم كل منهما للآخر باسمه فى حياء واضطراب ويخرج هو بذكر ما كان ناسيا ! :

ولم يفارقه الوجوم منذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتى شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نطقت باسمه أن أحدا قد مرض فجأة ، وإن كانت شوشو قد بادرت إلى نفى ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتح على العموم لما ظهر له من أن شوشو تقابل هذا الدكتور وإن كان قريب ابن عمها ، وكان هو — إبراهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لأنه لم يجد فى الساعات القليلة التى أقامها فى الريف ما كان يتوقع من الإيناس والشواغل ، أو لعله كان لكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فإن الذى حدث هو أنه لم يكد يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعيها الزجاجيين كأنما كان هذا ما قصد إليه ، ثم عاد إلى الكنبة ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة .

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترجل وترك المركبة فى حراسة أحد الخدم

ودخل البيت فاستقبلته شوشو فى وسط السلم وصعدت به إلى الغرفة المواجهة لغرفة إبراهيم .

وبعد هنيهة دخلت على إبراهيم فاطمة الزنجية التى كره وجهها وكلامها فى الصباح ، وقالت وهى مطرقة بها شىء من الوجل :

— تفضل يا سيدى . .

فنحى السيجارة عن فمه وأرسل نفخة من دخانها ، وأمال رأسه إلى ناحية السيجارة — وكانت فى يمناه — وقال لها بلهجة مبطنة بالمرارة :

— إلى أين يا ستى إن شاء الله ؟

فأحست المسكينة أن حادثة الصباح ستتكرر ، فقالت وهى مضطربة :

— عند ستى شوشو والدكتور .

— ما أسرع ما نسيتى ستك شوشو بدكتورها . أنا أيضا ضيف كالدكتور ولم أسبقه إلا بساعات .

قال هذا بصوت خفيض وعينه إلى الأرض كأنما كان يحدث نفسه . ثم رفع رأسه إلى الخادمة التى كانت تخالسه النظر وقال :

— ألم تجد ستك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا .. أنا .. يا سيدى . .

— أنت تخرجين من هنا .. (بصوت عال) .

فخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تحلف ألا تريه وجهها .

أما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى فى الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفى وسع من يكون فى الغرفة المقابلة أن يراه ، فظل قاعدا وجعل يتمتم : « قبح الله الريف وساكنيه ! . . لو أنها كانت فتاة من أجلاف الريف لعذرتها . . ولكنها تعلمت . فى المدارس الفرنسية أيضـا . . وليست الصغيرة على كل حال حتى يغتفر لها ذلك . . الواقع أن مجيئى إلى هنا كان خطأ . . يجب أن أعود أدراجى أو أن أرحل إلى الإسكندرية فهى من

هنا قريبة .. إن أعصابى ضعيفة ولا قبل لى باحتمال هذه الفصول الباردة .. وأنا لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة إلى هنا .. ذاك الميت الحى الذى لم يكفه إسماعيل واحد ولم يرض بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مضيفى ! كيف يمكن أن أطيق كل هذا الجهل والجلافة ؟؟ » .

وكر به الفكر إلى مارى .. مارى السمحة المؤدبة الوديعة ، التى كانت تقرأ فى وجهه كل ما يدور فى نفسه ، وتسبقه إلى ما يطلب قبل أن يتحرك لسانه ، مارى التى فر منها بلا سبب ، وحرم نفسه متعة حديثها ، وأنس محضرها ولذاذة حبها ، مارى التى كان إذا خلا بها يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه إلى صدرها ، وتمسح له وجهها براحته ، وهى تحنو عليه وتقبله ، وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال وهو يشير بأصبعه : « كلا ! لا بد أن أكتب إليها لتلحق بى فى الإسكندرية .. » .

— من هى ؟

فالتفت فإذا شوشو واقفة فى مدخل الباب ، وذراعاها ممدودتان وكفاها على المصراعين ، وقدها الممشوق بادية معالمه كلها بفضل وقفتها ، وثوبها الصوفى المحبوك ، فبهت إبراهيم كما بهت الذى كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ، ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن خياله النشيط جسم له الأمر فارتبك ، وبدا ذلك كأجلى ما يكون فى جموده مكانه ، وفى ثبات حملاقه ، وذهول نظرته ، وانفراج شفتيه ، وتصلب يمناه المثنية على صدره .

فزايلت شوشو ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها حتى تلامسا ، ووقفت إلى جانبه تحدجه بنظرها ، ثم قالت له وتكلفت الابتسام وإن كان لونها ممتقعا :

— ستحرق السيجارة أصابعك إذا لم تنتبه !

وكأنما رد صوتها بعض رشده إليه ، فحنى رأسه وصوب عينيه إلى يده وقال : « نعم أشكرك » وبدا منه مثل حركة من يهم بالقعود ، وإن لم يكن وراءه شيء فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماما والتفت وراءه ثم رفع إليها وجهه الشاحب المتهضم وقال : « أشكرك ثانية » فقالت وهي تقسر نفسها على الابتسام ولاتدرى ماذا تهدى إليه :

— من حسن الحظ أن الدكتور هنا ، وإنى أستطيع أن أكون ممرضة عند الحاجة !

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة ، كأنها خارجة من صدر رجل طعن وهو نائم .

— « يجب أن تجلس . إنك مريض » وتناولت يده تجسها .

— كلا ! كلا ! لست مريضا . دعيني .

ولكنه أطاعها وجلس وهو يتأفف ، ويمر يده على وجهه

— إن الدكتور وحده . . اذهبي اليه . . حقيقة لايليق أن تدعيه وحده .

— لاأستطيع أن أتركك وحدك ولكن أنتظر .

وخرجت مسرعة .

وبعد دقائق عادت وأخبرته أنها صعدت بالدكتور إلى أختها . ثم قالت :

— والآن أراك أحسن مما كنت حين تركتك . ألست كذلك ؟

— نعم أحسن كثيرا .

— إذن قم والبس بدلتك ، فقد كلفتني حيلتي كذبة . فعليك أن تبيض وجهي .

— أي كذبة ؟

— لقد قلت لهما إنك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا في بدلتك ، كذبة قلتها كسبا للوقت لأني خفت أن تطول هذه الحالة التي رأيتك عليها . وكلفتني غير الكذبة شيئاً آخر ، ولكني سأحاسبك فيما بعد . أما الآن فالبس ثيابك وسأسبقك .

الفصل السابع

« أيتها الجالسة فى الجنات . الاصحاب يسمعون صوتك فاسمعينى » ..

— ٢ —

صعد إبراهيم إلى غرفة الاستقبال العائلية التى جلس فيها بعد الإفطار مع شوشو برهة ، فألفى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير ابن نجية يبكى — أو على الأصح تبكى حنجرته الجديدة دون عينيه — لسبب لاشك يدعو إلى بكاء مثله ، وفى كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى فى صقالها كيف يبدو الوجه الإنسانى حين يبكى حامله ! وكان يكف عن النشيج كلما استوقفه المنظر العام أو لفته منه شىء خاص ، ثم يستأنف الاعوال ! وكانت زينب أخته — أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأسرة — معتمدة بذراعيها على كرسى ، ومنحنية عليه وناظرة إلى مقعده ، ومشتغلة بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء ؛ وأمها نجية تلتفت إليها من حين إلى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفا على الكرسى ، بمثل هذه الأصوات : توْ . . توْ . . توْ . . ؛ ثم تعود وتحول وجهها إلى الدكتور إلى جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها أما شوشو فلم تكن فى الغرفة ساعة دخلها إبراهيم .

ووقف الدكتور وتقدم خطوات ، ومد يده إلى إبراهيم وتصافحا ورفع محمد عينه عن المرآة ونظر بمؤخرها إلى القادم فى سكون ، ثم أكب عليها ومضى فى عويله الذى يظهر أنه كان يجد فيه نوعا من الامتاع ، ولكنه لأمر ما هبط بطبقة هذه النغمات أوطأ ما يستطيع . وتخلت زوزو عن الكرسى وخفت إلى إبراهيم وتمسحت به وهو يسلم على الدكتور ، كما تتمسح القطط بأصحابها . فاحتملها وجلس وأجلسها

على ركبته ، فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله فى صمت تام وابتسام لم تكد تفوز بمثله من موضع عطفها وحبها حتى انقلب ضحكا عاليا .

ودخلت شوشو فى إثر إبراهيم - كأنما كانت مختبئة تنتظره - فأثارها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها إذ تبدو كأن أوصالها ساكنة وهى تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيها الدقيقين الحادين يختلجان ، وعيناها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والخبث والدلال والسذاجة ، وكانت شفتاها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبا أنفها الجميل . وإذا قلنا أنفها الجميل فقد قلنا كثيرا فما أندر الأنوف الجميلة وإن كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية . وإذا أضفت إلى هذا وذاك خصلا متموجة من الشعر الأصفر ، وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها ، أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التى صارت فى هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر !

وتخلى لها الدكتور عن مقعده ، ومضى إلى آخر الغرفة ليأتى بكرسى لنفسه ، فابتسم إبراهيم الذى تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو - إذ رآه يمشى وأحد كتفيه إلى الأمام ورأسه مائل إلى اليسار وذراعاه تضطربان فى الهواء كأنما خلتا من الأعصاب أو كأنهما كانا فارغان .

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل ، قالت شوشو وهى تنظر عن عرض إلى إبراهيم ، وكان مطرقا يهمس فى أذن زوزو ، وإن لم يفت عينه ولا أذنه شىء :

- ما قولك يا دكتور ! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك ، فاقضه معنا فإن ابن خالتى يمل مجالستنا ويهرب منا دائما إلى غرفته .

فلم يبد على الدكتور كأن هذا يضايقه جدا وقال :

- ولكن . .

- قل إنك موافق . . . أسرع .

قالتها بلهجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضا على ما يوافق عليه قلبه فقال :

— إذا كان الاستاذ (فرفع إبراهيم وجهه ونظر إليه نظرة بلهاء جوفاء) لا يرى في وجودى ما يزيد ميله إلى الهرب فأنى على أتم استعداد . .

— معذرة ياسيدى الدكتور إذا قاطعتك . يظهر انك لا تعرف أساليب شوشو المحرجة (ضحك مكتوم من شوشو) أؤكد لك أنها لا تعنى ماتقول.. أنا أعرف بها منك .

— بل أعرف كل حرف .

— نعم تعنين أنك تطلبين إلى الدكتور أن يقضى اليوم معنا — أعنى هنا — ولكن الباقى الذى يخصنى ليس سوى عبث منك بى وحدى .

— سله يادكتور بذمته أليس فى عزمه أن يطير إلى الإسكندرية حالا لو أنه يستطيع ؟

فالت نجية إلى الأمام وحملقت فى وجهه ثم فى وجوههم وقالت :

— يسافر ؟ كيف ؟ وهل أقام شيئا حتى يفكر فى السفر ؟

— سليه يا أختى ! (بخبث) .

فقالت نجية بلهجة من كاد يهتدى إلى السر . « أتراك رأيت . . . . »

ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة :

— لا لا ، إنك لا تنسين عفاريتك قط ! أنا أعرف السبب !

ورمت إلى إبراهيم نظرة .

فقال إبراهيم بصوت اليائس : « ربما » واضطجع فى كرسيه وأطبق شفتيه إطباق من لا ينوى أن يفتحهما مرة ثانية .

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسعه أن يشترك فى هذه المناقشة العائلية ، ولمح أن إبراهيم لا يحب أن يتوسع فيها . ورأت شوشو أن إشارتها إلى ماسمعته عفوا من إبراهيم وهو يحدث نفسه فى غرفته قد أعادت إليه الاكتئاب ، فندمت وصار الكلام متكلفا متقطعا .

وكان الافق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة فى مجاليه ، وبدأت تهمى وترسل صفحات متموجة من المطر ترق حينا وتكثف حينا آخر . وجعلت الأشجار المغروسة وراء البيت تتوجع كالبؤساء من الرياح التى تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر إليها بهذه الحركة التى لم تعهد منها ، كما يروعك الرجل القوى حين يبكى ، وراحت الغصون المتدلية تتصعد وتتصوب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وتترنح وتبدو كأنها توشك أن تتقصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت ، حتى صارت الأغصان المتقاربة فى الشجرة الواحدة من هذه الاشجار تميل كل مميل وتتضارب وقد تشتبك ، وجعلت الأوراق — ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فروع الزروع . وأظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر العصى ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ، ثم قالت شوشو وفى وجهها أمارات الفوز وفى صوتها نبرات السرور :

— الآن يادكتور لم يبق لك مفر من البقاء !

ونظرت إلى إبراهيم تبتغى تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد ، فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم إبراهيم لها معنى ، ولم يعرف لها داعيا ! وبدا له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا الجو العاصف ، فأخذ يراقب الدكتور ويحصى عليه حركاته وأنفاسه ، فخيل له — ولعله غير مخطىء — أن الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسما حتى وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ، ثم صارت المسألة التى تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمرارا أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هى ترامقه أيضا أم هذه الاختلاجات التى يراها فى جفونها عفو لا عمد فيه ؟ وعلى كثرة

مافكر فى ذلك وطول ما شغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن إلى جواب يسكن به إليه .

ولما أعياه جواب هذه الأسئله وأمثالها نفض يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالا آخر عنى به نفسه برهة أخرى فى خلال هذه الجلسة التى طالت بفعل الجو الفاسد : ماله يتعب نفسه بالتفكير فى ذلك ؟ ليترامقا ما شاءا ! وهل يعنيه من أمرهما شيء ؟ وكان الجواب الذى لم يسترح إليه أنه حب الاستطلاع المركوز فى طبيعته ، وأنه مفطور على دقة الملاحظة ، وليس يسعه إلا ذلك ولا حيلة له فيه ، وليس من الضرورى دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر . أو علة خفية . وأى شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ ·لاشيء على التحقيق ! فهز كتفيه ومط شفتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب فى زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيها من شدة الضحك ، والدكتور يبتسم — ابتساماً هو أقرب إلى الضحك المكتوم فيما يرى — ويسألها مالها ؟ ونجية مرتجة الأنحاء مما أصابها من عدوى الضحك ، وكفها على ذلك الجانب من فمها الذى يواجه إبراهيم ، فلم يفهم ، وهم — تنفيذاً لعزمه — أن يضحك مثلهم ، ولكنه أطبق شفتيه بعد أن فتحهما لما لمح من حركات شوشو ونظراتها وإشاراتها أن شيئاً فيه هو الذى يضحكها ، فأسرع فأدار عينيه فى ثيابه ، فلم تأخذ شيئاً غريباً ، فعاد فرفعهما إليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمستفسر فلم يلق جواباً سوى هذا الضحك ، فشعر بالدم يصعد إلى رأسه ويتجمع فيما وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردها بجهد ، ونجية تضحك قليلا ثم تسألها : « مالك ؟ » والدكتور يتلفت متظاهرا بالاستغراب ، ويضرب كفاً بكف ، ومحمد وزوزو يقهقهان وينحنيان وتخذلهما أرجلهما فيقعان على البساط ، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفتيها وفمها يقول « بف بف ! » .

ومضت دقائق خيلت أطول مما هى ، ولم تعد شوشو فنهض

الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى إلى النافذة حيث وقف هنيهة يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ، ثم عاد ويسراه في جيبه ويمناه تعبث بسلسلة الساعة الذهبية وقال : « سأنظر أين ذهبت شوشو» وخرج فألفاها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته المؤدية إلى السطوح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعها وهو يدنو منها تغنى بصوت خفيض فاقترب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه إلى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع جميعاً . والقارىء لابد يعلم أن الرجل اذا وقعت من نفسه امرأة فهو يحضرها إلى ذهنه في صورة هي أحب إليه مما عداها ، لأن هذه الصورة تكون أعلق بذاكرته وتكون هي المظهر الذي تبدو فيه لخياله حين يتمثلها . وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التي رآها الدكتور عليها في ذلك المكان ، وصارت تزوره فيها في كلا نومه ويقظته . والمنظر عبارة عن فتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، في ثوب من الصوف قرمزي لاصق بالبدن بحيث لايفلت شيء بينا هي منحنية بجنبها الأيمن على حاجز السلم ، ومعتمدة بخدها الأيمن على كفها ، وبكوعها على هذا الحاجز . أما راحتها اليسرى فطبقة في خصرها الذي يبرز من تحته ردفاها مرتفعين مائلين إلى اليسار قليلا ، وجيدها الأتلع النضير قد انثنى عليه القرط تحت شعرها الذهبي المقصوص . وهذا ماكان بادياً منها لعين الدكتور حيث وقف يرجو أن تظل كما هي لاتشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .

ولكنها تحركت ! أما لأنها أحست به وإما لأن الوقفة أتعبتها أو أملتها فرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ، ولكنها لم تتجهم له وقالت وفي عينيها نظرة عتب ورضى في آن :

— آه ! ألك هنا كثير ؟

فدنا منها خطوة : « لا ! » « مع الأسف ! » .

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة

الأولى بين ... على الحاجز وصدرها
بثدييه المستديرين بارز.
- أكنت تتسمع ؟
فقال برقة ، ومد رجله لخطوة أخرى لم يخطها :
- ربما كنت أشد التفاتاً إلى مصدر الصوت.
فقالت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه :
- لا تقل هذا يا دكتور !
- ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابي بك.
فلم يبد عليها ما يدل على الارتياح إلى إعرابه عن هذا « الإعجاب »
وودت لو أنه استخدم في وصف شعوره لفظاً أقوى من « الإعجاب »
وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا ما مر الى الان :
- كلا هذا لا يليق. وأنت تعلم أني محقة !
فدهش - وهل كان ياترى من حقه أن يدهش ؟ - ولم يدر ماذا أغضبها
فجأة وقال :
- ولكن يا عزيزتي . .
فقاطعته بلهجة أشد قسوة :
- لست عزيزة أحد من فضلك !
وكأنما آلمها أن تكون عزيزة أحد ، وإن كانت هي التي حرمت نفسها
هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب في أسارير وجهها الذي بدا كأنه
طال فجأة ، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها أنها حديثة عهد
بالبكاء ، أو أنها مشفية عليه ، فلم يسعه الا أن ينقل رجله الأخرى
ويخطو الخطوة التي كان هم بها وصده عنها ما لا نعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق
بها فنحت عنه وجهها ومنحته كتفاً ، فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها
وقال وفي صوته نبرات الأسف والألم الصادقين :

— ولكنى لا أفهم ! بأى شيء أسأت إليك يا عزيزتى ؟

— قلت لك لست عزيزة .. عزيزتك !

فلم يفهم أيضا ! وأنى له أن يطلع على ما تطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقه الله تلك الفطرة التى تهديه إلى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لهواها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

— حسن ! لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها ، فلا داعى للفتور . ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

— أدعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟

— اتفقنا إذن . . .

وابتسم ، وأبى له سوء الحظ وعماه فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو » .

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه .

وتخلف هو برهة ثم لحق بها وهو يقول :

— ما أعجب أطوار النساء ! .

ولو أنه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها :

— ما أشد غباوته ! .

الفصل الثامن

« يغمز بعينيه ، يقول برجليه ، يشير باصابعه ، في قلبه اكاذيب »

١

جاء وقت الطعام فجلسوا إليه في غرفته ، أو على الأصح في الردهة الفسيحة التي تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة كراسي من الخيزران . وكان إبراهيم قد سبقهم ولكنه تلكأ عند باب السلم ووقف — حيث كانت شوشو منذ برهة ! — يتأمل الجو ويمد ذراعه ليتلقى بكفه المطر الذي كان لا يزال ينهمر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو إلى الدكتور ، ونظر الدكتور إلى شوشو وقد طاف برأسيهما خاطر واحد . وقال كل منهما لنفسه : « أتراه رآنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت للأقدار التي جعلتها هي تسمعه في الصباح وجعلته هو — فيما تظن — يراها أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية : « يظهر أنه لم يجع » .

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة

— بل يظهر أنه ينتظر المن من السماء :

ومضت إليه وأمسكت بذراعه وجرته معها وهي تقول :

— هكذا يجب أن تعامل ، اجلس هنا !

وكان الدكتور حسن الحظ فقد جلست شوشو إلى جانبه ..

وكان من بواعث سروره الحقيقي أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب

سهت شوشو فشربت منه وإن لم يكن كوبها ! » وأن القطة التي لبثت هنيهة في حجر شوشو انتقلت إلى حجره وألمسته شعرها الذي لمس شوشو من قبل . يضاف إلى ذلك أنه هم أن يساعدها ، وحمل إلى طبقها شيئا من الخضر رفضته فنقله إلى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من حين إلى حين يختلس نظرة إلى جانب وجهها وإلى جيدها وغير ذلك من بدائع هذه الفتاة التي ظلت أكثر الوقت تلقي الحديث إلى إبراهيم الجالس أمامها . وكانت فاطمة تتوخى أن تقف وراء إبراهيم مخافة أن يراها ، وستها شوشو لا تفتأ تدعوها أن تنحي عنه لئلا تلوث له ثيابه وهي تضع الصحاف أو ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة إلى شوشو بيدها وتعض شفتها السفلى وتومىء بعينها إلى إبراهيم فيضحك منظرها شوشو ، ويدير إبراهيم وجهه إلى فاطمة فتجمد وتنقطع حركاتها وإشاراتها وتقول نجية :

— دعيها يا أختي فإنها مستحية .

وفرغوا من الطعام فأشعل إبراهيم سيجارة ، وكان الدكتور يهم بالقيام عن المائدة ، فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح إبراهيم ذلك فقال :

— لا تكلف نفسك هذه العادات الأفرنجية يا دكتور إننا هنا — على رأي شوشو — في الريف وعلى أننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى في العاصمة ، ويمكنك أن تسبقنا إذا شئت فإني باق هنا مع بنت خالتي « وأشار بعينه إلى نجية » . اذهبي ياشوشو معه .

— ٢ —

قالت شوشو للدكتور لما صارا وحدهما في غرفة الجلوس :

— إن هذا حسن جدا بلا شك ؟

— ماذا ؟

— أظنه يسرك جدا ؟

ــ ولكن ماذا ؟

ــ ألا تستطيع أن ترى أن ابن خالتي رآك واقفا معي وسمع ما تفضلت علي به .

ــ ولكن كيف يمكن ؟ وهبيه رأى وسمع فماذا إذن ؟ وهل فيما قلت شيء لاينبغي أن يقال ؟

ــ بلا شك .

ــ يظهر أن قلبي لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لساني ! فياله من زمن يتعقب سوء الحظ فيه الرجل من أجل أنه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لأنه أعرب لها عن إعجابه بجمالها ؟ أو كان علي أن أكابر وأن أزعم أني أكره دمامتك ؟ يجب أن تعترفي أنه ما كان يعني أقل مما قلت .

فمضت شوشو إلى النافذة لتخفي أمارات السرور الطبيعي الذي لمع في عينيها ورجفت له شفتاها ، وقالت وهي سائرة :

ــ أحسب أن من واجبي أن أشكرك يا دكتور ؟

فتبعها وهو يعبث بسلسلة ساعته وقال :

ــ إن من الثناء ما هو إساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبي . ولكن من المعاملة ما هو ظالم ، وقد تكون معاملتك إياي من هذا القبيل . رجل صريح لم يألف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب !

فقالت ووجهها إلى النافذة :

ــ لست أسمح للأغراب أن يجترئوا علي حتى بالمدح .

فقال بلهجة الظافر :

ــ آه ! إنه ليس المدح الذي تستحقين أضعافه هو الذي يغضبك بل صدوره عني ! ولو أن غيري ــ إبراهيم مثلا ــ كان محلي .

فتجهمت له وقاطعته :

ـ إنى أمنعك ! إنه ابن خالتى ، بل أخى وأعز أهلنا علينا ، وهو لا يحلم بأن يفعل ما فعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعبيسة وضاعف الحملة :

ـ أن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم أنى صادق فى وصفى لك رضيت أم سخطت . وهل كنت تريدين أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمامتك لا لسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفيك من الارتباك والخجل حين تسمعين أنك جميلة ؟

فزادت تعبيسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

ـ إن هذا كله تكلف . وأنت تعلم ، كما أعلم ، أنك لم تقل إنى . .

ـ لقد قلت انك جميلة .

ـ كلا ! هذا كذب .

ـ وأقول ذلك الآن . . . وإنك لكذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . ويمينا . .

ـ لا تحلف فلن أصغى إليك . إنك فظيع .

ووقفت مضطربة بين الخجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه . أما هو فلم يعبأ شيئا بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

ـ أكرر أنك من أفتن النساء ، فهل فى هذا كذب ؟ إن الأمر واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجتراء ، ولكن الاخلاص شفيعى .

ـ كلا . لأنك غير صادق .

ـ مهلا مهلا يا شوشو ! واسمحى لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب به إعجابى بجمالك . ولا أحسبنى أول من وصفك بهذا . ويجب أن تصدق الناس إذا لم تصدقينى .

فلم تستطع أن ترد نفسها عن مسايرته إلى حيث يجرها فقالت :

ـ إن الناس لايقولون عني ذلك .

ـ بل لا بد أنهم يفعلون وإلا كانوا عمياً .

ـ أعني أني لا أسمعهم فإنك تعلم أني لا أقابل غير أهلي ، ولعلي مخطئة في السماح لك برؤيتي .

فلم يلتفت إلى الشطر الأخير من كلامها ، ولم يسمح لها أن تزحزحه عن موقفه وقال :

ـ ولكنك تعرفين أنهم يقراون هذا ؟

فأغرتها حلاوة الإعتراف بالموافقة ، وصدها التأدب والحياء فاضطربت « لا ـ أعني ـ سمعت فاطمة تقول إنهم يذكرونني بذلك . . غير أن . . » ولمحت أختها وابن خالتها مقبلين ، فنبه ذلك في نفسها طبيعتها العابثة ، وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال :

ـ إذن نحكم ابن خالتي . تعال أفصل في الأمر .

فريع الدكتور واصفر وجهه ودارت الأرض به ، ولم يعد يدري أواقف هو على رجليه أم رأسه ، وتلفت كالذي يبحث عن نافذة يثب منها ولم يستطع أن يمنعها أو يقول لها شيئا لأنها باغتته بما لم يكن له في حساب ، ولم تزد على أن ألقت إليه نظرة خبيثة ثم تقدمت إلى الباب .

وقال إبراهيم : « ماذا ؟ فيم تختلفان ؟ » .

وكان الدكتور لايزال واجماً ممتقع اللون مسمراً في مكانه ، وقد بدا لنفسه سخيفاً جداً لايدري بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذي تهم شوشو بأن تضعه فيه .

فقالت شوشو ـ وهي ترمي إلى الدكتور بالنظرة ، وتمتع عينيها بمنظره وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف :

ـ إنه يقول لي . . ويكرر . . ويؤكد . . ويقسم . . أني أنه . .

فعيل صبر الدكتور وصاح بها : « شوشو » .

— لا تقاطعني من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتي هذه الحماقة.

فقال إبراهيم عابسا :

— حماقة ؟ ماذا تعنين ياشوشو ؟

أعني أنها حماقة وجرأة وجنون . ولا بد أن أبسط لك الأمر ليتأتى لك أن تحكم ، فأمسك أنت أيضا عن المقاطعة من فضلك . .

ثم كأنها رثت للدكتور المسكين ، فكفت عن تعذيبه وقالت :

— يقول إنه لا يستطيع البقاء معنا ، وأنه لابد له من العود إلى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات . وأنا أقول له إن العود مستحيل فى مثل هذا الجو المطير ، فاقض بيننا بالحق .

وجلست ، فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاكية ، ولم يسر عنه ما قالت لأنه — على فرط ذهوله — أدرك أنها تبيعه صمتها بثمن معين هو أن يجلو عن البيت حالا . فيالها من عقوبة تنزلها به جزاء له على ما أجترأ به عليها من المغازلة البريئة ؟ أفتراها كانت ، وهى تعاطيه الحديث ، تفكر فى هذه الوثبة التى قصمت ظهره ، وأطارت لبه ، وشردت عقله ؟ وياليت من يدرى أجادة هى أم هازلة ؟ وعلى أنه لم يطل التفكير فى تلك اللحظة ، ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التى جعلته رهن مشيئة شوشو ، على الأقل فى هذا الموقف ، فهز رأسه لنجية وإبراهيم أن « نعم » وبلع ريقه ومد يده إلى جيبه ثم أخرجها وقال : « لقد كنت ناسيا فاذكرتني المفكرة وأنا أنظر فيها عرضا . وأنا أعلم أن الخروج فى مثل هذا الجو حماقة ، ولكن واجب الطبيب فوق راحته » .

وأظهر الإصرار وراح يدفع « بالواجب » و « بحالة الم[illegible] اعتراض حتى أذنوا له بكرههم .

الفصل التاسع

« من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع الريح فى حفنتيه ؟ من صر المياه فى ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الريح ، وكان إبراهيم واقفا إلى نافذة غرفته يطل على الحديقة التى مر بك الكلام عليها ، أو على الأصح يحدق فى الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لفت بهما الكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بما يرسمه له خياله النشيط . وكان البرد قارصا والليل صامتا لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شيء فى السماء والأرض صورة مرسومة ، وقد خيل إلى إبراهيم وهو يرى هذا السواد بعينيه كأن هاوية من الخرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة ، وأنه لو أرسل فى ظلمتها صيحة لما ارتد منها إلى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه لو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعا ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير إنسانية يعى الأنسان نعتها ، أو كأنها فى غيبوبة أفقدتها وعيها أو كأنما هو ينظر إلى الدنيا الذاهلة عنه من خلفها ويتأملها وهى مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون .

وعالج إبراهيم ، وهو ثابت الحملاق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال والموت فى آن ، وأن يتبين نوع إحساسه به ، وأن يهتدى إلى العبارة عنه فأعياه التماس ذلك ، وماذا عسى أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المنظر المسحور — هذه الدنيا التى أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الأمر على شوشو أو لعلهـــا خشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا ، فقـــد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره

براحتها ، وهو فى شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده إلى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته إليها وربتت له خده فاختلجت شفتاه ولكنه لم ينطق ، فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهى تجره إلى الكنبة :

— قل لى مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلقى على الأصح بنفسه على الكنبة :

— تسألينى ما بى ؟ ؟ بى هـذه الطبيعة التى كانت منذ ساعة تبرق وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آضت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ فى صباى عمن مسخوا حجارة !

— هل تريد أن تقول أن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟

— نعم . ولشد ما أتمنى أن أجرب ذلك فى نفسى لحظة واحدة ! لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس ألسنة الهواتف وتمحى صور الحوادث ، ويغيض ذلك العباب الجائش هنا فى صدرى هذا .

فقاطعته شوشو قائلة :

— ما أعجب أمرك والله ! تكون معنا كأن لا شىء على وجه الأرض يعنيك ثم لا تكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب إنسانا غيرك ، كأن فى جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى إلى بما يكربك ؟ قل لى ! هات ما عندك ! أطلعنى على دخلة نفسك ! ائتمنى على سرك .

فوقع من نفسه عطفها وحنوها ، وهم أن يبثها شكواه ويقول لها بشجوه ولكنه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت إليها ، ثم ملك نفسه وكبحها ، وقال وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل من ذلك السحر :

— يا فتاتى الصغيرة أتقدرين أن ..

فحزت هذه الابتسامة فى نفس شوشو ووثبت إلى قدميها وهى تقول :

— بودى أن لا تتكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحبو ؟

— لا تغضبى ! (ومد يده فتناول ذراعها) عودى إلى مكانك بجانبى . دعى بدواتى هذه . لا تلتفتى إليها . إنها مرارة النفس يقطر بها اللسان وينضح بها الوجه وتفيض بها العين ، وبكرهى أن ترى ذلك أنت أو سواك من خلق الله — آه يا شوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتنى .

— وماذا يمنعك أن تخبرنى فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟

— يمنعنى كبرياء نفسى وعلمى أن الشكوى عبث وباطل ومحال ليس بجدى .

— أدام الله عليك الكبرياء التى أفاضها عليك !

ونظرت إلى ساعتها على معصمها وقالت :

— الساعة الآن الحادية عشرة فقم إلى سريرك والتحف بها !

فضحك وقال :

— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟

— أو يعنيك أن تعرف ؟

— بلا شك .

— إذن اعلم أنى لست ذاهبة لأنام .

— وماذا تنوين أن تصنعى ؟

— سأجلس قليلا وأفكر .

— فى أى شىء ؟

— ليس لى مثل كبريائك فلا أكتمك أنى سأفكر فى غرابة أطوارك .

— آه ! أولا تزالين غضبى ؟

— كلا . ليس مابى غضباً . لقد كنت أود . . على أن هذا لايهم الآن . . .

فخطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذر فقال :

— اسمعي ياشوشو . إن الواحدة تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الأنبياء ومنزلة الرسل . . إن . .

قالت مقاطعة : « لا أفهم » .

قال : « لست وحدك التي لاتفهم . إن كل امرأة مثلك لاتستطيع أن تخرج من خصوصها إلى العموم . إن قلب الواحدة منكن يدق عطفا ومرثية للألم الفردى ، ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو إحساسة على العموم عميقا شاملا لآلام الحياة . . . » .

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر :

— صدقني أني أعطف عليك .

فقال ، ولم يلتفت إلى سخرها :

— إن الجنس الإنسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أو هذا الرجل المعين الذى أبصرته واقفا إلى جانب الباب ينتظر فى البرد أو تحت الشمس مثلا . إن المرأة عاجزة عن الإحساس بالآلام العامة ، « عمياء لاتستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمياء نصف مستوحشة تصرخ شرقاً وغرباً وقد أجنها الألم والخطيئة أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا النمر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز الثياب من فرط إحساسها « بجملة » هذا الألم العالمى ؟ أريني دمعة واحدة أراقتها امرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها — لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن وسهولة أسبابها ! إنكن لا تبكين إلا لما تعرفن وأنتن معذورات : طفل مريض تلمسه المرأة بأصابعها فتحس مابه من

الحمى فتنهمر الدموع ! ولكن مليونا يمرضون ! آه هذا شيء آخر! ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تبكين من أجل الكسور العشرية أو المركبة ، أنكن لاتفهمن الدنيا باعتبارها وحدة وكلا ، ومن أجل هذا لاتتأثر بكن هذه الدنيا لأن الواحدة منكن لاتقدر أن تتسرب في المجموع وتفنى في الجماعة . نجد فيكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى فيكن الولية والقديسة ، ولكنا لن نفوز منكن بنبي أورسول ! لاحتى ولا بشاعرة .

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذى ساعفه على كل هذا الكلام ، واضطجع ,وأطبق شفتيه .

ولم تجبه شوشو بشيء بل نهضت وأغلقت الباب وراءها .

— ٢ —

استيقظ إبراهيم على صوت بقرة ، فدفع يده تحت الوسادة وتناول الساعة فألفاها الثالثة صباحا ، فعاد فأغمض عينيه وفى ظنه أن البقرة ستكف عن هذا الصخب الذى جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على مايظهر كانت تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب من السرير الى النافذة فإذا السماء صافية والقمر مضيء ففتحها وأطل برأسه فرأى البقرة إلى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عينها إلى السماء ، ولم يكن يعرف البقر الا مجازا ، ولا كان له بهذا الضرب من الخلائق عهد فجعل يصيح بها وهش . هش. ، ويوهمها أنه سيقذفها بشيء ، غير أن صيحاته وحركاته واشاراته كانت تنعشها كأنما سرها ان تعرف أن لأصواتها مستمعا كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعيه . فلما رأى ذلك توهم أن ظهوره لها هو الذى يشجعها وأنها خليقة أن تثوب إلى السكينة وأن تثبط همتها إذا انصرف عنها ، فاغلق النافذة وتحرى أن يحدث فى إغلاقها من الضجيج أكثر مما تدعو إليه الحاجة إيذانا لها بإهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة

أن احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت فى الأداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً وأن الإحساس فيه فاتر ، فاطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد كاد يطبقها النعاس فأطارته هذه الصيحات المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها ، فجر نفسه إلى الكنبة وانطرح عليها وأشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا النحو .

« النوم قد جفانى ولا سبيل إليه الآن ما دامت هذه البقرة قد شاءت أن تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا — إلى صباح الآدميين لاصباح البقر — كلفة شاقة . وإذا كان الحظ قد رمى بى إلى هذا الريف الذى يبكر ناسه فى النوم وتبكر أبقاره فى اليقظة ، فالرأى أن أخرج إلى هذه الحديقة التى أفسدتها البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى إلى بعض معانيه » .

ولما انتهى إلى هذا الرأى أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من الحقيبة مذكرته وقلمه وفتح الباب وخرج وأغلقه خلفه ولكن من أين ؟ .

وكانت البقرة تواصل الصخب فأراد أن يسرع ليدركها ويثأر منها . غير أن الاهتداء إلى باب السلم المؤدى إلى الحديقة استغرق من الوقت وكلفه من المتاعب ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت الغرف كلها موصدة حتى غرفته ، والمكان مظلما . وكان ظنه أن هذه الصالة فارغة فإذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر مرات فى لفه ودورانه حتى انتهى إلى وجوب حمله معه وهو « يطوف » فى أرجاء هذه الصالة التى أصارتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف ، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بأنه سيضرب البقرة به .

ولكن كيف يهتدى إلى الباب وهو لم يكد يخطو خطوات فى الصالة ويصطدم

بالدار لأول مرة حتى اختلط عليه الأمر ولم يعد يعرف شرقاً من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو ؟

ووقف برهة يفكر فى المخرج من هذا التيه فبدا له أن الاشكال يحل بأن يلتمس الحائط ويسير على محاذاته فانه ان فعل ذلك لا محال موفق إلى الباب ، ففعل بلا عناء يستحق الذكر وسار كما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضى عنه لا إليه ، والتقى فى طريقه بما لا يذكر أنه رآه فى النهار أو فى اللحظات القليلة التى اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً إلى غرفته أو خارجاً منها ، وتعثر بما حسبه « غابة » من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن ينأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فإذا به يلتقى بقوارير توهمها غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير .

وصادف بعد ذلك برميلا . نعم برميلا فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة خمار ؟

وملّ هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمى بنفسى فى جوف الصالة وأدفع أول باب أبلغه ، ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد باباً لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وعالجه فانفتح فإذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور وأعاد إليه اتساق خواطره فانحدر ولكنه لم يجد حديقة ما فوقف كالأبله !

وكان صوت البقرة لايزال يصل إليه فلم يجد عسرا فى فهم ما حدث . ذلك أنه لم يهتد إلى سلم الحديقة بل الى سلم خلفى يفضى إلى فناء « الحريم » ، وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال : « لابأس وإن كانت البقرة قد نجت بجلدها » ووضع الدلومقلوباً وكان لايزال معه وقعد عليه وأخرج القلم والمذكرة ليدون ما يخطر له .

ولم يخالجه شك فى أن الشمس ستطلع لا محالة من الناحية التى جلس ينظر إليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزى شيئا فشيئا ولكنه لم يكتب شيئاً ولم يخط حرفا لأن أحجام الشمس عن الطلوع حيره حتى خالجه شعور وقتى بالخوف عليها وابتسم وهو يقول لنفسه : « لولا ما تعلمته فى المدرسة لحسبت الشمس قد غيرت رأيها وعدلت عن الطلوع اليوم »

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء فى وجهه أن يدرك أن الشمس طلعت من ورائه !

وجلس وكتب فى المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول لعل فيها فائدة لشوشو ! » .

ـ ديسمبر — فى الريف . يظهر أن البقر أحس بالفجر من الديكة وأسرع إلى تحية الصباح من العصافير . وفى وسع من يعنيه ذلك أن يقضى ليلة فى الريف ويبكر فى القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة .

وليس فى الريف ذلك السكون المزعوم فإنه إذا سكنت الطبيعة هاجت الأبقار ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق فى الريف أن يأخذ معه كمية من الاسبرين أو الفيرامون تكفى له وللبقر عند الحاجة » .

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه منه بالمعانى الشعرية ولم يدون شيئا من الخوالج أو الإحساسات لأنه كان فى تلك الساعة مجردا منها . وعلى أنه — كما قال لنفسه — ما حاجته إلى الإحساسات التى قد يخطىء فى تصويرها أو يوشيها بما يجعل ألوانها أزهى أو أقتم ؟ أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقا للحقيقة عاريا من زينة الخيال وحليه وتفويفه ؟ وهب لا مدرسة هنالك فما ذنبه هو إذا كانت شمس الريف قد أبت إلا أن تطلع من ناحية غير مرقوبة ؟

ومن أين تأتى هذه الخيالات أو تنشأ الإحساسات ولا تفكير له إلا فى البقرة التى هدت رأسه بأنغامها ، والدلو الذى شل ذراعيه جميعا على التوالى بثقله ؟

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات تنفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائيا فيكتب :

« تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما ، ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح » .

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشىء ! أليس التشبيه ضروريا فى كل كلام شعرى ولو لتقريب الصورة التى يراد أداؤها ؟ ولكن من أين يجىء لها بمشبه وهى لا تثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات ... شوشو ؟ لقد خطرت له شوشو مرتين فى نصف ساعة ؟ ولكن لا عجب ، فما يقضى معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها إلى الآن .

وعاد إلى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذى احمر ثم اخضر ثم اصفر ، وبينما كان جادا فى البحث عنه ، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكد تراه ــ وهو لاه عنها ــ حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جميعاً كبارا وصغارا وسادة وخدما وفى طليعتهم نجية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه فى وقت واحد عما به ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا الـــــدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب فى يده ؟ وهل هذه عادته فى مصر ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى قعد ينتظر آخرها على غير جدوى ، وهو ينقل عينه من وجه إلى وجه تبعا لمصادر الأسئلة حتى كاد يجن .

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغط المتصل نهض عن الدلو فى صمت ومضى إلى غرفته وأوصد بابها وراءه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول :

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ! ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أخرس هذه البقرة التي أزعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها . ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة . ولكن هنا . هنا حيث يقولون إن السكون سابغ والهدوء مطبق محيط ، والمرء لايتوقع شيئاً من الضوضاء ، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن ، تكفي بقرة واحدة لإطارة العقل » .

وأخذه النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .

الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلىء من السمع »

لم يطل نوم إبراهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتمطى فلم يلبث أن ابترد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق، فقام ونظر من زجاج النافذة إلى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول وراءها ، ففتحها فتضوع إليه ريا الخضرة المطلولة والأزاهير الندية دافئة في تحت الشمس . وكان واسع الاطلاع ملما بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة . ولكنه نسي ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد تنوعا من أن تو التهمها الخيالات المسطورة في الكتب . وأحس في هذه اللحظة حنينا — لا إلى شيء معين — وغبطة تشيع في كيانه كله ، وظمأ خيل إليه أنه ما من شيء يمكن أن يطفئه ويفثأ غلته . فمال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحدق في السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح في بطء . وخطر له وعجب هو لنشوء هذا الخاطر — إن من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة . كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية . إنها حارة حية . ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة . وإذا كان بعض ما فيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأتي عليه فما قيمة هذا ؟ إن كل شيء يحيا وإذا كان يموت فإنما هذا ليعين غيره على الحياة . وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بصور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال — أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ — إن هذا الفنان الأعظم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو . وكل حياة تجري إلى مداها ثم تراق

وترد إلى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروبا جديدة من الفن .
العقل والمادة شيء واحد . ومن يدرى ؟ فلعله ليس لا عقل ولا مادة وعسى
أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا إلى ما لا نهاية :
فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول
والموت — أو ما نسميهما كذلك — إنما هما راحة ونوم أو هذا هو الجزر
الذى يجيء بين مدين ، أو الليل الذى يفصل نهارين والنهار الذى يطلع
لا يشبه الذى سبقه فى شيء ، ولا المد كالذى كان قبله . هذه الصور التى نراها
فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القطع الفنية التى يخرجها الفنان الأعظم لا تعود
ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلا معينا . بل هى دائما جديدة .
عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة . وليس فى هذا
مايكرب النفس . كلا إنما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبدا
حتى بعد ما يسمى الموت . أو أنها ستحيي كرة أخرى فى جسم آخر
فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟
هبنى كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة ، فهل أستطيع أن
أتصور أن مقالتى تصبح مقالة أخرى أو قصيدتى تنقلب قصيدة ثانية ؟
وهل فى وسعى أو وسع سواى أن يفصل ما بين العبارة التى صببت فيها
المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهنية التى أعربت عنها بهذه
الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديدا
كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديدا ومن التالد طريفا
كالنافورة تقذف الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع
هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها
قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : « ولكنى لا أستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا
تظل هذه القوة الأبدية منهمكة فى الإعراب عن نفسها فى صور فردية
شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل

شيء إلى « لا شيء » ؟ ظلام أبدي شامل ! ويا ليت من يدري أهما اثنان لا ثالث لهما : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الإطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن حدث هذا ولم يحدث ذاك ؟ » .

وسكت وحدق بعينيه الواسعتين في الفضاء كأنما يبغي أن يرى شيئا هناك وراء كل منظور . ثم هز كتفيه وقال وهو يمشي إلى « الكنبة » :

— كل هذا جميل . ولكن هل بنا حاجة إلى التفكير ؟ هذه الدنيا أمامنا ، وأحسب أن كل ما بنا حاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك .

وهم بالجلوس فسمع نقرا على الباب ففتحه وطالعه وجه شوشو ، كأنه — أي وجهها — في حلم ، وأحس وهو يصافحها كأن حولها جوا من الماضي والمستقبل ، وذلك ما لا عهد له به فسألته :

— ماذا كنت تصنع ؟

— لا شيء .

ولكن وجهه مال إلى النافذة ، فقالت :

— أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟

ألا ترى معي أنها كالطفل ، تكون عابسة باكية ثم إذا هي تضحك لغير سبب مفهوم ؟ إن تناقضها أو اضطرابها كثيرا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أن تروقني — إلى أن يتغير مزاجي على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه ، ولكنه كتم هذا — وأن لم تكتمه عيناه — وقال مجيبا على كلامها :

— كلا ياشوشو . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة ما أو بعبارة أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين ، ولعل ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكون عليها الطبيعة في جميع مظاهرها — هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع

إليه ويقوم عليه إيماني بالحياة . ولولا هذا التنوع لما بقي ثم شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة إعجاب وقالت :

— ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الكاتب !

قال : نعم . أحسب الأمر كذلك . وإن كنت لا أرى أن كوني كاتبا هو السبب في ذلك . كلا . إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغيير . فأنا أجل هذه الجدة التي أراها كل صباح يطلع وكل مساء يجيء . وفي كل شخص . وفي كل مظهر من المظاهر التي تعبر بها الحياة عن نفسها . أرتاح لأني لا أرى شيئا نهائيا . ولما كان التغير دائما فلا أراني أشبع من النظر والتأمل والتفكير أحب كل شيء : ما كان وما هو كائن وما سيكون . . أحب حتى الموت .

وسكت ، وساد سكون عميق ، ثم رفع إليها عينيه وقال :

— وأنت ياشوشو ؟ وما رأيك !

وكانت جالسة وعينها إلى النافذة ، فالتفتت إليه كأنما أيقظها صوته من حلم ، والتقت عيونهما ، وقالت :

— أنا ؟ لا أدري ! إني لم أكن مصغية .

فاضطرب شيء في صدره وخفق قلبه خفقة عطف مضطرم وشعر كأن بها حاجة إلى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الإحساس الذي لامثير له ولا موجب لنشوئه فابتسم وقال :

— ألم أقل لك إن المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملا ونظرتها جامعة وروحها واسعة محيطة ؟

ورآها مصغية إليه فمضى في كلامه :

— أنا مثلا — ولست أعني نفسي على وجه الخصوص ، ولكني أعني الرجل على العموم — أستطيع أن أفتح قلبي للطبيعة كلها بكل ما اشتملت عليه وأن أغمر كل مظاهرها بحبي ، حتى هذا العنكبوت الذي يخيفني في العادة

والذى أكره أن أرى نسجه فى زوايا النافذة أو أركان الغرفة ، ينقبض قلبى له وينفتح . ولكن المرأة شىء آخر . لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم قد تحس أحيانا بشوق إلى أن تضم الكون كله بين ذراعيها . ولكن هذا لماذا ؟ لأنها تحب إنسانا معينا لاترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل فى شخصه . وليس لشىء وجود منفصل عنه فهى إذا أحبت الطبيعة فإنما تحب فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها .

فأرخت شوشو عينها هنيهة ثم رفعتها إليه وقالت :

— وإذا كان الرجل هو الذى يحب؟ إذا كنت أنت مثلا هذا الرجل . .

فاضطرب وتدافعت العواطف فى صدره ، وأحس الندم يعض قلبه وخيل اليه كأنه يرى وجه زوجته التى ماتت منذ سنوات، يطالعه من ظلمة الماضى الدفين ويلومه ويتهمه ، يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول معنفا : « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستسر ولم يبق إلا شوشو تنظر إليه بعينين تحلمان ، وابتسامة فيها شىء من المرارة ، ووجه ماذا جرى له ؟ أين ذهب إشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة عجيبة ! وهاهى ذى تومض عينها إماضة خبيثة كأنما يسرها ماتقرأه فى وجهه من الاضطراب ! مالعينها متعلقة بعينه ؟ أهى ناظرة إليه ؟ كلا ! إنها كالتى ترى شيئا هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة .

ونهض وقال :

— أى سؤال هذا ياشوشو ؟

فنهضت مثله وقالت :

— أهو سؤال غريب غير جائز ؟

وكان يمشى فى الغرفة فلم يفتح الله عليه بخير من :

— كلا . لاغرابة . إنى جائع جدا ولست آتيا هنا لأصوم .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— ألا تزال ملتحفا بكبريائك ؟

فلم يلتفت إلى هذا ودنا منها ووضع يمناه على كتفها وقال :

ـ اسمعي ياشوشو : لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أراني سأطيق هذا الحبس فقولي لى أين أذهب . ولكن بالله عليك لاتقلقى بى فى وسط جحافل من أجلاف الريف . . .

فتكلفت الجد وقالت :

ـ هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأوحال ؟

فقال :

ـ قبح الله الريف ! ألا شيء غير الجلوس فى هذه الحجرة ؟

قالت :

ـ أمللتنا جدا ؟ وبهذه السرعة ؟

فأسرع يؤكد لها إن الأمر على العكس ، وإنه لم يضجره الا الحبس وأن بوده لو استطاع أن يخرج معها إلى الحقول ، فصفقت وصاحت به وقد اضطرم خداها :

ـ ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبي .

ـ ولكن كيف يمكن ؟

ـ أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى .

وخرجت لتجيئه بالطعام .

الفصل الحادى عشر

« حبيبى مد يده من الكوة ، فانت عليه احشائى »

ما معنى هذا ؟

حار إبراهيم فى تفسير خواطره وما جاش به صدره وهو جالس مع شوشو . ولم يكن ما قرأه فى أسارير وجهها وعينيها العميقتين أقل تحيرا له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعام ، وخشى أن تجيئه به تلك الزنجية اللامعة كالفحمة ، وكره أن يرى وجهها بحسد شوشو ، واختلج فى قلبه شىء من العطف عليها من أجل هذا الكره الذى يحسه لها ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويتجنب أن يواجه ما تضطرب به . فأسرع فانحدر من السلالم إلى الفضاء الذى أمامه وتذكر وهو يهبط السلم كيف تركته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية فابتسم وهو يقول : « تالله ما أظرفها ! إن معين حيلها لا ينضب » ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر إلى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتق بأحد ، فال إلى الحديقة غير عابىء بالأوحال التى تراكمت على حذائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدة بعد الأخرى من الأوحال « أما لو أن الأرض جافة ! إذن لا ستطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هذه الإحساسات الجديدة وأنفقها فيه وأحيلها عرقا يتصبب » .

ورأى رجـلا جالسا على حجر فى آخر الحديقة ، فمضى إليه فألفاه شيخا هرما فى يده العصا ، ونهض الرجل متوكئا على عصاه ورفع له يده بالسلام . وراق إبراهيم وجهه المغضن كالحصير وشارباه المتهدلان كأنما كلت شعراتهما وفترت ، فحياه ووقف صامتا لا يدرى ماذا يقول ، وأحس كأن بينهما جونا يتعاظم المجتاز ، واشتاق أن يفتح قلبه لهذا

الشيخ المتهدم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكىء على العصا الذى اجتاز أدغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشواكها وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ قلبه ، فيقول هـــــذا بشجوه مرة وذاك بشجوه مرة ولكنه لم يجد الكلام حاضرا ولم يدر كيف يجره إلى التحدث عن نفسه ، فاكتفى بأن يقول :

— من أبناء القرية ؟

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ أنه من جدودها بل جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصفير « أيوه » ووقف ينتظر السؤال الثانى فقال إبراهيم : « وأنا من مصر » كأنما أحب أن يبادله التعريف ويشعره أنهما ندان .

فقال الرجل : « ماشفتهاش يا افندى » .

فقال ابراهيم : « لم تخسر شيئا » .

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكفه ويقول :

— بيجولو أنها جميلة . ماشفتهاش يا ابنى .

— ليست أجمل من قريتكم .

وسر الرجل هذا الثناء على قريته وبدا الارتياح فى هزات رأسه وفى ازدياد عمق الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه وهو يبتسم وقال :

— بلدنا ؟ الشبان ما يعرفوهاش يا أفندى . بيرحلوا ويجعدوا فى البنادر ، يبعتوهم المدارس يجوموا ما يطيجوش البلد تانى . بيعدموا الصحة حداك والمال كمان .

وتحمس فدق الأرض بالعصى وقال : « يجالى سبعين سنة عايش فى الأرض ما هجرتها يوم . وأروح فين ؟ » .

وابتسم ووقع كلامه من قلب إبراهيم فقال :

— وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— أيوه . زيي؟ لع ! ما حد زيي ؟ شبان الزمان ده كيف يبجوا زيي؟ ما طيج أفوت ريحة الأرض .

وضحك الرجل أو على الأصح انفرجت شفتاه عن فمه الذى عاد أدرد كالكهف الخاوى وقال :

— إنه زى البجر اللى تهزل وتهبط لما يتغير المرعى .

ثم رفع يده التى فيها العصا وقال مشيرا إلى نوافذ السلاملك :

— بينادم عليك يا افندى .

فتركه إبراهيم آسفا ولم يتحول إلى السلم بل قصد إلى نافذة غرفته مخترقا إليها الحديقة ، وطاف برأسه العجب من أن تأسر الأرض رجلا كهذا ، وتقيده اليها سبعين حجة : ما أقوى هذه الأرض التى لا يعود رجل مثله يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عينيه فى الحديقة وهو سائر لايلتفت إلى شوشو التى كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه إلى المساحات المترامية وراء السور ، ثم رده إلى جمال الغصون وسحر الألوان إذ تخفق الأفنان فى ضوء الشمس . فلم يعد عجيبا أن يتدفق حب هذه الأرض فى عروق أبنائها ويجرى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما يزيدها خصبا ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط ألفها لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطىء لحاظهم غضارتها ونضارتها وخضرتها الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ، ومطرها المنهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض ، وماشيتها ، وكل ماحفلت به من حيوانات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .

وصار تحت النافذة فأومأ لشوشو وقال :

— من هنا . أطعميني من هنا .

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعمق عينيها ! لم يرها قط أصبح ولا أجمل منها اليوم . وكانت عينها تنتقل من الطعام إلى الأرض ثم قالت :

— ولكن كيف أستطيع ؟ تعال إلى . هذا أحسن .

فهز رأسه مصرا وأعلن إليها اكتفاءه بلقمة وقطعة من الجبن أو بضع زيتونات ، واهتز كيانه سرورا بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق خياله أن تلقى إليه شوشو باللقمة بعد الأخرى ، وأن يتلقف ما تلقى ، بل أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل ما يعلق بها ، ولكن شوشو كانت تهم أن تلقى إليه برغيف كامل حشته ما لا يعرف فصاح بها :

— لا لا . لقمة لقمة . من فضلك .

فرمت إليه نظرة دل واغتباط ، وضحكت وراحت تطعمه على نحو ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ، ولا يكاد يطيق الوقوف على قدميه . وكانت ربما أوهمته أنها ملقية إليه باللقمة فيمد كفيه ليتلقاها فتخيب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع .

ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها :

— ليس فى الحديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم ، فانزلى إلى .

فنظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة وأطلت بوجهها وصدرها وتلفتت ، وكأنما اطمأنت فقالت :

من هنا ؟ أتلقفنى إذا هبطت إليك ؟

فصاح يردها وقد خاف أن تجازف :

— كلا . تعالى من السلم الآخر .

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده . ولم تلبث أن جاءت تعدو فخشى أن تزل قدمها فى الزحاليق ، فدفع ذراعيه ليقيها العثور وهى تجرى مقبلة ، فإذا بها ترتمى بينهما ، فكاد يقع بها ولكنه كان قريبا من الحائط فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشى به سكونها بين ذراعيه من الرغبة فى البقاء ، لظل يحتضنها . ولكنها كانت شوشو — بنت خالته وصديقته الصغيرة التى كم داعبها وهى طفلة ، وخرج بها للرياضة والنزهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم

دفعت كفها الصغير في جيوبه باحثة عن الشكولاتة والحلوى واللعب الدقيقة التي اعتاد أن يشتريها لها ويبقيها معه حتى تتاح له فرصة يقدمها إليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسللت إلى سريره وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الأصابع، حتى يفتح عينيه ويتثاءب، فتلثم أقرب ما يكون إليها منه، وكثيرا ما قبلت اللحاف، ثم تضحك فيبتسم ويعجب كيف لا يغضبه منها إزعاجها له وإيقاظه، وتشد ذراعه وقد تجر رجليه لينزل عن السرير ويلاعبها .

طافت برأسه هذه الصور ومئات غيرها من أيام طفولتها فاحمر وجهه، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه، ولكنها كانت كالعصفور وجد وكره واطمأن إلى عشه، فلم يجد في قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس ما يشجعه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لإحساسها . فمسح شعرها بكفه — إيه ما أنعمه وأبدعه متوهجا في ضوء الشمس ! وهمس في أذنها « شوشو » فرفعت إليه عينها في فتور كأنما كانت تحلم فربت لها على كتفها وقال : « هلم بنا » : فاعتمدت على كفيها — وكانتا على كتفيه — وحملت نفسها في تثاقل وبطء وبجهد واضح .

الفصل الثاني عشر

(فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى ـ طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن في تلك الليلة ، وإن كانت ـــ على خلاف عادتها ـــ قد بكرت في الذهاب إلى مخدعها ، وتركت أختها نجية وحدها مع طفلها ، وزعمت أن جفونها مثقلة ، وجعلت تتثاءب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية :

ـــ قومى يا حبيبتى . لا تتحاملى على نفسك .

وكانت الأشجار ترى فى ضوء نافذة غرفتها . وأكثرها قد ذهب مع الربيع رونقه ، ولكن بعضها ، وأدناها إلى النافذة كأن مورقا رفافا منورا ، وكان ضوء القمر ينفذ إلى الأوراق الخضراء ، ويومض في صفحاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة . واستراحت الأطيار والضفادع إلى سكون الليل وسهوم القمر ، فانطلقت هذه تنقنق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو في هذه الساعة لو أنها كانت عصفورا يذهب إلى حيث يشاء ويحلق في الجو ، ويسبح في الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء ـــ عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر ـــ عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر ـــ عصفورا يحط على أعلى فنن فى أسمق شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغيصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير في حيث يروقه أن يؤلف عشه ، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت ـــ عصفورا لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون في رأى العين مع ذلك إلا جميلا . آه إنه روح الكون ولا شك في العصافير والسحب ـــ سابحة تجوب الآفاق وفى

الأزهار والأشجار التي لاتكون إلا عطرة ولا تبدو إلا حالية مونقة ولا يعتورها قلق ولا يساورها اضطراب . آه ! لماذا تقلق النفس ؟ لأي شيء تطلب ما ليس في اليد وتريد أن تحس وأن تعلم وتبغي أن تحب وأن تحب ؟؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى إعتمدت بكوعها على النافذة واتخذت من كفها كأساً لذقنها . لقد تغيرت الدنيا كلها في يومين اثنين ، لا بل في يوم واحد . نعم كانت تحب إبراهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن لها أخاً ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين إليه . ولا كانت تصبو إلى مشاطرته كل شيء بل إلى أن تهبه وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوز منه بالروح والراحة — الراحة في أي شيء ؟ أهذا هو الحب الذي تصفه القصص الفرنسية التي قرأت منها عشرات وعشرات ؟ كلا ! تلك حكايات لفقها الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف يثب القلب إلى الحلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذي يوشك أن ينفجر ويقذف بالحمم ؟ أيكون الحب طاغياً عنيفاً كما تجده هي ؟ ويا ليت من يدري كيف صارت تخجل الآن ، وتشعر النار تندلع في وجنتيها وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأته بعد أن طما في نفسها هذا العباب الزاخر وهي بين ذراعيه عند باب الحديقة ! أن لهذا الحب روعة ليست لسواه .

وابراهيم ؟ إنه وعر مر النفس . لماذا ياترى ؟ ألا تستطيع أن تستدرجه حتى يكاشفها بما تنطوي عليه أضالعه لتحيط خبراً بدواعي هذه المرارة ؟ ولكنه حي كثير الجهامة ، وإن كان من واجبي أن أعترف أنه ظريف الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفو أفقه ، وآه من عينه على رقتها ! لم تر شوشو أحد منها ولا أنفذ ، هي عين تأخذ كل ما دق وجل مما يقع تحتها فليس يفوتها شيء حتى ما هو مغيب في الصدور . ويا ما كان أحلاها هنيهة على تخصرها ، وأنا بين ذراعيه ورأسي على كتفه ! وما كان أرقه وأحناه وهو ينحيني عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر

والورود البيضاء ترف في حوضها كأنها مصوغة من ذوب أشعة القمر ، والأفنان تهتز وتترنح فوق رأسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسماء تبدو من خلالها شتى الشكول ، وندى الصباح على وجهينا ، والسكون واسع عظيم وكأن الدنيا كلها في صلاة وتسبيح ، وقلبي مثلها يسبح بحمد الله . لقد كنت سعيدة ، وأظنه هو أيضاً كان سعيدا على الرغم مما كان في وجهه . ما أشد سحر هذا الحب الذي يجمل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة ما لم يكن لها ، ويحيلها كالحلم اللذيذ لا بل كالصوت الجميل . . كالنغمة العذبة . . كالغناء الملائكي . لكأن روحي هائمة مع روحه الآن . . لم تعد روحي في بدني فليتها تظل معه هائمة ، فما أريد أن ترتد إلى جسمي . . لست أبغي أكثر من هذا . أبدا . أبدا ! ايه أيتها الغبطة ، نشدتك الحب الا ما بقيت معي ! لاتنقضي . . لاتذهبي عني !

ولكنه يفزعني . سبحات عقله تخيفني ووثبات خياله ترعبني فأتضاءل وأتضاءل ، أحس كأني لم أعد شيئاً ! ما أقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد أن يلتهم بهما الدنيا . ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد . لايحسني في تلك اللحظات ولا أظنه يراني ، ويخيل إلى أنه يبصر ما ورائي من خلال بدني .. وانتفضت كأنما سرت في جسمها رعدة فلفت شملة الصوف التي كانت على كتفيها وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها ومضت إلى السرير ، وقعدت وتنهدت ، وقد طاف برأسها أن هناك سراً هو علة هذه الأطوار الغريبة من إبراهيم ، فإن له ساعات يطول فيها وجومه فلا تتحرك حتى شفتاه وأحياناً ينفجر غاضباً بما لاتكاد تفهمه فيحيرها ويروعها ، وطورا تنبسط نفسه إلى الحياة والدنيا وتهش روحه فلا يكاد يطيق بجسمه ، وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه جديد في الدنيا لايعرف إلا صفحتها المشرقة ، ليس كل هذا عفواً ! ترى ماذا يجيش في صدره هذا ؟

ألا يمكن أن أعلم ؟ كلا ! لا أمل . فإنه كتوم ، كتوم متكبر كما يقول ، يعد الإفضاء بما فى نفسه ضربا من الشكوى . وكل شكوى عنده ضعف لايليق بالرجل . واأسفاه . لن أعرف أيحبنى كما أحبه ؟ لن أسمع اللغة التى أود لو يخاطبنى بها . لغة الحب المجنحة . لغة القلب النارية . كلا لا أمل فى هذا أيضا . لأنه شىء ينكره خلقه الوعر .

واشتهت شوشو أن تقول بشجوها ، وإن تصب فى أذن إنسان ما حديث حبها ، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتمان . ولكن لمن ؟ الأختها ؟ و اأسفاه ! إن هذا يكون جنونا مطبقاً ، فما تستطيع اختها أن تقدر الحب الا بين زوجين ، وحتى بين الزوجين لا يليق عندها أن يجرى كلام فيه . اختها نجية ؟ إنها ليست سوى كذا قنطارمن اللحم ، وما عرفت قط إلا العفاريت والخرافات . ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شىء مما درجت عليه .

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كان لها عندها ثأراً . فعجبت لهذا وأسفت وانثنت تعتذر لها بنشأتها وجهلها ، ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل إلى أحد تبثه مافى نفسها ؟ وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم ، غير أن سميحة فى الاسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن مكاشفتها بهذا الحب ، مسألة فيها نظر كثير . فإن سميحة أكبر من شوشو ، والكبرى تسبق الصغرى إلى الزواج ، وليس بمجهول أن سميحة ما انفكت منذ سنتين تتحبب إلى إبراهيم وتحاول أن تستولى على هواه وتقتنص قلبه ، وابتسمت شوشو وهى تفكر فى هذا ، فما يخفى عليها أن ابراهيم لايطيق سميحة ، إنه على الرغم مما هو معهود فيه ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لايحاول أن يداجى سميحة أو يداريها ، ولا يتكلف أن يكتمها أنه يمقتها ، فهو يحرف اسمها ويدعوها « سوسه » ولا يكون الا سيىء الخلق فى حضرتها ، بل لايزال يفر من مجلسها كلما وسعه ذلك . وهى ؟ ؟ واأسفاه ! لاتنهزم ولا تبالى هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شدا عليه ومطاردة له ، ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن فى

وسعها أن تكون على يقين من أن « سوسه » لا أمل لها فى إبراهيم ، وأن لها « أى شوشو » أن تطمئن ، إلا أنه لم يخف عليها أن كون (سوسه) لم تتزوج بعد ، سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ، ويجعل أملها هى ، أى شوشو لاأقرب ولا أيسر . فنكست رأسها وقد أغرورقت عيناها وزايلتها الغبطة التى كانت تحسها ، وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب فى صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذى يمكن أن يعطف عليها ويرثى لها فى هذه المحنة ؟ بل أين المخلوق الذى تستطيع أن تبيحه دخلتها وتفضى إليه بسرها ؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة فى هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أى حد أرضاها حبها لابراهيم مستغردة وفى هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجدران الأربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وعن شمالها — محيطة بها مسدودة عليها فى حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله فى مصر ؟ ؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى إبراهيم لايسعها أن تذهب إليه وتقول له : « إنى أحبك » كلا ! هذا أيضا مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأبى ذلك وإنها لواثقة الآن أن إبراهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن لها حبه ، ولكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب ، وما أدراها ؟ لعله الان — فى هذه اللحظة بعينها — تؤرقه الحيرة والكمد — الا أن فى هذا العزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم أنه مثلها موجع مكروب مهموم مؤرق . ولكن من يدرى ! حتى هذا العزاء التافه فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب إليه وترى ؟ ؟ ؟ واأسفاه ! كان هذا أمس — أمس فقط — ممكنا ! لشد مايتغير كل شىء فى يوم وليلة ، بل فى ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاعتراف والإقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فلم تكن تخجل أن تجرى إليه وتدفع الباب فى جرأة وتوقظه إذا كان نائما ، وتجره من رجليه وتمازحه وتداعبه ، وتكون معه كما تكون الأخت المدللة مع أخيها الذى يحبها أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لاتدرى ،

وكل ماتدريه هو انها صارت تستحي حتى أن تلقاه بعد أن عرفت ما في نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك إلى معرفة ماتصبو إلى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد . . من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . انها أمينة مخلصة وفيها وفاء . وانشرح صدرها فتسللت من غرفتها الى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة في لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت إليها أن تتبعها في صمت ولما صارتا في غرفة شوشو قالت فاطمة وهي تفرك عينيها .

— نعم ياستي .

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت :

— أريد منك أن تذهبي إلى السلاملك وتنظري ماذا يصنع إبراهيم .

فأفاقت المسكينة جدا ودقت صدرها بكفها وقالت : « أنا ؟ أنا ياستي ؟ » .

فأسرعت شوشو تزجرها عن رفع صوتها وقالت : « هس . لا تدعي أحدا يسمع ، نعم أنت ، وما الضرر ؟

قالت : « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلني ؟ إن سيدي إبراهيم صعب لا ياستي ! » .

قالت شوشو : « لا عليك . سأعطيك فستاني الأخضر ، إنه جديد » .

فقالت فاطمة وهي لاتفهم : « ولكن لماذا لاتذهبين أنت ؟ » .

نعم لماذا لا تذهب هي ؟! ياليت من يدري كيف صار هذا عسيرا ؟ ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفي وجهها سهوم غريب .

فأدركها العطف على ستها ، ولكن خوفها من إبراهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت :

— ثم إنه لايليق ياستي أن أذهب إليه في الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول عني ؟ لالا ياستي ؟ أتريدين أن يقتلني سيدي الشيخ ؟

ولكن هذا العذر الذى تقدمت به فاطمة لتنجو ، هو بعينه الذى
الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت :

— لن تذهبي وحدك ، فسأرافقك ، وأقف فى الصالة وأنت تتقد
إلى الباب وتفتحينه بلطف وتنظرين . فإذا سألك أو زجرك أسرعت
نجدتك . افعلى لأجل خاطرى يافاطمة .

— ولكنه لاشك الآن نائم ياستى .

لا لا لا .

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيا ترى أعوص . ولكنها ليد
مطالبة بالتفكير ولا بحل الألغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سي
لم يشتر لها فى هذا الشتاء كسوة ، وسيدتها نجية لم تخلع عليها شيئا من ث
القديمة ، فتوكلت على الله وخرجت تطلب المصباح فنحتها شوشو ، وم
معا فى الظلام والبرد ، وشوشو تسأل نفسها : « ما آخر هذا الحب ياترى ؟

الفصل الثالث عشر

« مهما قطعت لعيني فكيف اتطلع الى عذراء ؟ »

ما آخر هذا الحب ؟

في هذا كان إبراهيم يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره في الظلام ، وكان لايستريح إلى النور إذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة أو ألح عليه إحساس أو خاطر ، كأنما يخشى إن يفضح النور له سراً ، أو يهتك لما يخفيه ستراً ، وكان امرءا لا ينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان مذ أوى إلى مخدعه ، يدخن سيجارة في اثر سيجارة ، وكان يشعل الجديدة من القديمة ، ولا يجد للدخان طعما ، ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهيها عما يكظم شعابها ، فشرع يلتمس تعليلا لفتوره هذا عن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولا أن الحواس — ولا سيما حاسة النظر — هي التي يرجع إليها الإرتياح إلى التدخين وأن المرء انما يعتاد في الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويعقد سحابات صغيرة بعد أن ينفخه بفمه ، وأن يشعر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفتيه ، ولكن المهم هو رؤية الدخان ، لأن العين أهم الحواس وأوثقها اتصالا بالدماغ . وأقدرها على إفادة الصور الذهنية .

ولكن هذا التعليل — على قربه من الصواب — لم يقنعه ، ووجد إبراهيم نفسه يتساءل : « هب النور مضاء ، ومعي . . . شوشو ، أكنت أنظر إلى الدخان خارجا من فمي ومتلوياً في جو الغرفة ، أم اليها هي ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكر إلى ما يريد أن يتلهى عنه . وقال في عناد : « حسن . فلنواجه الموضوع » .

وواجهه فى حزم وشجاعة واستعداد لاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من أخوى إلى جنسى ، ذلك ما لا شك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها ، وأن يقنع أهلها أن يزوجوه منها ؟ كلا ! فإن فى الطريق تلك البنت الخبيثة التى لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليها . وستكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهى ستشقى على الحالين ، ولكن أهون الشرين أن تيأس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجها .

وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أن يخنقها ! وأنه لعذاب وأنه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفة التى يحاول أن ينزعها من قلبه . وطاف برأسه قول ابن الرومى :

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال : « صدق المسكين » ، وود فى هذه الساعة لو أن معه ما طبع من ديوانه ، إذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ ، الذى ألهبته الحياة بسياط من نار ، وكربته الخواطر فراح يتساءل : « ما الحب؟ وما الشهرة والخمول؟ وما السعادة والشقاء؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياه أن يهتدى إلى جواب مريح — وأى جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدى . وليس هذا بجواب . وإنما هو همسة الضعف ، ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومجدود ومكدود ، ومعروف ومغمور وعاشق وخلى ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هنالك فرقا بين إحساسات المرء بوقع الحياة؛ والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هى ، واعتباره لها كاعتبارها .

« والخلاصة ؟ » وجلس إبراهيم على السرير ورد على سؤاله « والخلاصة أنى لن أذوق النوم فى ليلتى هذه على ما أرى » وضايقه أن يكون أكبر ظنه أن يقضى الليل المقرور أرقا ، يناجى نفسه ويحاورها ويداورها على غير طائل . وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريده فينام .

فانطرح على السرير وتغطى وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولا أن يتقى التفكير فى أى شىء . ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافيا للنوم ، لأنه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى إلى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ . ولم يكن ضحكه إلا حركة عصبية لا عن مرور نفس ومراح ، فما عتم أن تجهم وهو يسأل نفسه وبعد ؟ وضاق صدره إذ لم يسمع مجيبا له على سؤاله ، فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ، ووثب عن السرير حتى إذا استقر على رجليه تلفت وقال : « ترى أين المصباح ؟ ولم يسعه على كل ما به إلا أن يبتسم . أترى تجربة الأمس ستعاد ؟ البقرة البارحة — ترى ماذا صنع الله بها — والليلة المصباح ؟ وألفى نفسه يعجب لحياة الريف التى لم ير منها شيئا إلى الآن ، ويقيسها — متحاملا عليها — إلى حياة المدن . ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذى تؤدى اليه سعة الأفق والقدرة على الإحاطة بالجوانب المختلفة — ردته إلى الإنصاف . فمضى يقول لنفسه إن المفروض أن المرء فى المدن يصنع ما بدا له ، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة الى التحرر ، ولا يدع للمرء مفرا من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد ، أما هنا فى الريف فالحياة أشبه بمناوشات مستمرة ، فالمرء يجد نفسه مثلا يتناول طعامه وحده فى أية ساعة . وقد تظمأ فى الليل فتجد القلة فارغة أو لا تجد القلة على الإطلاق . وهذا الشيخ على ، على كثرة ما أنفق على بيته هذا — بناء وتأثيثا — لم يعن بأن يعلق مصباحا فى الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبترول ، ومرة لا يجد إلا قنديل زيت أو شمعة ، وقد لا يجد شيئا من هذا كله . ويذهب المرء إلى الحمام فلا يستطيع أن يوصد الباب ، إذ لا مفتاح ولا رتاج ، وهذا عجيب ، إذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون فى

الحوض عاريا فيفتح الباب خادم أو واحد من هؤلاء الفلاحين الذين لايدرى إبراهيم أهم خدم أم اقارب أم من عمال الأرض . والواحد يذهب إلى حيث يشاء فى الليل أو النهار ، فلا يسأل أحد فيما يرى إلى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش إبراهيم أنه لا يعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم فى النهار رائحين غادين ، وداخلين خارجين ، وادهشه فوق ذلك أنه لايرى أحدا يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة ، بل لاأحد يذكرهم أبداً ، ولم يذكر إبراهيم أنه رأى أحدا يلعب شيئاً خارج البيت ـ كل ما رأى من الألعاب ، وهو لايعدو الورق أو الطاولة ، يؤدى داخل البيوت وعلى الكراسى أو الوسائد . ولم يعجب إبراهيم لهذا فإن الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذى يقضى يومه عاملا فى الحقل إلى كرة أو متوازين ؟ ولم يسع إبراهيم إلى أن يعترف على الرغم من كل ذلك بأنه يشعر أن هناك روحاً تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته ـ روحاً أو لعلها فتاة فى ثوب قان من الصوف .. آه شوشو مرة أخرى ! تالله ما ألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس! أتراه هجر السرير فى هذا الليل المقرور ليعود إلى التفكير فيها ؟ أو لم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة إلى وجوب القنوط والأقناط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرهف أذنيه وتسمع ، وكانت حاسة السمع عنده قوية ، فخيل إليه أن إنساناً يخلع نعليه . فهز رأسه ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب ووقف بجانب الحائط يترقب ويفكر . ما العمل إذا كان هذا الطارق لصاً ؟ ليس معه سلاح يدافع به عن نفسه ، ولا هو قوى مفتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فماذا يصنع؟ وألهم فى هذه اللحظة ان يستغل الظلمة فعاد إلى السرير فسحب اللحاف عليه وسواه كأنه نائم تحته ليوهم القادم ، ورجع إلى حيث كان بجانب الباب واعتزم ان يدع اللص ـ إذا كان لصا ـ يدخل فى سكون ومن غير أن يعترضه ، وأن يتسلل

هو فيخرج، وإذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا .

وسمع قرقعة كأنما داس اللص المحتمل على بندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه : « سيكون هذا الظلام عونى وحليفى » ، لأن هذا الصوت تلته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا . ونازعته نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الخاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدا مصراع الباب ــ وكان مواربا ــ يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعض إبراهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل . إذن لن يوصد الباب على هذا الواغل ؟ وليس من الحزم أن يعالج إخراج المفتاح والواغل منه قريب ، فلم يبق إلا أن يترك كل شيء للحظ ولإلهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأتى له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلصق بالحائط جدا ، وحدق فى هذه الكرة العجيبة التى بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ليس لها كف ظاهرة ، إلى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الأعضاء الغريبة ، فخطا بجرأة ، فما أسرع ما غير إبراهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى إلى ساق الداخل وجرها بقوة فوقع صاحبها على وجهه وندت عنه صرخة ايقن منها إبراهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن جاءه عار الفرار من امرأة ، وحنق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جبانا ، وتقدم إليها فى ثبات وركلها برجله وصاح بها : « قومى أيتها اللعينة . »

فتوسلت إليه المسكينة : « فى عرضك يا سيدى . فى عرضك » فشد ذراعها بعنف وقال :

ــ ماذا تصنعين هنا يا بنت الكلب ؟ انطقى !

وركلها برجله .

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهي تنتحب « في عرضك » وغاظ إبراهيم أنها تبكي وأنها لاتزيد على التوسل ، وأنه لن يقف على سر هذه الزيارة ، فكاد يجن وقبض على عنقها وهو يصيح :

— سأقتلك إن لم تنطقي ، قولي ماذا جاء بك ؟

— أنا !

فخلى عنها وانتفض قائماً إلى مصدر الصوت في مدخل الباب ، ثم دفع فاطمة برجله وقال : « قومي هاتي المصباح » ومضى إلى الكنبة في سكون .

وقالت شوشو وتقدمت إليه : « معذرة يا ابن خالتي . لا داعي للمصباح ، أنا أرسلتها إليك ورافقتها حتى لاتخاف » .

فلم يدعها إلى الجلوس ، وقال في جفوة متكلفة :

— أريد أن أفهم معنى هذا .

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شيء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف عليها أنها كانت طائشة فيما فعلت ، وأنه مصيب في سؤاله ، محق في غضبه ، ولكنها على عادة جنسها نسيت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت في نفسها وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت ترد النشيج بجهد ، ولم يكن إبراهيم ملتفتاً إليها لأنه آلى أن يتكلف الجفوة ، وأتيحت له الفرصة فاغتنمها ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب في اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول لنفسه وهو جالس لاينظر إلى شوشو : « ان الحياة كالنظر الى الظلام . والمرء لايعرف أي شيء هذا المقبل عليه وإنما يخمن ويقدر ، كما يقدر في الظلام ويخمن أي شجرة هذه التي تصادفه في طريقه ، وكما يحاول أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شيء . . والإنسان وحده هو الذي يفكر ويتبرم ويعنى نفسه بهذا وذاك — وبالحياة والموت ، وبالمستقبل وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، لقد كنت في الصباح مع شوشو هذه في

الحديقة ، وما زلت أذكر وهي على صدري تلك النحلة الصغيرة التي طارت فوق رأسينا ومضت إلى الحشائش وغرزت رأسها فنامت . فياليت أنا كهذه النحلة نحيا كل لحظة أتم حياة ، فإذا تعبنا ألقينا رءوسنا ونمنا ، أما لو أن شوشو ليست هنا الآن ! . مسكينة شوشو واقفة وحدها في الظلام تحدق في سواد اليأس الذى لايتخلله عرق واحد من النور » . مسكينة مسكينة » .

ونهض ومضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها . فتضوع إلى أنفه نسيم الروض العطر . ولم يكن يرى شيئا ولكنه لم يشك في أن كل ورقة على غصنها ، وكل زهرة وكل عود نابت — كل أولئك متآمر أن يذيع كل مافيه من عبير وعطر ، وتنهد وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيوات الصغيرة متحابة متعاشقة . وإلا لما اتسق جمالها كل هذا الإتساق .

وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحدا في الغرفة .

الفصل الرابع عشر

« حبيبي نزل الى جنته ، الى خمائل الطيب ليرعى بين الجنات ويجمع السوسن » .

— ١ —

كان أول ما رآه إبراهيم من حياة الريف — غير ما فى البيت الأنيق الذى شاده الشيخ على — احمد الميت راقدا فى حظيرة البهائم ، وكان إبراهيم قد اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وان يكثر من الخروج إلى الحقول والتجواب فى القرية ، على الأقل فى النهار ، حتى يجىء الشيخ على من الإسكندرية ، فقادته رجلاه الى هذه الحظيرة وهو لا يدرى .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة عرج عليها وارتمى فيها ، ولم يكن يدرى لاهو ولا سواه كم ساعة قضاها هناك راقدا يغط ، بعمامته وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ، وعلى أنه لم يكترث لذلك ، بل لم يكن يبالى كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك .

ولم يكن منظر هذا السكران الطافح بالغريب على مايظهر فى القرية ، يدل على هذا أن إبراهيم رأى قريبا من رأس النائم حجرا منصوبا كأنما أراد واضعه أن يتماجن على النائم — وشهرته الميت — فرفع عليه حجرا كالذى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين ابراهيم ان أحد أزعجه أحد آخر ، اذا استثنينا حمارا كان مطلقا فى الحظيرة وكان لا ينفك يدنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المذاود أو بعض ما يوضع فيها . ويضاف إلى الحمار كلب — لم ينس إبراهيم انه رآه ليلة جاء إلى هذه القرية — مستلقيا عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس فى عينه فتختلج جفونه .

وقف ابراهيم ينظر إلى هذا « الميت » ويفكر فيما ينبغي أن يصنع ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المجنون السكير وكيلا له ويعهد إليه في الأشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن عمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه وظن أن هذا قد يجديه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه ، وترك له فمه وانفه ليتنفس ، ولم يجد أن في وسعه شيئا آخر فأولاه ظهره ومضى ، ولكنه تلفت مرة قبل أن يخرج ، فإذا بالعمامة على الأرض مرة أخرى وإذا بأحمد الميت قاعدا يقول كلاما غير مفهوم .

والحقيقة أن أحمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف - لم يكن يطيق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن في اعماق نفسه بفائدة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حداثته يأبى أن يضع على رأسه شيئا وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدودتان لم يستطع أن يفضي إلى ابراهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ولم تنفرج شفتاه إلا عن تمتمة غير مفهومة ، فكر إليه ابراهيم وزجره أن ينهض إلى بيته إن كان له بيت غير هذه الحظيرة .

فنهض احمد إلى قدميه وسأل ابراهيم :

— البيت ؟ لماذا اذهب إلى البيت ؟

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلقى على ابراهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو ممتعض من منظره :

— اغسل هذه الأقذار على جسدك ايها البهيم القذر .

ولم يكد يقولها حتى كان احمد الميت يخلع ثيابه ويقذف حذاءيه ويعدو في قميصه وسراويله المصفرين ، إلى النهر . فدهش ابراهيم وايقن أن الرجل لا مفر له من الغرق ، ولما كان لا يدرى كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع إلى البيت ويخبر من فيه .

— ٢ —

دفع إبراهيم باب الحديقة الخلفى بقدمه ، وانثنى إلى اليسار ثم وقف . ذلك أن شوشو كانت حانية على حوض الزهر تقطف زهرة من ازهار الأراولة وظهرها إليه ، فعض شفته وخطر له أن يتراجع غير أنه خشى أن تنتبه ، فظل واقفا وقد بدأ المنظر يروقه ، فقد نفخت شوشو الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثا وراحت تنزع غلائلها المستطيلة المتحازية ، على مدار كأسها — واحدة واحدة — وتلقيها وهي تقول على التوالى : « نعم · لا · نعم . لا .. » فوافقت « لا » آخر ورقة ، فتجهم وجهها وتفلت ما بقى من الزهرة من بين أصابعها إلى الأرض ، ولبثت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأة واقتلعت زهرة أخرى وأعادت التجربة فكان ختامها « نعم » فى هذه المرة ، فلم تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها وتضم كأس الزهرة إلى فمها بكلتا يديها .

ثم كأنما طاف برأسها ان الكفتين متعادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا » فالمسألة لم تتزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلا بد من تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت فى انها بدأت التجربة الثانية كما بدأت الأولى « نعم » فقد يكون عدد الغلائل واحدا فى كل زهرة من هذه الأزهار ، فإن كان هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعا لاختلاف ما تبدأ به · وإذا صح أن البدايتين اختلفتا ، وان عدد الغلائل واحد ، فهل غشت إلا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة إلا واحدة فى كل مرة .

ولكن هل الغلائل عددها متساو ؟ هذه هى المسألة ! وخطر لها حنت على الزهر فقطعت اثنتين ومضت تشد الورق وتعد ، فاختلف الرقمان ، فتهلل وجهها و بدا السرور فى وقفتها وحركاتها ، فقد صار التجريب

معقولا ، والأمر متروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم بنتيجته من غير أن يتكلف المرء قطف الزهر وإفساده بنزع ورقه ، وصاحت « لنبدأ من جديد » .

فعلم ابرهيم أنها محت التجربتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت تنزع الورق فى تؤدة وأناة وتثنى رأسها على صدرها فى كل مرة ، حتى بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها « نعم » طويلة ممطوطة كأنها الصعداء تتنفسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكنة لاتصنع شيئا ولا تتحرك . ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذى لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة وفى وجهها طول ، وفى هيئتها استرخاء كأن جسمها موشك أن يتهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك الذرات .

فعجب إبراهيم لهذه التى كانت تطفو كالفراشة قبل دقيقة لماذا . وجمت بغتة وللنفس الانسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ، ولخفاء البواعث التى تفضى إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى النقيض ، وود فى هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد اليها البشر الذى كان ينضح به وجهها ، والخفة التى كانت فى روحها ، والمرح الذى كان فى سلوكها ، والضحكات الكروانية والدعابة التى كانت تركب بها الحياة نفسها — فى ليلات معدودات — غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفراح التى لم تحتج يوما أن تفكر أو تمد بصرها إلى ماوراء اللحظة التى هى فيها . ولكن هذا ليس فى وسعه ، وما هو بأحسن منها حالا ولا بأقل حاجة إلى الغوث ، نعم الغوث ، ولكنه رجل مجرب وهى فتاة غريرة ، وهو قد خاض العباب وغالب التيار وتدرب على المكافحة ، وهذا أول عهدها باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التى تعانيها وهى تغوص و تطفو وتختنق وتشرق و تدفع باليدين والرجلين وتحاول أن تصيح طلبا للنجدة فيخرسها

الماء الذى يملأ فمها ، وتوميء فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يعبث فى هذا الخضم الطاغى ؟

أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟

ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى ، فقد شاء إبراهيم أن يتجاهله وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلا لتوه ، وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت الباب ، وتكلف البشاشة وفى صدره أظافر تمزقه وبسط اليها كفيه وقال وهو يسرع اليها :

— ما أبدع الجو فى البكور ! هل أفطرت ؟

فمنحته كلتا يديها وسألته بصوت خافت :

— أين كنت ؟

فأبقى كفيها فى يديه ونظر اليها وقال بلا تكلف :

— ما أبدعك !

— إبراهيم !

— إنك تفرضين على الحديقة جمالا جديدا . أحب أن أخبرك أنى اليوم مجرم .. لماذا تتراجعين ؟ أتتخلصين عنى فى محنتى ؟ نعم لقد قتلت رجلا . لا تراعى ! انه ليس إلا أحمد الميت ؟ غرق او هو يغرق الآن أو لا ادرى فقد يعود إلى الحياة للمرة الثانية ! على كل حال ليست هذه أول ميتاته إن صح ما تحكون عنه .

ولما رآها حائرة مضطربة قص عليها ما حدث وبالغ فى الوصف فسرى عنها واغرقت فى الضحك وجعلت هى تطمئنه وتؤكد له انه لا خوف ان يقاد به .

* * *

وجاءت هى اليه بالطعام فى غرفته ، فلما جلس إليه على البساط اسندت ظهرها الى الكنبة فنظر اليها فقالت : « لا أحس جوعا » فالتفت اليها وقال بلهجة الجد الصارم :

ــ سأرخي لحيتي احتجاجا . .
فقالت وهي تضحك :
ــ ولكن لماذا ؟ ما علاقة لحيتك بأن آكل او لا آكل .
فقال : « تصوري منظر قريبك وقد ارسل حول خديه وتحت ذقنه لحية كثة ! إنه منظر يوقظ الضمير النائم . وما اظنك ترتاحين إلى لقائي بعد ذلك ولحيتي في يدي . أفهمت الآن ؟ » .
فانتفضت ، فجرها من ذراعها إلى الطعام .

وبعد ان اصابا شبعهما قال : « والان أين القهوة يافتاتي المهملة ؟ الا تعلمين ان لي معك حديثا خطيرا يتطلب كل ما في رأسي من اتزان وحكمة ؟
فلم تدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عتمت أن عادت لا بالقهوة بل بأدواتها : بحق البن وحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت أمامه تصنعها .
وقال دون أن ينظر إليها بصوت لا يكاد يسمع فكأنه يتنفس أو يحدث نفسه :
ــ شوشو أيتها الفتاة الرائعة ، لقد رأيتك اليوم تنزعين ورق « الأزاولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفاتنة ، تسألينها عن مصيرنا . .
فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم ، فأراح ذراعه على كتفها ومضى في حديثه أو مناجاته .

ــ هممت أن أصرفك عن استنباء الزهر ، ولكني قلت أدع لها ذكرى حميدة تنعم بها في الأيام . . المقبلة . . أترك لها حلمها الجميل وإن كنت في شك من أن الأحلام ليست خطرة . شوشو ، ان أنفاسك لا تتعلق أو تحتبس حين تريني مقبلا أو مدبرا . . »
فتمتمت في حياء : « ولكني أسر . . »

فقال و ربما (فرفعت اليه عينيها بسرعة فلم يعبأ بهذه الحركة ومضى إلى غايته) وعلى أن هذا أشبه بأن يكون شعورا أخويا منه بأن يكون.أ. أ . تعرفين ما أعني ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الأقرباء في العادة . ولكن هذا ليس معناه أننا .. أننا .. أكثر من ذلك.. اسمعي يا شوشو . لقد أخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت ، ولكن هذا لا ينهض عذرا لي . أنا الملوم . ماذا جرى؟ أتبكين ؟ يالله ! » . .

وجذبها اليه فأسندت خدها إلى صدره وهي تنشج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفا عليها وعلى نفسه أيضا ولم يسعه إلا أن يهمس في أذنها :

— شوشو يافتاتي الساحرة . ازجري العين عن بكاها . أنك تعلمين أني أتصنع . أني كاذب . لا أعني ما أقول . إني مجنون بك وسأظل مجنونا . هذه هي الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسي إلى غيرك »

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فالتفت ذراعها بعنقه وقالت هامسة :

— أعرف ذلك .

وهدأت الأعصاب ، وبعد لحظة أدار إليها وجهه ولثم شفتيها ثم قال :

— اصغي إلي ، فما استطيع ان ارفع صوتي ، سأبكي إذا فعلت .

فدنت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى خيل اليه انه صار كالصخرة ، ولكن صوته ظل متهدجا على الرغم منه .

— أني أكبر منك سنا واكثر تجارب ، ولم يكن من حقي ان ادع الأمر بيننا يبلغ هذا الحد ، وعلى ان لك على صغرك وغضارة سنك وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم واني لأعلم كما تعلمين ان بيننا . . تفاهما . . تفاهما مباركا . . ولست اعتقد أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعي . كلانا خلق لصاحبه ، ولكن

هذه الأمور . . مقتضياتها . . مستلزمات لامفر منها ولا معدى عنها ، إذا لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم أنه تحد للطبيعة : أن يتحاب أثنان ثم لاشيء . الشأن شأننا في الحقيقة . والأمر لايعني سوانا ولكن الأيام مقلوبة ، والعادات والتقاليد سخيفة منافية للعقل والواجب . صارمة أيضاً . ونحن نوشك أن نحدث في سورها ثغرة .. أن نقتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل . . ولست أراك تقوين على ذلك . ولا أحسبني خيراً منك . ينبغي أن نفتح عيوننا . عاجلا أو آجلا .. أنا أوثر أن يكون ذلك آجلا . وهو أحلى وأعذب وأندى على النفس . ولكنه لن يكون الا حلما مهما طال . ونحن ننسى أحيانا مصير كل شيء لايساير التيار ، ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام . وإذا كان لابد من التحطم على صخور التقاليد فليكن ذلك . . اليوم .

فخنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت ، وكلتا ذراعيها حول عنقه ووجهها مدفون في صدره :

ــ لا أقدر . . لا أقدر . . مرة واحدة . . كلا لا أقدر

فمسح لها شعرها في رفق وقال : « لا بد . . وانك لتعلمين ذلك . لابد أن نكسر قلبينا » .

فقالت : « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا .. دعني أياما . . أمهلني وقتا كافيا ، لا هكذا في دقيقة واحدة ، بالتدريج . ابراهيم . بالتدريج . . ليبقى لى شيء أذكره . أحلم به . أدخره للايام السود . دع لى شعاعا واحدا من النور ، لا أكثر ؛ لاتهشم حياتى كلها اليوم . لاتمح دنياى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجا ليحتمل » .

فابتسم لها ــ في عينيها .

وكما أن لمسه جسمها ألانه وفتره وسرى عنه أيضا ، كذلك ضعفها قواه وأمر عزمه فقال :

— كلا ! ياشوشو . ليس هذا خليقا بك ، يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نحلق فوق مقاديرنا . وسيفسد كل شيء إذا لم نختم هذه الحكاية الآن ثم ننهض مبتسمين . لقد غرسنا معا أجمل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت منى النفس وريحانة العين والأنف — حسن منظر وذكاء مشم . وقد آن أن نقطفها . . يجب أن يكون قطفها كما ينبغي : لا ورقة ورقة ، فلا تبقى هناك زهرة . وتصوري جمال الذكرى . ذكرى الزهرة الجميلة التي كانت لنا والتي لم نخف أن نقطفها . . لما أينعت . . ستزهى بذلك ونسعد أيضا .. حين نذكره نذكر زهرتنا التي لم ندعها تذبل أو تموت . . ويجب أن نقطفها بابتسامة ياشوشو من أجلك وأجلي . .

— أوه ! ان هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه .

— بل تقدرين معي . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أي شيء . وماذا يعنينا من الموت مادمنا نستطيع أن نسير في الحياة بقلب سليم ؟

فرفعت شوشو رأسها وقالت :

— أنت محق . يجب أن نسير بقلوب سليمة .

وتحولت عينها إلى النافذة وارتفعت منها إلى السماء ، ثم ارتدت اليه ومدت يدها البضة ولمست شعره ومشطته باصابعها إلى الوراء .

وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهي باسمة وفي صوتها حنو دافق :

— فلنقطف زهرتنا الآن .

فابتسم لها . .

والتقت شفاههما في قبلة طويلة ودارت الأرض حولهما . . ثم أرخى ذراعيه فتخلت عنه وتناول كفها فلثم أطراف أصابعها ثم اضطجع على

الكنبة وأخرج سيجارة وأخذ يلعب بها وهو يفكر ويبتسم ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ شوشو ، ماقولك فى مكثى أياما أخرى ؟ لقد كنت معتزما أن أرحل ، لكنى أظن أننا نستحق أن نبقى معا قليلا : كأخوين ! .

فقالت وهى تنهض وتشده معها : « لقد ترفقت بى على الرغم من قسوتك » .

وغادرا الغرفة معا الى حيث أختها ،

الفصل الخامس عشر

« قد دخلت جنتي يا أختي العروس »

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنأ ما عرف ابراهيم وشوشو في حياتهما : لا تفكير في شيء ولا أسف على شيء . وتلك إحدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فما فتر الحب بينهما بل زاد اضطراما ، ولا كبر الأمل بل صار أضعف ، ولا أمحت الحوائل بل تكاثرت وغص بها الطريق . ذلك أن نجية لم تكن لا عمياء ولا بلهاء ، ولو كانتهما لكان حسبها غريزتها تدرك بها مالا ترى ولا تفطن إليه بذكائها ، فما هي إلا أيام حتى لاحظت تحنن شوشو على إبراهيم ورقة ابراهيم لشوشو ، فلم ترتح الى ذلك وإن كانت لم تر طريقها إلى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لإبراهيم وواجبها نحوه وهو ضيفها دون التفكير في تعكير الأيام التي يقضيها عندها ، وتنغيص الوقت القصير الذي ينعم به في دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتباطها من أن ترى مقام إبراهيم في بيتها يسبغ عليه الصحة . وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار إلى الناحية التي هي آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للتقاليد ، وقد كان رأيها دائما أن من واجب ابراهيم أن يتزوج مرة أخرى لتنتظم حياته ويجد الروح والراحة في بيته ، وإن كان هو لم يشك اليها ولا بدت منه أية رغبة في هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها ما دام أن في الدنيا فتاة صالحة للزواج . وهل ثم فتاة غير صالحة ؟

فكرت نجية اذن في تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تعن نفسها عما

يبدو من ميل ابراهيم لشوشو ، وما قيمة هذا ؟ ان هذا الميل عندها لاقيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن ابراهيم عاد بعد ثماني سنوات يفكر في المرأة ويشتاق إلى حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها ؟ إنها بنت خالته وليس بينهما حجاب فى مقدوره دائما أن يراها وهذا كاف جدا . ثم إن الفكرة أن يتزوج أختها الوسطى « سميحة » والأختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصلح ، وهذا يستوجب أن يعود الشيخ على من الاسكندرية بهذه الأخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ، أو أن يبعث بها ويطلب شوشو بدلا منها ، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفطن إبراهيم إلى الأمر ويرى فيه تعمدا فتحبط الحيلة ويفسد التدبير ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنف بل تمرد . إذن فلتبق شوشو ولتعد أختها سوسو لتكون إلى جانبها ، وعليها أن تصرفه إلى نفسها شيئا فشيئا ، وهى فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، وستكون نجية فى عونها ، ولا بأس — إذا استدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفا ، والمهم على كل حال أن لايدرك إبراهيم أن هناك مؤامرة لئلا يفلت العصفور ، والباقى على الله وبه التوفيق .

* * *

وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسة » كما يسميها ابراهيم ، كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يتعارفا — يتعهدان الحديقة ويقطفان ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينان بها الحجرات ، ويستدرجان الأرانب من السراديب التى تحفرها فى جوف الأرض ليقنصاها للبيت ، ويحلبان البقرة — وفيما عدا ذلك يتمتعان بالقرب والحب ، فإذا أتعبها الجرى أو المحاورة قعدا على الأرض أو البساط أو غير ذلك تبعا للأحوال والمكان

الذى يتفق أن يكونا فيه ، فيقول إبراهيم ، وهو يلهث ، وقد شعر بالجوع :

— كفى اغواء ، إيه يا حواء إنك لا تزالين كما كنت ، بل شرا مما كنت ، مصدر اغراء وفتنة ! بعد كل هذه العصور أيضا ! لا بأس ! أظن أن من سوء الأدب في حقك أن أذكر الطعام لأن منظرك ساحر وأنت جالسة هكذا . ولكن . .

فتقول شوشو : « لقد أذكرتنى ! إنى أكاد أموت جوعا . كلا كلا ! لست أعنى ما أقول ! ان النظر إليك يغنى عن وليمة ، أليس كذلك ؟ ! » ، ويضحكان .

وفى الليل بعد أن يأخذا حظهما من السهر تهم بالقيام إلى مخدعها فينهض ابراهيم ويرجو منها أن تبقى ويرتب لها الوسائد على الكنبة ويقف - وهو متكئ على النافذة فتسأله :

— ولكن أين تجلس أنت يا آدم ؟

فيقول : « أقف رشيقا كما ترين مستندا إلى النافذة وأقص عليك أسطورة » .

فتقول : « أما الأسطورة فهاتها ، وأما الوقوف فلا . كن طفلا واقعد على البساط » .

فيجلس إلى جانبها ويقـــول : « طفل ! أنسيت يا حواء انى قديم كالجبال ؟ » . . فترفع حاجبيها وتبتسم وتقول : « وأنا أيضا يا آدم » .

— كلا ! على التحقيق .

— ولكن . . .

— لا أبالى هذا التمثيل . إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه .

فتصمت برهة ثم تقول :

— قل لى يا آدم .. هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟

— من يدرى ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء رأتهما هذه الجدران !

— ولكنها لا ترى .

— صحيح ولدت كفيفة ومن أجل هذا تكون أحد سمعا ، وأقوى ذاكرة . ان هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيرا من المر والحلو ، والعنيف والرقيق ، والمضحك والمبكى .

— أظن الجدران تبتسم الآن يا آدم .

— تبتسم ؟ نعم . ولكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا عاشقين — آدم وحواء فى جنتهما .

— لقد نسيت . إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا — فسنخرج من الجنة يا آدم !

— شش ! ان الجدران تحب العشاق ، فترفقى بها ولا تخيبى أملها والا كسرت قلبها . هذا جدار يريد أن ينقض من الآن .

فتضحك وتقول :

— ولكن الحيطان ليس لها قلوب تكسر ؟

— بالطبع لها . إن قلوبها خير القلوب وأمتنها أيضا .. قلوب من الحجر . ليت لنا مثلها .

ويشعل سيجارة فتقول له منذرة :

— بعدها أقوم .

— أمرك يا حواء ،

وبعد برهة تقول :

— لم تقص على أسطورتك يا آدم .

فيقول : « أظنك تعرفينها . إنها أسطورة جندى طارىء وصف له الناس ما فى المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن الملك والأميرة الجميلة ابنته . . فسألهم كيف يستطيع أن يراها ؟

حصن عظيم له أسوار عالية ومن حوله القلاع . لا يدخله أو يخرج منه غير الملك . لأن المنجمين قالوا إن الأميرة بنت الملك ستتزوج جنديا بسيطا ، فغضب ولم يستطع أن يحتمل ذلك » . فقال الجندى لنفسه : « إنى أريد أن أراها » .

ويسكت فتقول : « وبعد ؟ »

فيقول : « وبعد . . فإن الأساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها » .

فتسأله : « أأنا اذن من خيالات الأساطير ؟ »

فيقول : « يوشك أن تصبحى ذلك يا حواء »

فتقول : « وا أسفاه ! وأنت أيضا يا آدم . ولكنها نعم الخيالات تعمر بقية العمر ! أليس كذلك ؟ »

— نعم .

وتنهض قائلة : « جاء وقت النوم نومى على الأقل »

فيتناول المصباح ويقول : « سأرافقك إلى بابك »

ويلف ذراعه بذراعها ويمضى بها ، وتقول له وقد بلغا رأس السلم :

— آدم .

— نعم .

— « أكان آدم — آدم الحقيقى — يقبل حواء قبل أن تنام ؟ »

فيقول : أوه . . آه . . هكذا ؟ »

القسم الثانى

اذا امتلات السحب مطرا

اراقته على الأرض

الفصل الأول

(فى عنقه تبيت القوة ، وامامه يحوس الهول)

ـــ ١ ـــ

« هل قرأت دوماس ؟ اعنى الفرسان الثلاثة ؟ » .

فهز الدكتور محمود راسه إن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد الى اليمين ليعطفه ، وقال « لماذا » .

فقال إبراهيم : « اذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم فى غير ما يمكن أن نسميه سرورا أو حالا عادياً . فقد كان بورثوس حنقا ثائراً ، فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها وصار هم كل امرىء أن يترضاه ويتألفه ويسرع الى خدمته وأن يلبى طلبه بأسرع مما ينطق هو به « مخافة أن يحدث ما هو شر من ذلك » ـــ أى من وجوده ـــ أهو يريد قشدة ؟ اذن يندفع الموجودون ليجيئوه بها . . أم الجعة طلبته ؟ فهم يحملون على « البار » . .

ولما كان لا يقنع بشىء ولا تقف مطالبه عند حد ، فان القيامة قائمة فى الحانة ، وبورثوس يخور كأن فى جوفه ألف ثور ، ولم تعد الحانة حانة ، بل صارت هيكلا لبورثوس ، وكل من عداه من خلق الله مذهوب به الى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على ـ أو على الأصح ـ بعد أن زلت قدمه وهو يطارد أحمد الميت ، واحتجنا أن نحمله الى غرفته » .

فضحك الدكتور وسأل : « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليتنى كنت حاضراً » .

فقال ابراهيم : « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظرا لن أنساه ما حييت ، الشتائم والأوامر التى كان

بصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدرى أبد الدهر ، أوكد أنه كان «منظراً » هومريا » إذا كنت تفهم ما أعنى ؛ ليس فى وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذى كان يحيط به . وللشيخ على الفضل الأكبر فى خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عمليا فى « محاولة » نقله إلى غرفته . وكان بحكم العادة فيما أظن ، يصدر الأوامر ويجاهد — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذى يقع من خدامه فى تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الاكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالمخالف أو المخطىء. أراد فى خلال هذه الرحلة أن يصل إلى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يختنق ، وكاد يتخلى عن كتفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل لكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأنى بأن أمرنى أن أدفن نفسى حيا ! » .

فقهقه الدكتور ثم قال : « إن عمى غريب ، لعلك لم تغضب ؟ »

فقال ابراهيم : « أغضب ؟ كلا . أو لى أن أغضب من العناصر الطبيعية أنه مثلها . ولكن الكلاب هى التى ضايقتنا . فقد اختلطت بالموكب وجعلت تتوثب وتنبح . ومن الغريب أنها كانت تسبقنا إذا صرنا إلى مكان فسيح ، حتى إذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها إلا أن تمشى بيننا وإلى جوانبنا وفى حيثما يكون وجودها عثرة فى سبيلنا ، والشيخ على يصيح بنا أن نخرس الكلاب الحق أن صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد تخارت قوى أثنين أحدهما ذلك العبد العملاق . ولست أدرى ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الأمر لأحد الميت بأن يغرق نفسة فى الترعة — الليلة — وأن يجيئه فى الصباح جثة منتفخة . وأمر « زناره » بأن يناوله سكينا ليذبحه حالا وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدبت رجله بشدة ، فأمر أن ان يقطعها بالمنشار : وأخيراً وضعوه على السرير ووقفوا يمسحون العرق المتصبب بأكمامهم الزرقاء ، وأيديهم الأخرى على صدورهم الصاعدة

الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الاعياء فلعنهم وأمرهم أن يجلسوا على الأرض وأنذرهم بالشنق بعد أن يستريحوا . الموت كان أقل ما يتوعد به أو يأمر .. ثم دخل النساء والأطفال بعد ذلك فأمر إلى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذين حملوه بمقادير متساوية من السمن والجبن والقمح ، وهكذا هو أبدا . . »

— ٢ —

لم تكد مركبة الدكتور تبلغ الدار حتى كان أحد الميت يحل الجواد الذى وقف يهز جانبيه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شد به ، والدخان يتصاعد من جسمه على الرغم من البرد والضباب .

وأسرع الدكتور وإبراهيم وراءه إلى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالزراية والتهكم . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « فى يدها الردة » — كما يقول أهل القرية — فدلكت له قدمه ولفتها ولكن الدكتور جسها مع ذلك فألفى الأمر هينا ولا كسر هناك . وأوصاه أن يلتزم رقدة خاصة سبعة أيام على الأكثر فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على أن يسجن سبع سنين على الأقل .

ولما رآه لا يحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه .

ولم يبالغ إبراهيم فى الوصف فقد كان الشيخ على مثل بورثوس : ضخما هائل الانحناء قوى البنية كثير الارعاد والإبراق سريع الغضب حاد الكلام ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ، وكان يسمى الشيخ على لأنه جاور فى الأزهر زمنا طويلا ثم انقطع عنه بعد وفاة أبيه . وتزوج بنت عمه نجية ، وتخلى لزراعته الواسعة وكثر تردده على الاسكندرية فاشترى له بيتا فى ضاحية الرمل على شاطىء البحر وخلع الجبة والقفطان والعمامة واعتاض منها ثياب « الأفندية » غير أنه كان إذا عاد إلى « البلد » يكر إلى جلباب من الصفوف والطربوش .

وتلقى وهو فى الأسكندرية كتابا من أحد الميت ينبئه فيه بأن زوجته نجية تطلب أن يبعث إليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له فعادا معا .

غير أنه قبل أن يؤوب بها أحس بألم فى أحد أضراسه فرأى أن يعالجه قبل السفر ، فقصد إلى طبيب يعرفه وكان الخادم جديدا حديث العهد « بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم خطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض له فدفعه صاحبنا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتزاحم وهى خارجة من فمه وانحط على أقرب كرسى .

وكانت فى الغرفة سيدة تنتظر الطبيب ، فأفزعتها الزلزلة التى أحدثها الشيخ على ، وهاجها اقتحامه الغرفة عليها فنهضت ودنت منه وصاحت به :

— أخرج من هنا يا قليل الأدب .

ولكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب .

— أقول لك أخرج من هنا يا وحش .

فوثب إلى رجليه وقال :

— أتعنينى ؟

قالت : « نعم . وان فى بقائك هنا وردك علىّ لدليلا آخر على أنك سىء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس فى قفص »

فغلا الدم فى رأسه ولكنه تماسك وقال :

— بأى حق تجترئين على مثلى بهذه الألفاظ ؟

فلم تتراجع وصاحت به :

— أترد على ؟ أتتحدث ؟ إن هذه عيادة طبيب وليست ميدان مصارعة للثيران ثم إن هذه غرفة للسيدات وليست محلا للفيلة . أخرج من هنا .

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما يبحث عن شيء ثم رفع وجهه المحتقن وقال بصوت متزن :

— إنك تعتمدين على امتيازات جنسك . ولكن هذا لا يبيح لك أن تصفي الناس بمثل هذه الألفاظ . على أني آسف لأني دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه إلى أنها للسيدات وأعتذر لك . ولكني أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثلي بهذه العبارات . .

فقاطعته :

— ولماذا قرعت الباب ؟

فقال وهو في دهشة :

— لأدخل

— ألم يكن الباب مفتوحا ؟

فسكت . فأعادت عليه الكرة :

— انطق . ألم يكن الباب مفتوحا ؟ ألا بد أن تحدث ضوضاء تمزق الأعصاب لتعلن إلى الدنيا إنك داخل ؟ ولماذا شتمت الخادم ؟

فوجد لسانه وقال :

— لأنه حاول أن يمنعني

— أنه كان يحاول منعك من أن تسيء الأدب بالدخول في حجرة السيدات . ولماذا ضربته ؟

— بأي حق تسألين ؟ إنه كان وقحا .

- ولماذا تدخل الغرفة كالقنبلة ؟

— لم يحصل هذا مني .

فقالت : « لا تكن سخيفا . لقد دخلت كالوحش وارتميت على الكرسي كالوحش ولم تكلف عينك النظر ... »

فقال مصرا : « لست كالوحش . ولا حق لك فى هذا الكلام . »

فألقت إليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب .

وظهر الخادم فى الباب فخرج الشيخ على ولم ينتظر الطبيب وسافر مع سميحة إلى البلد . فلما بلغها كان ما حدث له لا يزال يحز فى نفسه ويهيجه فلم يكد يلقى أحمد الميت ويرى منه بعض التلكؤ فى تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فزلت قدمه وكان ما تعرف .

ولم يفت الشيخ على أن يقص ما حدث له وأن يؤكد انه سيخطفها لا محالة يوما ما .

فقالت نجية : « تخطفها ؟ يا خبر اسود . »

فصاح بها : « دافعى عنها . . لك الحق . . الكلب لا يعض أذن أخيه . . ولكنى سأخطفها فإنها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور ـ وكانما أراد أن يطمئن نجية ـ : « ولكنك لاتعرفها »

فقال الشيخ على ملغزا : « ابق معتمدا على هذا . سنرى »

الفصل الثانى

(المرأة التى هى شباك ، وقلبها اشراك ويداها قيود)

نظر إبراهيم إلى ساعته فالفاها الثانية عشرة فقال : « أوه » ونهض .

فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة : « ماذا ؟ »

ـ النوم يا صاحبى . جسمى متعب .. وهذا الدفء يزيدنى تفترا » :

فمد له الشيخ على يده وهو يقول :

ـ طبعا . طبعا . ساعد لك ثلاجة أضعك فيها الليلة الآتية

وانحدر إبراهيم إلى « السلاملك » وهو يعجب أين ذهب الباقون : الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ونجية وأختاها . ولما لم يهده التفكير إلى شيء خلع معطفه وارتمى على السرير وتغطى ونام .

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع فتكرر النقر .. يا عجبا .. فى كل ليلة حادث؟ مرة تكون البقرة وأخرى تكون الزنجية والليلة ماذا يا ترى؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف يمكن أن يكونه ! من عساه أن يكون غيره .. شوشو .. لا لقد قطفنا زهرتهما وانتهى الأمر .. قطفاها ولم يذبلاها .. واحتملت شوشو أن تقطفها ، ولم ترتجف يدها وإن كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة . ولم ترق دمعة ولم تتنهد وإن كان فى جوفها بركان مضطرم . ولم يشحب وجهها وإن كانت حياتها قد جفت واستطاعت بقوة حبها أن تسمو وتحلق فوق « الحياة » فيا لها من ..

نقرة أخرى

فرمى اللحاف ووثب الى الأرض فى خفة ومضى الى الباب وقال من ورائه — دون أن يفتحه — بلهجة السأمان :

— من هذا ؟

— أنا أفتح يا بن خالتى . .

صوت سميحة — أو « سوسه » — كما يسميها . . ماذا تبغى ؟ . لأى شىء تجىء فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بباله إلا كل سوء ، وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لا يكاد أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلها ليست سوى رسول .

« افتح امال ! » بلهجة الضجر .

ففتح — وهل كان يسعه خلاف ذلك ؟ — ووقف فى مدخل الباب — حجر عثرة — فألفى فى يمينها مصباحاً ، ولمح شبحاً عند باب السلم ، فهى ليست وحدها اذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق . . »

وقال : « ماذا جاء بك الآن ؟ » .

فابتسمت له — ولم تكن دميمة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها نبرات :

— ألا تمهلنى ريثما أدخل ؟ أعوذ بالله ؟ ما ذا جرى لك يا بن خالتى تتركنى واقفة أنتفض من البرد ؟

وأدرك ابراهيم أن لاشىء هناك يدعو الى القلق على أحد ، وساءه هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضاً تعتمده وخاف ما قد يجر اليه سماحه لها بالدخول فى هذا الوقت ، من التأويل والتخريج وهى تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خارة ، ولا يبعد أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطاردته التى اتعبته وأرهقته وبغضت النساء جميعا اليه . واذا عرف أهل البيت أنها زارته على هذا النحو وأنه تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شىء لا يفهمونه ؟ كلا ؟ يجب أن يمنعها مهما

كلفه ذلك ؟ وماذا يخشى ؟ إنها داهية خبيثة ولكن شرما يدخل فى طوقها ، وقد وطن نفسه عليه ، وكذلك شو شو .

وقال : « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً » .
فضحكت ولم تنهزم وقالت وهى تدفعه لتفسح لنفسها طريقاً .

— بلاش دلع ، أتحسب أنى جئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت معى فاطمة وهى تنتظرنى .

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفاً فى مكانه فلما وضعت المصباح وجلست قال :

— اذن أخرج أنا :

فقالت : « عجيب هذا ! ؟ وبعد أن قلت لك إن أختى تعلم ؟ » .

فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة النبرات :

— إنى سأصعد اليها وأبلغها أنى لا ارتاح إلى هذه الزيارة وأن الإذن بالدخول علىّ — وان كنت ضيفا عليها — يجب أن يكون منى أنا لا منها او من سواها . ليس احد وصيا علىّ ، اذا كنت انت تحت الوصاية .

فدقت كفا بكف وقالت محاولة ان تنقل المسألة عن هذا الوضع :

— ولكن أى ضير فى حضورى وانت ابن خالتى كأخى ؟

فقال : « إن كونى إبن خالتك أو عمتك أو من شئت غيرهما لا يجيز لك هذا ! » .

فلم تتراجع وخيل لابراهيم ان كل غرضها أن تقضى دقائق عنده والسلام ، وانه لايعنيها كيف تقضيها ، ما دامت تقضيها .

وقالت : « كأنى لم أعد من الأسكندرية اليوم ، ولم ارك منذ شهور ؟ » .

فعاظه إلحاحها وازداد مقته لها ولم يعد يتقى إيجاعها بالكلام الصريح وقال :

ـ هذه الزيارة فى الليل ـ بعد منتصف الليل ـ يسهل جداً أن تعد خلوة مدبرة . وأنت تعلمين أنى برىء من ذلك ولا يد لى فيه . وتعلمين أيضا أنه ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لاتجيز توريطى فى مثل هذه المواقف التى لا أرتاح إليها ولا أستطيع احتمالها . ثم إنك فى قميص النوم أيضا فكيف أنظر إليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين يعلم . .

فقاطعته وقد فزعت :

ـ أتنوى أن تخبره ؟

وكان سؤالها هذا وما نم عليه من الفزع زلة منها ، فأدرك أن الشيخ على لايد له فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن يعرف إلى أى حد يسعه خوفها من الشيخ على فقال :

ـ من واجبى أن أخبره . .

فأقبلت عليه تتوسل إليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بابنه ، وقد أخمد الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ولكنه أبى ان يعد بالكتمان وقال ويده على مفتاح الباب :

ـ إنى أريد أن أنام .

فخرجت .

ـ ٢ ـ

ولكنه لم ينم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة ماكرة . ويحسها بكل جارحة فيه ثقيلة بغيضة ، ولم تكن دميمة ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضا ،

ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجرا حين تكون معه، كان إذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هي تحمد الله على الغضون وتشكر له إن لم يعبث في ووجهها لحية . وسر هذه الكراهة التي نمت كالسرحة ، أن سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحبب إليه ولجت في محاولة « توريطه » أمام الأقارب والمعارف لتوهمهم أن كلا منهما — هي وإبراهيم — يصفو إلى الآخر بما هو أقوى من الود بين الأقارب ، ولم تكن هي تحبه أو تعبأ به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فحزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعوضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة تحمد في الرجال ولا تكون في النساء — عوضا عن الحياء — إلا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين : ابراهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن إبراهيم أسمى مقاما ثم إنه آثر عندها لأنه قريبها فلتهد إليه سميحة ! أما الدكتور فثم شوشو تنتظره إذا شاء ولا يضيره الانتظار لأنه أصغر سنا من إبراهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففي وسعهما أن يصبرا ومن اجل هذا جعلت تلقى سميحة على إبراهيم وتغريها ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو وتحمد لشوشو في سرها أنها تنفر منه ولا تقبل عليه فإن ذلك منها اعون على شحذ رغبته وادعى إلى إطالة « الحيل » حتى يأذن الله وتتزوج سميحة .

ولم يكن إبراهيم يعرف كل هذا — وأنى له أن يعرفه ؟ — ولكنه كان يلمح امارات الرضى من نجية عن سلوك سميحة ويشعر شعورا غامضا أن بينهما تفاهما أو اتفاقا — قد يكون صريحا وقد لا يكون — على مطاردته وتوريطه ، فكان هذا يستفزه ويستثير نقمته ، وينفره ، ولو أن الأمر جرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر إبراهيم في سميحة ، أو على الأقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت .

وكأن الله شاء ان تكون حياة إبراهيم كلها حربا ومشاكل : فما طلب

أمرا أو اشتهت نفسه شيئا إلا اكتظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أنف أمها . حتى مارى ـ آه مسكينة مارى ، لقد نسيها ـ غرقت قطرتها فى الأقيانوس الذى أزخره حب شوشو . ولكنها قد تسلت عنه ولا شك ؟ ـ حتى مارى كانت علاقته بها مشكلا . والان . تقف سميحة فى وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه . ويسد شيطان خبثها كل فج أمامه . ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو إلى الوجود وتقدمتها فى الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون له زوجة ؟؟ كلام فارغ ، وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هذا القضاء الماحق ؟

ونهض إبراهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذى قسم لشوشو ، سيزوجونها يوما ما ، واحدا لاتعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه . واحدا كالدكتور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض . وهبها استطاعت أن تجترىء وحبست نفسها عن التزوج فإن هذا لا يكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لأنه هو ـ إبراهيم ـ أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق ـ تحترق فى الجحيم الذى أضرمه بيده . ثم قذف بها فيه ؟؟ الا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وإن تبعته لعظيمة ، وهبه غير مسئول فإن عليه واجبا لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة ان تعترض طريقه وتأخذ عليه متوجهه ؟ ما سميحة ؟؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ؟ من أجلها يترك شوشو تعانى الغصص ؟ من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ؟ لايفصلهما شىء . غير ان أيديهما لاترتفع ، وشفاهما لاتلتقى ، وانفاسهما الحارة لا تبرد؟ كلاهما يجب أن يصرع رغبته فى الحياة ، كلاهما ينبغى أن يغيب ـ وهو حى جدا ـ فى فراغ الموت المظلم ـ يجف ويذوى . ويرفض الماء الذى يرويه ، ـ ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق وتغور عيناها وتعمق الكهوف حولها ، وتنقلب تغريداتها نعيبا وفتنة صوتها حشرجة ، لأن سميحة تشاء هذا ؟؟

لأنى انا ضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحتقرهم من أعماق قلبى ، لأنى لست من طراز بروميثيوس ؟ لأنى لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة شخصية أنانية ؟ «أنا» دائما ، و«أنا» فى كل شىء . بحسبى أن فزت منها بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تغرق فى اللجة الطامية التى دفعتها اليها ! أتركها تحترق فى النار التى أوقدتها وعجزت عن إخمادها .

كلا كلا ! لن يكون هذا .

وارتاح لما انتهى إلى ذلك ورمى إلى الحديقة نظرة مطمئن إلى ما صمم عليه وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف خافق فكأنما هنالك اشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

« اما خاطىء واحد فيفسد خيرا جزيلا »

- ١ -

ـــ آه زوزو .

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بجيب جلبابه وتخرجان إزراره من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيها ، ولم يكن أحب إلى الشيخ على ولا أثلج لصدره من أن يصبح على وجه فتاته « زوزو » ولم تكن وحيدته ، فإن له غيرها ابنا هو محمد ، ولكن « زوزو » آثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيراً ما كان إبراهيم يعجب لذلك منه ويقول له إن الولد ـــ لا البنت ـــ هو الامتداد الطبيعي لحياة المرء فيهز الرجل الطيب رأسه ويقول :

ـــ كلا ياصاحبي وليس إيثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا . أنت شاب فمن حقك أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي لايؤثر فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه ـــ بصوت خافت متهدج :

ـــ للحياة كما للأيام فصول . ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل فقد يكون الربيع أياما والخريف أعواما ! والذي يجيء منها لايعود ومتى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ماكتب له في عمره ، وأن مابقي من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجودا » منه بأن يكون « حياة » ـــ استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجري فيه « الحياة » الأولى ، كما يجري النازل من « الترام » خطوات إلى جانبه بقوة « القصور الذاتي » عرف المرء أن أذنه التي كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع

بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن انتظام . وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ، ويهن استيلاؤها على نفوسنا ويضعف إغراؤها لخيالنا ، وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وهنا — متى صرنا إلى هذا فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب ، إن هذه الفتاة الصغيرة ياصاحبى تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم انها انما تحيى « ذكرى » ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء .

ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الكلام :

— وأنعم بالصبيان . يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا يحملون الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقا فى هذه الدنيا . ويفوزون بحسن الذكر وطيب الأحدوثة ويشرف بهم الأصل الذى هم فرعه ، ولكنهم ياصاحبى بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « اصولا » لأنفسهم ولا يعودون « فروعا من غيرهم » . . ثم . . — هذا ياصاحبى أوجع مافى الأمر — يحتلون المكان الذى نخليه نحن ، ويجعلوننا نشعر أننا أخليناه لهم . وما أكثر ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلائه . أن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل هذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على الدنيا — نعم يحتملوننا ولا يبخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا ويحترموننا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأننا محسوبون على الماضى مضافون الى آثاره — يصغون إلينا — هذا صحيح — وقد يطيعوننا ولكن بلا حماسة ولا اقتناع بل على التسامح .

فيقول إبراهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعذوبة لهجته على الرغم من المرارة التى فيها .

ـ صحيح ، لقد كان يوليسيس فحلا فى زمانه . طوف فى الدنيا بشجاعة وغامر بقوة . ولكن تلماك هو الذى نجعل بالنا إليه ونوقظ له قلوبنا وعقولنا .

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

ـ ولكن البنت شىء آخر مختلف جدا ، ويظل أبوها ـ حتى يحل زوجها محله ـ مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه من طفولتها ، لا يزويه فى نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجته العادة . كل صفاته المحببة تزداد على الأيام رقة . اخوتها الصبيان ـ على حبها لهم ـ ليسوا سوى صور ضعيفة فاترة من ذلك الأصل العظيم وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو محور وجودها وقطب الرحى فى حياتها . وحبه لها سماوى ملائكى . . ليس من هذه الأرض . لا يشوبه ولا يعكر صفوه الاحساس بأنها ستحل يوما محله ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير فى نفسه ذكرى مهذبة لحبه القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الأبوى الذى هو من أسعد وأقدس أسرار الحياة .

وكأنما يتذكر فجأة شيئا فيرفع رأسه ويقول وهو يحدق فى وجه إبراهيم :

ـ كيف تستغربه ؟

فيقول إبراهيم : « ماذا ؟ » .

فيقول الشيخ على مستأنفا : « وأنت القائل ـ لا أذكر فى أى كتبك ـ إن المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى »

ويضحك .

فيقول إبراهيم : « هذا أكثر مما كنت أعنى . واعترف أنه لم يخطر لى » .

— ٢ —

وبينما كانت « زوزو » تداعب أباها وتفيض عليه من حبها وإشراق نفسها ، كانت أمها نجية قاعدة في غرفة أخرى على الوسادة ، وأمامها الموقد على مستداره أباريق القهوة كبراها وصغراها ، في واحدة منها القهوة ، وفي الثانية ماء مغلي وهي ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماسا للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لا تزال مستلقية في سريرها ، وسميحة تروح وتجيء وتدخل وتخرج ، وفي يدها مكنسة وهي لا تصنع شيئاً وكأنها تصنع كل شيء .

وكانت نجية وهي قاعدة على الوسادة وكفاها على كرشها « والشال » يغطي رأسها وأذنيها وظهرها ويجتمع طرفاه على صدرها . تفكر فيما يكربها ، وهي لا يكربها شيء سوى مستقبل سميحة ، ولا نحتاج أن نقول إن مستقبل أية فتاة في رأي نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم . لا شيء غيره ، وقد أدارته في رأسها مائة ألف مرة واجترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الأحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق ، ومن حقها أن تولي الأمر هذه العناية ، فإن حادثة حياتها الوحيدة هي زواجها ، به استغنت عن الإقامة في مصر بعد وفاة والديها ، وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ، وأن تكفل أختيها ، وأن تعلمهما في أرقى المدارس الفرنسية في الإسكندرية ، وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ، فقد كان هذا خاطرا مخامرا وما خلت إلى نفسها لحظة إلا راحت تتصور أختها هذه معقودا لها على واحد ومزفوفة إلى آخر ممن تسمع بهم أو من لهم بزوجها أو بالأسرة صلة ما ، ولم تكن احلامها ، على خلاف المألوف في الأحلام ، منطقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن

يخطر على بالها ، فترى بعين خيالها واحدا وقد تقدم إليها ليلبسها سوار «الشبكة» وجاء ثان في حفل من الأخوات والأقارب والأصهار ليعقد له عليها ، وأقيمت الزينات وجيء بالمغنين والمغنيات وأحاطت « العوالم » بسميحة يزففنها إلى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شابا رابعا فتجعله هو الداخل عليها ، حتى إذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب في خيالها شخصا خامسا وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار ، ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه .

وكانت نجية أذكى وأحزم من أن تدع أحدا يطلع على هذه الصور التي تتعاقب على ذهنها وترتسم واحدة بعد واحدة في نفسها ، وإن كانت هي لا تكف عن إحضارها وتمثلها في خاطرها لتنعم بها وحدها ، ولم يكن أحد من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم أزواجا لأختها ، يتوهم أنه بعض ما تدور عليه هذه المناظر العجيبة في رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة ولا كان يجرى لهم في بال — وهم جلوس في بيت الشيخ على يشربون القهوة ويتحدثون في شتى الشئون ، أو وهم في حقولهم أو أمام مكاتبهم أو في دورهم — أنهم ينقلبون أشخاصا آخرين فتنضى عنهم ثيابهم العادية ويكسون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قميص أبيض وربطة بيضاء ، أو جبة سوداء وقفطانا مخططا وإن أيديهم واحدة بعد واحدة توضع في يد الشيخ على الكبيرة وأن أفواههم تتمتم في حياء « قبلت نكاحها » وأن السرادقات تنصب فوقهم وتزدان ، وأن أصوات المغنين ترسل فضية النغمات تجاوبها أصوات السامعين بآهات الاستحسان ، وإن الموسيقات تعزف مرحبة بالقادمين من المدعوين .

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهي مرة زوجة «باشا» يغنيها ويرفعها مقاما محسودا بين اترابها ولداتها ، ثم تستحيل زوجة « وجيه» موسر له مصيف في الاسكندرية ومشتى في القاهرة وضيعة طويلة عريضة يقصدان إليها كلما سئما حياة المدن وتبرما بضجاتها وحفلاتها

واستقبالاتها ، طلبا للروح والراحة بين أحضان الطبيعة ، ثم هي بعد ذلك زوجة الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تتسع دائرته ويتسامع به الناس ، إلى رمل الاسكندرية فتكون قريبة منها ، ويغنى شيئا فشيئا ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها وأذنيها وجيدها ومعصميها وأصابعها وصدرها أيضا ، ويلبسها كل ما يشتهى شبابها من الأفواف والأوشية ، — ثم يهتز الكليد سكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون فيبدو مع سميحة إبراهيم الحازم العطوف ، يبيحها قلبه ويقطعها حبه ويلزمها طاعته ويحكمها كما يجب أن تحكم المرأة ، وكما لا يحسن غير إبراهيم فيما تعلم أن يفعل وتتنهد وتبتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح إليه وإن كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهى ترسم خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو إلى إبراهيم وتحبه ، وتنحى عن خاطرها أن إبراهيم لا يبادلها هذا الحب ولا يبدو منه مثل هذا الود ، وتقول لنفسها من يدرى ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى أن إبراهيم يعرف سميحة وأنه يمقتها ، فلا أمل هناك إذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتشعر بوجوب التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت إليه بغريزتها وأدركته مما رأت من شوشو وإبراهيم . وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن تحطيم قلبها وتخييب أملها إذا كانت تحب إبراهيم ، شيء لا يعنيها ، ولكن صورة إبراهيم وشوشو تأبى أحيانا إلا أن تبرز ، وتعكر عليها صفو أحلامها فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحدا بله إبراهيم ، وتقول لنفسها إن هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى تعلم البنات الكلام الفارغ قبل الاوان ، وتنحى على نفسها باللوم هى التى أصرت على تعليم اختيها — وفى مدرسة فرنسية أيضا — ولكن سميحة كانت معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الأدب وفساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الأسرة عارا ؟ أتريد أن يذاع فى البيوت أن

شوشو أحبت إبراهيم ؟ يالفضيحة ! يجب أن تضرب على فمها . نعم لا بد من زجرها عن هذا وإلا فالفضيحة لا محالة واقعة .

ويزيدها هذا تصميما على إهداء سميحة لإبراهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للإشكال ، والسرعة هي كل شيء ، وليس أجدى في مثل هذه المسألة من قطع الأمل .

وأفرغت في الفنجان الذي كانت ترشف منه القهوة ، نقطا من الماء وهزته ثم صبته على حافة الموقد ، ووضعته بين اخواته ثم صفقت فجاءت سميحة تسبق فاطمة فقالت نجية :

— قولي للبنت ترفع هذه الأشياء . ألا تزال شوشو نائمة ؟ يالها من مكسال !

فقالت سميحة : « أنا عارفة يا اختي ! إنها لا تريد أن تقوم . وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة ؟ أكانت تدع الرجل يفطر ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهي منطرحة في السرير ؟ ولكن الكلام معها لا يجدي وقد تعبت معها وهي لا تسمع لي كلاما . فلا شأن لي بها فإنها لا تقبل مني كلاما ، فأنت وشأنك معها » .

فهزت نجية رأسها ومصمصت بشفتيها ولم تقل شيئا ونهضت — على يديها أولا .

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسي إلى جانب سريره قالت لزوزو : « ردي الباب يا بنتي » .

فالتفت إليها الشيخ علي ورفع رأسه عن الوسادة واتكأ على كوعه وقال :

— هل من جديد يا فيلي الصغير ؟

فلم تجعل بالها إلى مزاحه ووضعت ذراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهي تتلفت إلى الباب بعد كل كلمة :

— نريد ابراهيم لسميحة .

فاستوى الرجل قاعدا وصاح بها .

— ماذا ؟

فارتدت مذعورة حتى كاد الكرسى يقع بها فما كانت تتوقع ذلك وقالت وهى تشير بكفها مستهجنة :

— يا أخى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفزعتنى ؟

فال اليها الشيخ على وقال بأخفض اصواته :

— ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟

فقالت مستغربة : « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألست موافقا ؟ »

فقال : « موافق ؟ أنك عمياء ! »

فقالت : «عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك . ألا أستطيع أن أكلمك من غير أن تثور كالزوبعة ؟ » .

فلم يعبأ بهذا وابتسم وهو يقول :

— لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترفى بالحق .

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت؟ سل إذن فاطمة ؟ » .

فضحك الرجل وقال :

— الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة .

فقالت ملحة .

— نعم سلها . فقد بعث إلى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد أن يقوم من عندك ، فاستأذنتنى فأذنت فاستصحبت فاطمة فسلها إن كنت فى شك . انك لا تصدقنى أبدا فلعلك تصدق الخادمة .

فلم يكترث للمرارة التى فى لهجتها وقال :

— إذن أنا لا أعرف ابراهيم !

فقالت وقد أزعجها أن أحست أن زوجها يعرف ماتعرف هى «ماذاتعنى؟».

قال : « أعنى أيتها الفيلة العمياء ان ابراهيم يمقت سميحة بكل جارحة فيه » .

فكأنما طمأنها هذا وسرها أنه كل ما يعرفه فقالت :

— يمقتها ؟ انك تبالغ دائما . ومع ذلك فإنه سيحبها شيئا فشيئا وهى ذكية

وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله ، دع هذا لها ولى أيضا .

فأرسلها زفرة طويلة ثم قال :

— ما أشد غفلة النساء واعظم لجاجتهن فى الخطأ . ياعمياء انه لا يمقت سميحة فقط بل هو يحب شوشو . أسمعت ؟ أكان لا بد ان اشق لك جفونك بالسكين لتفتحي عينيك فتبصرى ؟

فريعت كأنما كان هذا نبأ جديدا وأسرعت تقول :

— شوشو . كلام فارغ ، لا والنبي ابدا . والله لو ملأ لى حجرى ذهبا . مستحيل .

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على ان قال بلهجة قاسية :

— قومى من هنا . واسمعي . أحذرى أن تقولى أو تفعلى شيئا فاهمة ؟

فنهضت طائعة وهى تقول :

— أمجنونة أنا ؟

فقال : « بل أنت مستشفى مجاذيب بأسره . إن إبراهيم حساس جدا . ولا أريد أن اخسر صداقته مهما كلفنى الاحتفاظ بها . اتفهمين كلامى هذا ؟

فشورت بيدها وخرجت وكرشها امامها .

الفصــل الرابع

« في النهار ادعو فلا تستجيب ، في الليل ادعو فلا هدوء لي »

الوقت الصباح ، وابراهيم يتمشى في الحديقة ، ولا يرى شيئا فما يكظ ذهنه الا موقفه الذي لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ ، فهو اذا بقي يخطيء ، وإذا سافر يخطيء ، وإذا خطب شوشو وعيناها العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبي المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل وكيف يكون الكبح وكيف يكون الانقياد ؟ إن المسألة ليست ألفاظا ألعب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ ،

وثنى رجليه إلى السلم ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو وهي تعدو اليه منه وتكاد تقع فتلقي بنفسها بين ذراعيه وتستريح ! فعصر قلبه الألم ولجت به الصبوة إلى شوشو وهاله والقحط ، الذي ينتظره في أيامه المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر في شوشو وسوء حالها ، بل في الدم الذي يغلي في عروقه هو ، وفي النار المندلعة في جسمه وفي رغبته الثائرة ، وفي حنينه إلى قبلتها . . إلى جسمها الرخص . . إلى حبها الحار . . في ظمئه اليها كما كانت وهي تطعمه من النافذة . . كما بدت وهي واقفة تنزع أوراق (الاراولة) وتعدها وتستنبئها حظها . . في صدرها على صدره . . وشفتيها على شفتيه والليل باسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع القمر في آذان الشجر ، والضفادع تنقنق ، والبوم ينعب من بعيد ، ووجهها هي تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر .

تعاقبت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الأرض يكابد حمى الحنين ، ثم خطر له أن شوشو قد تخرج إلى الحديقة فتراه واخلق بذلك أن يضاعف ألمها ! فنهض ومضى إلى غرفته .

وتذكر ما كان من سلوك سميحة وزورتها له تحت جنح الظلام ، وما يخشى به ذلك من القصد إلى توريطه ، فتسور الدم إلى رأسه وأيقن أن الرحيل لامناص منه .

وصعد إلى الشيخ علي وكاشفه بعزمه ، وكان هذا أعرف بإبراهيم وادرى بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده ، وكفته نظرة واحدة إلى وجه ابراهيم المربد أن يوقن أن سميحه واختها كاذبتان وأن ائتمارهما به هو الذى يرجع اليه اعتزامه السفر .

وقال الشيخ علي يمازحه :

ـ مللنا أم نبا بنا أم جفانا ؟

مشيرا إلى بيت البحترى . فقال إبراهيم :

ـ كلا لم أكن أريد ان اعتاض منكم سواكم ولكنى مللت . لا اكتمك هذا . كأنى فى سجن . لا أرى أحدا غير السجانين . . . أعنى بنات خالتى وخدمهن حتى أنت شاء الحظ أن يقعدك عن مرافقتى إلى حيث أشتاق أن أكون . . اعنى فى الحقول . . مللت والسلام .

فنظر الشيخ علي بخبث وقال :

ـ أهذا كل شيء ؟

فرفع إبراهيم رأسه وقال « وما سؤالك هذا ؟ » .

قال « صدقت لاعمل للسؤال فإنى أعرف كل شيء . ولكنى أرجو ان لاتكون مغفلا . كلا ، لاتشكرنى .. »

فقال ابراهيم بلهجة الجد الصارم « إن من واجبى أن أخبرك . . »

فقاطعه الشيخ علي بدوره : « لاتفعل . فلن تزيدنى علما . أو تحسبه ليس لى عين ترى ؟ »

ولكن علمك قد يكون مشوها أو غير مطابق للحقيقة .

فضحك الشيخ علي ضحكة حافلة بالقرقعة ثم قال :

ـ أرجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفاسير . « أبقها إلى أن أنام ، أو أكتبها بأسلوبك الجزل وضعها فى ظرف واختمه بالشمع الأحمر واعطنى إياه . ولك على أن امزقه قبل أن أقرأه أو إذا كنت تحرص على آثارك الأدبية ، احفظه لك إلى ان تكبر وترشد لتتاح لك فى كهولتك فرصة تضحك فيها من حماقات شبابك .

فابتسم إبراهيم ولكنه قال بلهجة اليأس : « لا أرى فى صلاحك أملا » .

فقال الشيخ على : « سألحق بك بعد غد . فأنا ايضا قد مللت البلدة . »

ولم يكن هذا ما يريد ابراهيم ، ولكنه كتم مافى نفسه وقال للشيخ على :

ـ أو لا تزال مصرا على خطف تلك المرأة ؟

فلم يكترث الشيخ على وقال :

ـ قل لحمود إنى سأدق له رأسه ، ولفرج البواب انى سأشنقه بيدى هذه ، ولأم الخير . . ولكنك تستطيع ان تنوب عنى فى انذار الخدم جميعا ، إذا عدت فوجدت أن الأجراس لم تصلح ، أو أن واحدا منها لا يدق بأعلى من جرس الكنيسة . أما أنت فلا تخشى أن أجيء لك بسميحة وان كنت لا استطيع أن أعدك بأن أحضر معى شوشو .

فنهض ابراهيم كأنما كان قد كواه بمسمار محمى وصاح به (قبحك الله) .

ـ ٢ ـ

حلم ابراهيم وهو نائم فى بيت الشيخ على فى رمل الاسكندرية ، أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شيء ، (جعة) مثلجة فى زجاجتها ، وان محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « الجنبرى » وانه ـ أى إبراهيم ، احتج فى حلقه او وقف فيه ، ولكنه اكرهه على الانحدار

فى جوفه فلم يزل يجاهد ان يفلت – اعنى ان يرتد – حتى أصيب المحافظ بانتفاخ دائم جعل له كرشا كروية ، أكسبته سمتا وابهة ورشحته لعليا المناصب التى لا يصلح لها النحاف العجاف ، وانه – اى المحافظ – سر بذلك كثيرا فأقام – على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة – « سبيلا » يستطيع من شاء أن يرشف منه اعذب السم الزعاف بلا ثمن ، وفى كل ساعة من ساعات الليل او النهار إذا شاء ، وطلبه بلسان « سريانى » فصيح .

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سدادة » الزجاجة ، وكانت الدنيا ملفوفة فى شملة سميكة من الظلام تفيض على الليل سحرا ورهبة ، واندمج كل موجود فى ظله ، ولم يعد شيئا بعيدا ، وآخر قريبا . والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسم الوانى يهمس فى آذان الشجر .

وحانت منه التفاتة إلى حيث كتلة البناء – وكان هو فى جناح متصل بها ومرتفع عنها – فلمح شعاعا من النور باديا من خلال الشمسية ، فى غرفة المائدة ، فاستغرب ثم قال : « لعل الخادمة جهزت لى طعاما ثم قامت تنتظر هل اصبت منه » ولكن النور لم ينطفىء ، فأشفق إبراهيم على الخادمة أن تحيي الليل كله فى انتظار من لا يجيء ، وخطر له ان الواجب ان يصرفها لتنام ، فانحدر حافيا وقال لما بلغ الباب :

– لماذا تنتظرين يا .....

ولم يزد ، وان كان فمه قد ظل مفتوحا ، ذلك انه لم يبلغ « يا » حتى كان مسدس مصوبا إلى رأسه ، وكان الذى رفعه إلى وجهه أشبه بالعمالقة منه بمن رأى ابراهيم من الناس ، وهوى وذراعاه إلى جانبيه وتخلخلت ركبتاه وجحظت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم ابراهيم ، لا سرورا ، بل لأنه صار فيما يعلم آلة حاكية ، وقال :

– سوف . كلمة واحد . وتروح بلاش .

فلم يفهم مراده ، وحار فى هذه « الكلمة الواحد » ما معناها هل

هى مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد أم تشمل الكلام العادى أيضا ، ولكنه آثر الحذر والاحتياط ، لأن التفسير — ولا سيما إذا كان من جانب واحد هو الجانب الأعزل — غير مأمون المغبة ، فأطبق فمه وكان لا يزال مفتوحا ، وهز رأسه مرات إعلانا للامتثال .

فقال له : « خس » .

فود ابراهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحملته رجلاه خطوات فى خط مستقيم حتى صدته المائدة ، وهو وراءه ، وأدار له وجهه وحده مستفهما ، وأشار بعينيه إلى كرسى ، فابتسم العملاق وسأله وأصبعه على فمه :

— لسان مفيش ؟

فتشهد ابراهيم ، وعلم أنه يبيح الكلام أيضا ، وعادت الطمأنينة مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة فى منعها الآن ، وإذا لم يحدث ماليس فى الحسبان فما من شك فى أنه سيمضى بما يجمع .

وقعد على الكرسى الذى أومأ اليه فى زاوية بعيدة عن الباب ، وانصرف هو إلى عمله فى هدوء رائع ، وكان يجمع الأوانى الفضية ويفحصها ويرتبها ويضعها فى حقيبة معه ، وتبين ابراهيم وهو ينظر اليه ان على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس ابراهيم وهو قاعد ، واشتاق ان يدخن فقال : « معك سيجارة ؟ » .

فرفع العملاق حاجبيه كالمستغرب ، ثم ابتسم وقال :

— آه بردون ياحبيبى .

ومضى إلى « البوفيه » وعاد بسيجارة وأشعلها له ، فشكره إبراهيم وهو ذاهل ؛ فما رأى لجرأته مشبها ، ولا سمع بمثل سكينته . وتنظيم جهوده وقصرها على ماينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ما سواها ؛ وبدا له وهو جالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو

والسرقة ليس أسهل منهما فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا الرأى ، وفى مأموله أن يجره إلى الكلام فيطول الوقت لعل شيئا يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ما جمع أو يؤدى إلى القبض عليه ، وكان ذلك أملا بعيدا ورجاء محقق الخيبة وما دام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الكلاب الحارسة — ترى كيف دخل ؟ — فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة ، ولكن المشفى على الغرق يتعلق بقشة .

وأدرك اللعين المدرب غرضه ، فقال وهو ماض فى عمله :

— أنت مكار .

فأكد له إبراهيم أنه كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياسا على مايرى ، فقال العملاق :

— سوف ، أنت على البر .

فقال إبراهيم : « بل فى قاع الجب ، أو على كل حال حيث لا أحب أن أكون » فلم يلتفت العملاق إلى هذا ، ولم يجب بأكثر من ابتسامة ، ثم قال :

— أوحش حاجه ال . . . ال . . . اسموا ايه ؟ مس يسبع ؟

فقال إبراهيم : « الطمع » .

قال مثنيا : « برافو » .

فقال إبراهيم : « أحسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الإحسان وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ » .

فقال العملاق شارحا : « سوف ، فيه كتير راخ فى داهية سان لازم كان . . مس يسبع » .

فأعرب له إبراهيم عن إعجابه بهذه البلاغة وقال :

— كنت أظن لبلاهتى أن اللص يلقى كل ما يجمع فى غرارة ، ثم

يذهب من حيث جاء ، ويفعل الباقى فى مخبئه ، ولكنك علمتنى شيئا ، وإنى لأعجب الآن كيف فاتك أن تجيء بالأدوات اللازمة لصهر المعادن أيضا .

فمط العملاق فمه مستخفا وقال : «مش سهل دى» .

فهز إبراهيم رأسه وقال : «آه ! أنت اخصائى فى السرقة فقط ؟» .

فقال العملاق : «أنت فاهم دى كله يروح كاسورة ؟» .

فقال إبراهيم : «لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك فمعذرة» .

فلم يرد العملاق ، وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيبة وأدار المفتاح فى قفلها ، ثم أومأ إلى إبراهيم وقال : «من فضلك» .

فنهض وهو يقول :

ـ هل أطلب لك عربة ؟

فابتسم العملاق وقال : «مرسى ! انت كويس» .

فقال إبراهيم «شهادة قيمة ، ألا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟» .

فلم يلتفت إلى هذا وقال : «بس مش يلزم تخاف كده دوغرى» .

فقال : «معذرة يا خواجه ، سأتدرب على لقائك» .

فربط له يديه وراء ظهره ، ووضع له بين اسنانه بكرة خيط صغيرة وتناول قبعته وقال :

ـ ليلتك سعيدة يابيه .

ولم يستطع «البيه» أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى بمثلها ، ولكنه استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن أو الدور .

وعاد «البيه» يعدو كأحسن ما يستطيع موثق مكمم ، إلى غرفة الخادمة فوق السطح ، وإنه ليركل بابها برجله ، وإذا بنباح يوقظ الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكد يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره وأسنانه مغروزة فى عنقه ، وكان كلبا أرمنيا ضخما كالسبع ، لا يدرى أحد أين كان رابضا ، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكنا ، حتى يصير اللص أمامه ، وعلى مسافة كافية للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى الليل ، وقد ردت وثبته صاحبنا آخر الأمر بشر من - خفى حنين - أى بقطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه .

وكان من الطبيعى أن تحضر الأسرة كلها إلى الاسكندرية لا الشيخ على وحده .

الفصل الخامس

« اين الطريق الى حيث يسكن النور ؟ »

فى الصباح أيضا ، وإبراهيم يتمشى وحده فى حديقة الدار ويمد يده من حين إلى حين - وهو يروح ويجيء - إلى وردة يلمسها ، أو فلة يثنيها إليه ليشمها دون أن يقطفها ثم يعود إلى المشى .

وحده ؟ كلا ، بل معه .. كيف نقول ؟ نفسه . تحاوره وتداوره وتناوشه وتنوشه أيضا ، وتقول له فيما تقول :

- إنك تحبها . ألست تحبها ؟

فيقول : « أحبها ؟ ويحى ! لقد كان لى ثوب رجولية زين ، فأين الآن وفائى للخلاق الرزين ؟ تجملى أين ؟ وكرامتى ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس إذا جمحت ، على مكروهها ؟ أحبها ؟ وا أسفاه ، لقد صرت عارى الهوى ليس لى ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحس الناس فيها . لا حياء ولا عزة . وما دامت الأرض فى عينى خرابا مأمونا فممن أستحيى ؟ وماذا يبعث فى النفس الشعور بالعزة ؟ .

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فتقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟

- نعم :

- جسمها ؟

- يفتننى روحها فيه .

- طبيعتها ؟

- نادرة . نادرة .

ويرسل آهة :
فتزداد نفسه عليه شدا ولا ترفق به وتقول :
— إذن لا شك في النتيجة ؟
فيقول : « لا أدرى ! » .
فتعيد عليه الكرة .
— ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟
فيهز كتفيه ويقول :
— ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .
وتكف النفس هنيهة ثم تعود فتسأل :
— أليس كل حب إلى ملال ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟
— نعم .
— وللقلب جمحة ، أليس كذلك ؟
— نعم ..
— أليس أولى بك أن تجعل العقل لجاما ؟
فيسألها بدوره « كيف » ؟
فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
— هل لك عمران !
— ماذا تعنين !
— هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
— كلا !
— أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق ؛
— أى فكرة !
— كم ساعة عشتها بعقلك ؟
فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبه ويقول :
— ياله من سؤال !

— إن حولك الأرض والسموات تغرى العقل بالتفكير .

فيقول مستخفا « نعم ؟ » .

— كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه !

— يعنى ماذا ؟

— يعنى أنى أراك تطلب الحسن لتغنيه . أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟ هيه ؟

— لا تسخرى بي من فضلك !

— لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الإنسان أيضا .

— نعم ولكنه فى الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيرا .

فتقول النفس : « أحسبنى فهمت : لا بد لك أن تسند صدرك القريح إلى شوكة الوردة إذ تغنيها ؟ »

فيثور بنفسه يلعنها فلا تعبأ وتقول :

— كنت أظنك احق بأن تحاكي النسور لا القمارى !

— النسور ؟

— نعم ترفع الطرف مثلها فى سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها الباكى الشادى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار والطلقاء . وأحسب انك معذور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك لا بأس ، ارسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم . غن وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف . واحلم على الرغم من الرق والأسر — بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب لا أدرى ماذا أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لى أن اسألك ما وحى الأزاهير الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفاقة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الاصلاد ؟ لا باس . غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى !

فلوح بذراعيه وقد ضجر وقال « أوه ! العقل العقل ، ليت إذن المقادير حرمتنا هــذه النعمة التى لم نغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت

تركتنا نرعى الكلأ ؟ ماذا كانت تخسر الدنيا لو كانت الحياة حمتنا و فكرة ، السماء وسمرت لحظنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتاً وتنشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ، ونحيا ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة فى كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها ، وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا نعمة الحس فهيهات ينفع العقل . نحن أحيا الأحياء فلو أحسسنا الحياة بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . . والمرء يتألم الله ويجحد فضله إذا حزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه ، لا لا . ألك تريدين نيمة ليس فيها حلم . وعلى أنه يانفس ، ما الفرق ، آخر الأمر ، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ولكن ... ،

أو بعبارة أخرى ، ما الفرق ما بين زينون وابيقور ؟ لست أعنى أنى أحدهما .

فقاطعته النفس وقالت : « على ذكر هذين وما داما سيين فاسمع مشورتى » .

وكانت لفتة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباغتات أو الوثبات فيسألها بابتسامة :

— ماذا ؟

قالت : « شوشو لا حاجة بها إلى صدحاتك » .

فقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول أنه ليس ما يضطرها آن تعانى الأصغاء إلى « سحر » غنائك . لا تعجل . أن دهرها لم يرعها ولم يشبع أنفاسها إلا استواء . ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يأبى أن ينحدر . فليس جميلا منك أن تثقل صدحاتك بالدمع لعين لم تلق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى الغريرة الرقيقة التى تشكو الإنداء ، وأن تزعج ألحان حسنها بكلام تغصه

بالضوضاء ، بل ليس من العدل أن تحيط جملها بأنقاض حياتك . إنك زلزال يا صاحبي فاحذر .. » :

فطأطأ رأسه وقد راعته هذه الصورة ، ومضت النفس فى كلامها وقالت :

— فانفض يدك من هذا الحب . اسرع . عد إلى مارى . التقطها . ان قلبها « كالاستراحة فى أقليم الحب » .

فابتسم وقال : « بالضبط . استراحة خالية مجعولة للنزهة . . ولكنى تعبت ومللت أن أظل أحمل حقيبتى الملأى بمؤونتى . سئمت أكل الأطعمة المحفوظة واللحوم الباردة ، ولذلك سامضى فى رحلتى مع شوشو » .

فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر » .

فقال بحدة : « هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعنى بهذه العمليات الحسابية وهو يتلكأ بجانب كليو باترا ؟ » .

فعادت تسأله . « ولكن المسئولية » .

فقال : « إنى أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لا سبيل اليه الآن ، ثم أنى لا أريد أن أتراجع » .

فسألته : « ومتى تخطبها ؟ » .

فقال : « قريبا . فى أول فرصة » .

— « وإذ رفضوا ؟ » .

« آه . إذن أدفن سرى فى قلبى ولا أرثيه حتى بقصيدة . »

الفصل السادس

« مشرقة مثل الصباح ، جميلة كالقمر ، طاهرة كالشمس ، مرهبة كجيش بالوية »

غرفة شوشو- وإبراهيم واقف على عتبتها متردداً ، ومن حقه أن يتردد فإن غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيتها ، أحلامها الجديدة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشيها بمختلف الصور التي تتعاقب على ذهنها في ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وضبط أعصابها ودخل . وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أو شباكان من أرق نسج ، وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فمجموعة ومربوطة بشريط بنفسجى وإلى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها إبراهيم واحداً واحداً وقلبها ، وهو يعجب فقد ألفى دى موباسان إلى جانب برناردشو ، والفونس دوديه مجاوراً لاسبينوزا ، وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و « لانفان دى فولبتيه » تحت آخر كتاب له هو ولم تقع عينيه على كتاب مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هستيريا البنات ، ولفت عينيه إلى السرير وجعل يفكر فى شوشو وهى راقدة عليه ، ومعانقة مخلوقات خيالها أو مرسلة لحظها إلى المستقبل تستشفه وتستنبئه عن حبها وتتمثل سكرة القلب بخمر التسليم . وتصور لنفسها أغماءها من فرط السكر ، وحلاوة التخدير والتفتر فى جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها ونهوضه لخنق خيالاتها - ثم استدار ووقف ينظر إلى أدوات الزينة ، فرأى مكحلة فارغة سدادتها مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردة .

مما يفرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء فى أوعيتها وميلا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين ، وكوما من الأشرطة على كل لون ، وبقايا شعر وزجاجة كولونيا .

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط ، فقالت :

— يا قريبى المسكين أهذا أنت ؟

فالتفت إليها فراعه شحوبها وتقدم إليها باسطا يديه فتناولتهما وقالت وهى تجره إلى السرير وتقف مستندة بظهرها إليه .

— اتعرف انى كنت اقرأ كتابا فى تربية الارادة ؟

فابتسم ، ولم يسعه على الرغم من كل حبه لشوشو الا ان يستخف بها ، وقال بلهجة مبطنة بالسخر . « هل قررت ان تشتغلى بالتنويم المغناطيسى ؟ » .

فقالت . « لا تسخر ، فان تربية الارادة والتغلب على العواطف ، شيء يستحق الاحترام » .

فقال . « نعم . . خنق القلب وانماء العقل ، اليس كذلك » .

قالت . « نعم ما رأيك ؟ اعنى رأيك الجدى ، بصراحة » .

فقال . « بديع جدا وضرورى ايضا ، لرجال السياسة » .

فسألته . « وللمرأة ؟ » .

فقال : « جحود . كفر صريح . تمرد على الطبيعة لاطائل تحته ايضا . امراة بدون قلب ؟؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشيا »

— هل قرات ما قال « اوفيد » فى « فن الحب » اعنى قوله « ان الفضيلة أنثى . هى كذلك بثيابها وبلفظها » وانا اضيف اليه ، وأزيد عليه ان الحب لقلب المرأة كالارج للزهرة » :

فقعدت على السرير ودلت ساقيها ، وقالت وهى تهزهما .

— إنك تعرف جيدا أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » إذا فتحته انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب .

فعجب لشوشو ، ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ، ولكنه كتم خواطره وقال :

— يجب أن تتعلم الواحدة منكن كيف تفتحه بحذر .

ففتحت عينيها العميقتين ، فتحتهما جدا وقالت :

— ماذا تعنى بالحذر ، أتريد أن تقول : أن على الفتاة منا أن يكون فى مقدورها أن تقرأ الغيب ، وأن تنظر فى صدور الرجال ، فإذا قلوبهم لوح مكتوب تطالعه ، هل تدعى أنت ان لك هذه القدرة على النظر فى هذا الكهف العميق المظلم ؟ .

فزادت دهشته ولم يستطع أن يهتدى إلى الباعث لها على هذا الكلام ، ولكنه سايرها وقال :

— اسمعى يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطرة ولكنى أقول أنه ينبغى أن نحيا حياة أيضا مؤلمة . ان الألم لا سخيف ولا بشع . أنظرى هذه الشمس التى تنحدر للمغيب . ان للشمس بقعها . والشمس على الرغم من بقعها هى حياة الأرض . هى وحدها حياتها . والسعادة أيضا لها بقعها . ولك أن تسميها آلامها ، ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر السعادة التى نفوز بها . والحياة بالقلب هى الحياة الثامنة . أما من يبلد قلبه ، من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة . واحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس فى عالم تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات لحى أو شوارب ، والنساء ملاحق لها ، والحب لوغارتما للرغبات ! »

فقالت له : « ابراهيم . ان فصاحتك لا تقنعنى اليوم ، إنى انا فتاة دون العشرين ولكنى بكيت أنهارا وتألمت . . بكيت ليالى بأسرها على آمالى الميتة . . »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة :

« شوشو . ان دموعك التي سكبتها في ظلام الليل هي التي تجعل المستقبل خصبا . آه يا شوشو . لاتذبلي زهرة نفسك .. ان الحياة تدخر لك ساعات من أسعد الأوقات واحلاها وأنداها » .

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لي أيضا دموعا مرة . . »

فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبني فهل لم تتألم قط ؟ ! »

فقال « يا له من سؤال ! كأني لا أتألم الآن ! أولى أن تسألي سمك البحر هل ذاق طعم الماء المليح ؟ نعم . تألمت يا شوشو . بسبب قلبي أيضا .. القلب الذى تريدين تربيته ؟ وسأتألم مرة أخرى . ولا يزعجني علمي بهذا بل أنا راض به ومستعد له » .

وذهب إلى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها فجأة :

— شوشو !

فاسرعت إلى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر إليها :

— لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سر حضوري إليك .

فتراجعت خطوة وقالت ويدها على صدرها المضطرب :

— تخطبني ؟ اليوم ؟

قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »

فرمته بنظرة عتب وقالت :

— أرجو ألا تفعل . ليس الآن . تمهل . انك لا تعرف . أطعني في هذا . لا تقض على بهذه السرعة . انتظر حتى تكون أختي سوسو في .. في . . . الريف — بعيدة عن أختي نجية . . أرجو . . الخ .

وكان ينبغي أن تحلل عزمه لهجتها وإلحاحها وتوسلها والفزع الذى في عينيها ، ولكنه غاظه واسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة

مثل هذا السلطان ، وجرح كبرياءه أن تكون لمثل هذه الفتاة التي يمقتها قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه ، والحيلولة بينه وبين أختها . ولم يبد له — فضلا عن ذلك — أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة ، فسميحة ستقاوم على كل حال ، فخير أن تنشب المعركة الآن فليس من وراء ارجائها اى امل فى اتقائها . وما دام أن الحرب لا محالة دائرة على كل حال . فلتدر والمعسكران متقابلان . . وهو بين أنصاره . . أنصاره ! اين هم ؟ ليس له من نصير غير الشيخ على ، ولكن اليس فيه الكفاية ؟ إنه جيش وحده ؟ وماذا تستطيع امامه مائة الف سميحة ونجية ؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجة المصمم :

— لقد سمعت منك إنك تقرئين كتابا فى تربية الإرادة ! يلى اليوم أخطبك يا شوشو !

الفصل السابع

(لذلك اسمعى هذا ايتها البائسة والسكرى وليس بالخمر)

قالت شوشو لإبراهيم :

ـ هذا أنا . . قد جئت . .

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

ـ أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟

ـ لا كبر ولا جفوة .. وانما أنا مغيظة .

ـ منى ؟ . .

ـ كلا !

ـ ممن إذن ؟

ـ لماذا تسال ؟ .. من نفسى .

ـ مسكينة يا فتاتى ! ماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟

ـ لست آسفة على شىء . . هذا ما يغضبنى .. ولو وجدت للأسف مسا لكبرت فى عين نفسى .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه ـ وهما مبتئدان الى سور السطح ـ غير صوته فقال :

ـ انت فى عينى كبيرة وجليلة دائما .

فلان ما كان متجمدا من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقت حاشيتها ، وانسجم صوتها ، وجذبها تكلفة البشر ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه واقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ احق انه يكبرها وسيظل يكبدها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ إنها لا تسأله

عن حبه لها فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به ، أن يحبها أو لا يحبها ، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها في يده :

— وماذا فعلت يافتاتى أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت .

— أو هذا كل شيء ؟

— كل شيء الآن . . الآن وإلى الآن .

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلامحة النجوم ثم قالت .

— وماذا كنت تريد أن تقول لى مما أجهل ؟

فاربد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

— كنت أريد أن أقول أن هذا لذيذ (بابتسامة متكلفة) .

— ماهو ؟

— كون يدك فى يدى .

فانتزعتها بحركه لدنية وبلا تعتمد لذلك وقالت :

— لقد أنسيت أنها فى يدك .

— أنسيها مرة اخرى .

— لا أستطيع ان .

— ماذا ؟ .

— ان أنسى . .

— تناسيها اذن .

— كلا .

— هل من سبب ؟

— « لا » ممطوطة طويلة « سوى ان التناسي ليس كالنسيان »

وتناول يدها وسكتا مرة اخرى وتكلم بينهما الهوى .

* * *

وطال سكوتهما لأن الليل عظم وقعه فى صدر ابراهيم . ، وكان مما يرفه عن اعصابه ان يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى اجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد اشد هولاً . وكذلك كانا واقفين فى ليلتهما تلك . هى مفتونة بجمالها ؛ وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنية الشعور بضآلته اذ يجيل عينه فى فيافى السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل اليها احساسه بهول السماء وضآلة الانسان وكل ما يتعلق به أو كأنما كان يعنيه أن ينغص عليها متعتها بهذا المنظر .

— ثقي أن هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهما تكن علة وجودها انه لا شيء فى الارض أو فى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقسى من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته او لاشيئيته اذا شئت .

فأدارت اليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما فى لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد ان تصرفه عن هذا الاسلوب من التفكير .

— ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد » ان صح التعبير

بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها — هذا مايوجد ! .

وضحك مرة أخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق في السماء وقد شعر فجأة — على كل حبه لها — كأنما بينه وبينها بعد مابين الأرض والمشترى . ومضى يقول :

— وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به في أجوازها اللانهائية . . ليس جمالها الذي يسحرك بالخاطر ولا الباقي ! ها .. حتى هذه مرجوع وهجها رماد ! وجذبها من كتفها ، أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لماناً ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها — كلها — قد خمدت ؟ تصوري عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! غمي عينك ! غضي بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقي بشاشة نفسك .

ففزعت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها على جانب صدره وتعلقت يسراها بكمه الأخرى فأفاق ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف ، وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل مابينهما فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له في هذه اللحظة أن مما يعزيه ، لو أن هذا مما يعزى ، أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا . وأن الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترمق عقول جديدة ، وأنها ستشهد أشجاء طريفة تندب ، ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعزبها ، على حين نعود نحن ، كما سيعود كل شيء ، قبضة من تراب .

وقالت شوشو : « لن أفعل هذا مرة أخرى » ؟

— لن تفعلى ماذا يافتاتى ؟

— ألقاك هكذا ! إنك مخيف . هى الأولى والآخرة .

فابتسم إبراهيم ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب ، وقال وهو يتنهد :

— لا أدرى أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم ! فى كل يوم أعالج أن أرد نفسى على مكروهها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك . ولا يبقى لى منى إلاك .

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن السهاء إليها :

— وماذا تريد أن تصنع بى ؟

— ماذا أريد ؟ أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون أهلك . هذا ما أريد . إن رأسى ليدور حين أرى واحدا من الخلق ينظر إليك . ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين . وفى هذا عزاء لى ، وإنى ليخيل إلى أحياناً أن تناسخ الأرواح حق وأنك أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها .

— ليتنى كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار تحمى به قلبها وتمتحن من ينشده .

— يحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار .

— ولكن ألم تعرف — ألم أقل لك — أن ماتبغى عسير لا يقع فى الإمكان ، فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟

— أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حتى وأنهم يضحون بك فى سبيل أختك .. لا تضعى يدك على فى ! دعينى أتكلم ! إنهم يحولون دوننا تقديما لها عليك ، وقد علموا أنك لى لا محيد عن ذلك ! عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم .

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح إلى صدره فأسكره قربها ، وأخذ منه

شذا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها إليه وأهوى على فمها يقبله في بساطة كأنما كان هذا حقا له ، وهي تجاهد وتعالج أن تفلت من عناقه ويأبى هو أن يدعها .

— انك !.

وعضت شفتها وردت اللفظ الذي همت به .

— أنا أي شيء ؟ قوليها . اقذفي بها في وجهي كما قذفوا .

— وحش . فظيع . هذا أنت . دعني .

غير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك في رقة وجذل وسكر حتى همست في أذنه :

— لم أكن أعني ما قلت كما تعلم .

فقال : « لم تعنه أبداً بالطبع » .

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

— كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟

— أنا ؟ متى وعدت ؟

— كيف تسأل يا . .

— يا وحش . قوليها ؟

— ولكن أليس لك ضمير ؟

— ضمير ؟ ياله من سؤال . بالطبع لي ضمير .

— لا أراك تحفل به الليلة .

— أنا في شغل عنه . قبليني .

— أي فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟

— افعلي .

— مستحيل .

— من فضلك .

— مستحيل . قلت مستحيل .
— إذن تعالى أقبلك .
— ولا هذا .
— ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبة ؟

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ أنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلا ، فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكترث لذلك أو تفكر فيه ، فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها .

— أمصغ أنت ؟

— « نعم » بصوت تخنقه عربدة الشفتين فى نحرها .

— إنى أعلم عظم حبك لى وإلا مافعلت الليلة مافعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة ، وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ، ولا أن يسهل أن تلهيك عنى وتعللك بالدنيا . ولقد أردت أن أعبك ما تذكرنى به — ما يطيل ادكارك لى — ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأنانية : . »

— بل قولى إنه الحب .

— هو هذا وذاك بلاشك ، ولكنى أردت أن تذكرنى ::

— أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟

— أخشى .

— لماذا ؟

— كل امرىء ينسى القبلة بعد أن تبرد شفتاه .

— من علمك هذا يا . :

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت :

ـــ دعنى أذهب الآن :

ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! إنى أخشى أن تتسربى فى الهواء إذا تركتك » .

ـــ كلا لا تخف .

وعاطفته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها :

ـــ أواثقة أنت أنك تريدين أن تمضى ؟

ـــ كلا ! ولكنى واثقة أنه « يجب » أن أذهب .

فخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت إليه وهى تقول :

ـــ لا يشق عليك ماتقول أخى .. وأيقن أنى .. ولكن ليتنى أكون أنا على يقين من وفائك !

ومضت أخف من الفراشة .

وسافر هو فى الصباح الى الأقصر .

الفصل الثامن

« من هو جاهل فليمل الى هنا ؟ »

أدار الدكتور محمود ظهره إلى المركز حيث عيادته وقصد إلى الاسكندرية ؛ وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غبا لبيت الشيخ على فى القرية ، ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة ، وأمره معها عجيب ، فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثرا عميقا فى نفسه أو أن طلوع وجهها فى مدار حياته قد أضاف إلى هذه الحياة شيئا ، ولكنه بعد أن رحلت مع بقية الأسرة إلى الإسكندرية وجد نفسه كثير الشرود وأدرك أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة أخرى مألوفة ، أنه يحبها .

وهكذا أحب شوشو اثنان : واحد بمعاشرتها وتوالى النظر إليها والآخر بالبعد عنها والانقطاع عن رؤيتها .

أما كيف أحبها الدكتور ومتى كان ذلك فهذا مالم يستطع أن يهتدى إليه ويحل لغزه ، والمحقق عنده على كل حال ، أنه لما تركها آخر مرة قبل أن تغادر القرية — لم يشعر بذلك الأسف والاكتئاب المعهودين ساعة الفراق . فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى ورآها معتمدة على حاجز السلم ؟ لقد أعجب بها حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه يذكر مع ذلك أنه وجدها « جافة » . أم ترى أحبها لما أكرهته بعد ذلك بقليل على مبارحة المنزل والعودة على الرغم من المطر والأوحال إلى المركز ؟ لقد راقه حديثها قبل ذلك ولكن خبثها أفزعه ومكيدتها أسخطته . أم هو اكتئابها وتفترها وما عراها من الذبول بعد رجوع الشيخ على إلى القرية ؟ لقد وقع فى نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لا تكاد تتكلم أو تضحك ، ولا تميل إلى ترك غرفتها إيثاراً للوحدة . . ترى لماذا ؟ وقد

كانت تصده عنها فى ملل وضعف فماذا كان يكربها ؟ وكيف حالها ياترى فى الإسكندرية ؟ .

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهدا على أن هذه العاطفة ليس من الضرورى ان تكون نتيجة لتلاقى العيون وتلامس الاكف . وذلك أن قلبه لم يصب اليها الا بعد ان نأى عنها واستحالت فى ذهنه خيالا ومعنى ؛ فأدرك أنه يحب روحها التى لازمته فى رقاده ويقظته واستبدت به حتى صار يرتجف اشفاقا من العواقب التى قد تترتب على ادخال هذا العنصر الجديد فى حياته الهادئة المنظمة ؛ فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشرد فكره ويتعلق بصورتها وراح يجد لذة فى التفكير فيها .

وكان يوما فى القرية يعود مريضا فلم يطق ان شوشو ليست فيها فصمم على الذهاب فى هذا اليوم إلى الاسكندرية ؛ واعتدل فى مقعده فى المركبة أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد الأصيل فانطلق يخطف ، وسره عزمه الجديد وأنعشته المناظر على الجانبين وراح يتصور نفسه بطلا غازيا سيدخل الاسكندرية فاتحا — يومىء بأصبع فيهرع اليه الخلق ويحرك شفتيه ، فينطلق مائة رجل فى خدمته ، ويبتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . .

. وهنا صادف الجواد مصعداً وصار السير بطيئاً فتساءل من أين له هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟؟ وفكر فى النجاح أولا فما هى فرصته ؟؟ وقال لنفسه : « لا أدرى . . من أين لى العلم بما يبطنه هؤلاء النسوة . أنهن جميعاً يلاطفننى الى آخر ذلك ، ولكن هل هذا من المرأة له قيمة أو دلالة خاصة ؟ » وجره ذلك الى التفكير فى السعادة ، فمضى يقول : « لست أذكر شيئاً معينا قالته شوشو يبعث على الأمل ، نعم تجرى أحيانا لاستقبالى وتظهر السرور بوجودى ، وهذا كل شىء . وأحسبها تجاملنى لانى قريب الشيخ على ، ثم انى طبيب والمستقبل أمامى حسن ، ومكاسبى الحالية ليست بالقليلة ، فهل يتقدم لها من هو خير منى ؟؟ »

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط ، وعاد الجواد يخب ، ومضى هو فى مناجاته لنفسه : « صحيح أنها لم تختصنى بشىء يروق ويعجب ، ولم تبد لى إيثاراً ، ولكن ما دلالة هذا ؟ ، وماذا انتظر غير الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ واذا كانت قد صدتنى عن مغازلتها ، أفليس هذا أولى بأن يرفعها فى عينى ؟ أكنت أحترمها أو أفكر فى الزواج بها لو أنها أسلمت لى قيادها ومنحتنى زمامها؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . . أمد يدى لأقطف الزهرة . . ومما يزيد سرورى أنها فيما أعلم لم تحب أحداً قط . صحيح أن علاقتها بإبراهيم وثيقة ، ولكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تكبره وتحبه ، ثم إنه ضيف وان يطول مقامه على كل حال ، وهو بعد رجل حاد حكيم قوى فمخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذى ينقصها . وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبى ولم تخالط غريبا فهذه مزية ، فليس أبغض إلى من أن أتصور نفسى أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فإن من المستحيل أن يطمئن المرء الى زوجة كانت لها برجل آخر علاقة حب » .

وابتسم وهو يتصور شوشو خالية القلب مستعدة أن تثنى عنان قلبها اليه .

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور تبعا لذلك فقد خطر له أن سميحة قد تكون عقبة فى طريقه وطريق شوشو . نعم إن الشيخ على رجل واسع الذهن ، طيب القلب ، ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس اليه ، بل الى زوجته ، وهى سيدة مؤدبة ولكنها لاتفهم شيئا ، ثم إنها عنيدة جدا ، فهل تقبل ان يتخطى الدكتور سميحة ؟ هذه هى المسألة . لماذا لم يخطب أحد سميحة هذه ؟ إنها ليست اقل جمالا من اختها ، وان كانت . . اوه ! مالى انا ومالها ؟ لتكن ما

شاءت فليس لى بها شأن . ولكن هذا لا يحل العقدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على فى ذلك فقد يسخر منى . فمن استشير ؟ ليس أمامى سوى إبراهيم ، فهو الرجل الذى له من الاحترام والتوقير ما يجعله خير معين لى فى هذه الورطة . ولن أعدم لحظة أخلو فيها به فى الإسكندرية .

ولما صار فى الاسكندرية قادته رجلاه إلى دكان صائغ ، فانتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهديهما إليها . واتخذ مجلسه فى قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجباً بهما مستغربا من نفسه هذه الجرأة . . . الجرأة ؟ نعم . وهل يجوز أن يتقدم بمثل هذه الهدية إليها وليس بينهما ما يسمح بالتهادى ، واضطرب وأضاع نصف ساعة فى التفكير فى هذا ، واستسخف نفسه جدا لأن هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشترى الهدية ، فقد أيقن أن ما هم به ليس إلا عملا ينكره العرف والتقاليد بل العقل ، وكيف يفاجىء بهدية كهذه فتاة لا يزال ينقصه أن يعرف ما تنطوى عليه له ؟ وكيف يتخطى أهلها ويقصد إليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته فى (ليون) ينسى بلاده وعاداتها والأصول المرعية فيها ؟ وتناول العلبة وفتحها آسفا وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجرى بباله خاطر آخر كان تنغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتهينا من القبول حتى نفكر فى الذوق الذى حدا إلى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد ، وفى الظل وفى ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشترى — فضلا عن حماقة العمل فى ذاته .

والآن ماذا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدهما ، وود لو يسرقهما منه لص ، وأخيراً استوقف مركبة وثب إليهـا وقد خطر

له حل جميل . واشترى قرطين آخرين ، وخرج بالزوجين وقال أهدى كل فتاة واحداً ، فلا يبقى هناك اعتراض ، ويكون عمل هذا إشارة صريحة إلى أنى أفكر فى مصاهرة الأسرة . . ولكن رأسه تدلى وقلبه هبط لما تنبه إلى أن أول ما سيخطر لأى امرىء هو أن سميحة هى طلبته .

مسكينة سميحة . . لو عرف إبراهيم هذا لأدركه العطف عليها . .

الفصل التاسع

« ابعدوا عني ياجميع فاعلي الاثم »

كانت شوشو راقدة فى غرفتها وعيناها مفتوحتان ، تديرهما فلا ترى أثراً لإبراهيم ، لا صورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة ، جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلف إلا مثل ما تخلف من التحطيم — وأين هو الآن . فى الأقصر ! يدفن الحب الذى خيبته نجية — « نجية أختها ويحبها — فكيف لو كانت امرأة أبى وضرة أمى » يدفنه بين أطلال طيبة وهو متكبر وعر الطبع فأما أن يختنق هذا الحب ويدفنه وأما أن يقضى نحبه معه ، لا شك فى ذلك . ولن يرجع من طيبة ، إذا رجع إلا بقلب سليم ما فى هذا أيضاً شك . كرامته عنده فوق كل شىء وهى أحق بالمراعاة من كل عاطفة . ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفره « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » متمثلا بالتوراة .

وطفر الدمع من عينى شوشو وهى تتصور عناد إبراهيم وصلابته ومرارة نفسه وانتساخ كل أمل فى لينه أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على إبراهيم . إذ كيف يقسو عليها هذه القسوة ؟ ماذا صنعت هى حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس فى أذنها الأنصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس المحقق أنه إذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه ينزف ؟ » .

فقالت « نعم . نعم . » ودفنت وجهها فى الوسادة وتركت دموعها تنهمر .

وأفاقت . . مريضة . كل أعضائها يخذل بعضها بعضاً . وماذا يكون المرض إن لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطاً وروحها مسحوقة وأملها ضائع والعزاء لا سبيل إليه . نعم هو يحبها . وهل

يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذى فى عينه ، والنبرة التى فى صوته ، ووفاؤه لها . إن فى وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه : ولكن ما جدوى وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ماخير أن يظل يحبها وقد ائتمرت بها أختاها — كلتاهما — ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : ان بها حاجة إلى قليل مد الراحة ! آه لو علم ! إن حاجتها إلى ماهو أكثر من الراحة ، ولو رآها وهى تبكى وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبها يتمزق لأدرك أن الراحة لاتغنى !

ولم يكن يمسكها فى هذا اليأس الأسود الذى يحيط بها والنقمة الماحقة التى تشعر بها لأختيها ، إلا يقينها بأنها محبوبة ، والا ذلك المقدار من السعادة الذى ينتجه هذا اليقين . بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزخر وصدرها تعيث فيه عواصف الألم . ومن الذى يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما حدث ؟ قد تكون الأقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاماً جديدة فى حياتها ولكن الأقدار نفسها لا قدرة لها على حرمانها الشعور بأن ابراهيم يحبها — كلا ولا اليقين بانه لن يحول أو يتغير . فقد فطنت شوشو بسرعة إلى عنصر الثبات الهادىء الرزين فى أخلاق ابراهيم ، وحتى لو تغير ابراهيم أو حال عن عهدها فإن ذلك لايغير الحقيقة الراهنة ولا يمحو السعادة الحاضرة ولا يحرمها كنزها الذى تضن به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهى فى هذه الحالة النفسية التى يختلط فيها الجذل والألم « أكنت أستطيع أن أحس هذا السرور الخفى الدقيق بمثل هذه القوة لولم أتعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح والزائف ؟ لولم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لاتوهم أختها نجية أن بينها وبين ابراهيم حباً ؟ أكنت أعتز بحب ابراهيم كما أفعل الآن ؟ أكنت أعتد بحبه لى — لى أنا وحدى دونها — عزاء وذخرا لى ، وكنزاً أطويه فى أعمق أعماق قلبى وطلسما أدفع به الشقاء ، ورقية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلى القلب لحظة وتنسيه أن كل رقية عبث وكل سلوى محال ؟ »

ودخلت عليها أختها سميحة وهي على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت !

ـ وماشاء الله . ماشاء الله . طبعاً ياستى . معذورة . ربنا يكون فى عونك» .

فاحست شوشو بالرغبة فى خنق أختها ، أو على الأقل فى جلدها بالسياط . أليست مجرمة ؟ ألم تقض على نفسين ؟ ألم توكل بهما الشقاء طول العمر ؟ ألم تقمع حياتهما فى شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت وقد زهاها أنها هى المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم تكسب ، ورمتها بنظرة احتقار مرة ونهضت متثاقلة إلى المرآة فاصلحت شعرها فى صقالتها ثم التفتت إليها وقالت :

ـ أنا المعذورة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لاتلعبي دور الأم . لست أكبر منى إلا بعام ، فلست أقبل منك أن تمدى نفسك مربية لى . أكبر منى ؟ ليتك كنت الصغرى ؟ أعنى ليتك أنت مكانى ، أنت المطلوبة بدلا منى ، ولكن بختك هكذا وأحب أن تكونى واثقة أنى لاأعبأ بك ولاأحترمك ، اعلمى هذا لتريحى نفسك وإلا فساكون مضطرة أن أسيء أدبى عليك أمام الناس ، إن مايعنيني يعنيني وحدى ».

ورضيت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنغص على أختها انتصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن هذا تأثير ابراهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلا شك روحه التى أوحت إليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا التمرد لأنها ألفت الطاعة والانصياع والأدب ، فاذهلها ماسمعت وصدمها وآلمتها الوخزة ، وكان فيها جبن ـ والجبن والمكر صاحبان ـ فاشفقت أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها إذا لم تراجع ، وأيقنت أن العصفور لم يعد فى القفص ، فاقبلت على شوشو تمسح لها شعرها وتلاطفها وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها بما قالت وأنها لاتحب لها أن تذبل زهرة حسنها بالبكاء .

ولكن شوشو لم تلن ولم تخدع بل زادها تحول سميحة إلى الملاطفة شعوراً بأنها وفقت إلى ما يجب عليها فنحت يدها عنها وقالت : وكفى نفاقاً . لاتحاولى أن تخدعيني . ألست أقول لك بصراحة أنى لاأحترمك ؟ فاذا تبغين منى ؟ ان ملاطفتك أبغض وأثقل من سلاطة لسانك فاذهبى عنى من فضلك وإلا فانا غير مسئولة » .

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت :

— كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود سجاه وسيبقى الليلة هنا . وقد يسأل عنك فاذا نقول ؟ ان الأوفق أن تنزلى فما يليق أن يطلع على شيء .

فضحكت شوشو وقالت :

— الدكتور محمود سجاه . يالها من فرصة ، أعنى لك طبعاً »

فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقيا لا تكلف فيه وثارت بشوشو تعنفها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة :

ولكن شوشو كانت تجد لذة فى إيلام سميحة فسرها غضبها وعلمت أن الوخزة شكت قلبها وقالت :

— مهلا . مهلا . أليس الدكتور كإبراهيم .. أعنى رجلا ؟ كل ماأخشاه هو أن أخرج للدكتور فيقع فى حبائلى وأقتنصه كما قنصت إبراهيم فتضيع عليك فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنئتى بالفرصة الجديدة وأعدك أن لاأرى الدكتور وجهى »

فلم تطق سميحة هذه المكايدة وخرجت .

وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .

الفصل العاشر

« ثم سمعت صوت السيد قائلا : اذهب »

« آسفة ! »

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لأنها ... ماذا قالت ؟ ؟ أوه لا أدرى ! لم يعد لى عقل أدرى به شيئاً .. آه لاتريد أن ترى أحدا .. هذا « الأحد » هو أنا ، لا سبب غير ذلك لاتريد والسلام . مامعنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرنى أنها متعبة فأظهر قلقى وأعرب عن استعدادى لعيادتها فتبعث إليها بسميحة تبلغها أنى سأعودها : : سأعودها .. هية ، ليست زيارة ولكنها عيادة .. عيادة طبيب لمريض ، شيء عادى جدا ، ولكنها ترفض رؤيتى ، تأبى أن ترانى ، لاتريد أن ترى أحدا ... وأنا هنا واقف كالبغل ، مامعنى هذا ؟ ها ها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ماحدث ، وله العذر ، وكلما أطال التفكير فى الأمر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ماحدث له من هذا القبيل باعتباره طبيبا ، وأول ما جرب الصدمات لرغباته فى الحياة فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهابا ويحاول أن يضبط عواطفه ويقبض على الزمام الذى تفلت من يديه ويحدث نفسه بأن لهذا السلوك سرا لعله غير راجع إليه ، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، ربما كانت الصدمة التى تلقاها ليس معنيا بها على وجه التخصيص ، وإنما هى صدمة كان أى إنسان عرضة لها بدلا منه ، لو اتفق أى إنسان آخر كان بدلا منه . ولكن الذى لايفهمه هو أن كل من فى البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو أن يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبعبارة أخرى مريضة ، فهل هذا معقول ؟

كيف يتلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض ، أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟ ؟ ليست هذه عادة الأسرة ، فان الطبيب أول مايفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة ، لأتفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب إلى القرية ، ولو كانت المصابة به فاطمة الزنجية ! ولهم هنا فى الإسكندرية طبيب لايعودهم سواه ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لابعد كل زيارة فما معنى هذا ؟ ما الباعث لشوشو على الاباء ولأختيها على السكوت ؟

ووقف أمام البيانو ينظر إلى الصورة واللعب المرصوصة فوقه ، وأخرج سيجارة وقدح عودا من الكبريت ورفعه ليشعل به السيجارة ولكن خاطرا جال فى ذهنه فنحى السيجارة عن فمه قبل أن تشعل وسأل نفسه : « ولكن هل هى مريضة ؟ ان شكى عظيم ! كلا ! لايمكن أن تكون متوعكة وتأبى أن يراها طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الأسرة كلها يحملنى على الاعتقاد بان المرض دعوى » . وهز رأسه كأنما أوشك أن يهتدى إلى السر ويقع على حل للغز ، وأشعل السيجارة وزم شفتيه وأرسل الدخان خيطا طويلا إلى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح إلى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لأنه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه أن يعودها ، وتقول له : « أوه يابنى والنبى كتر خيرك ، أحسن البنت مش عارفه جرالها إيه : لوتشوفها ماتعرفهاش . مابقلهاش شكل . روحى ياسميحة ياختى قولى لها الدكتور جاى يشوفها . إياك على الله يابنى امال ، لحسن موريانا الصديد » فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام أختها ، وتلك لهجتها ؟

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال :

— يادكتور ابن عمى هنا ؟

فالتفت إليها وقال : « لا . اسمعى . »

فدخلت وحار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتقى أن يثير شكوكها بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال :

— كيف أختك الآن أرجو أن تكون حقيقة فى غنى عن الطبيب

فقالت وهزت كتفها :

— أختى وو ..

فلم يفهم هذه اللغة ، لغة الأكتاف المهزوزة ، والشفاه الممطوطة ، ولم يدر أيطمئن لما يتبينه فى لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تنم عليه حركتها من الامتعاض والضيق .

فقالت سميحة « لا » ممطوطة جدا — « إنك لا تعرف شوشو يادكتور هى هكذا دائما . دعك منها فلا أمل فى صلاحها » :

فقال : « إنى آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن أنها أعقل .. »

فقاطعته : « أعقل ؟ ها ها ! ليس فى رأسها رائحة العقل . هل يغرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولكن الكلام عيب ، أرجو أن تدع سيرتها ، فإنها تؤلمنى ، أنى أتحسر كلما رأيتها كل يوم . ولكن ماذا نقول ؟ ربنا هو الهادى ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول ردا على كلامها وتنقصها لشوشو وآلمه أن يسمع هذه الزراية ، ولكن كيف يدخل بين الأختين ؟ وسميحة هى الكبرى ، فأسفها معقول . إذا صح أن شوشو كما تصف ؟ كيف يمكن ؟ إنها تبالغ ولا شك ..

وكأنما أدركت سميحة أن الشك يخالج الدكتور فقالت :

— أنت معذور إذا لم تصدق ، لأنك لاترى شيئا . ولو كنت غريبا عنا لما كاشفتك بما فى نفسى من الأسف والألم ، وقد ضاق صدرى ولم أعد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختى نجيه وهى كأمى أعيتها الحيل ، بالطبع ليس هناك شىء معيب ، هذا بديهى ولكن تصور أنها مثلا لاتعرف شيئا عن شئون البيت وتدبيره ولوازمه ، يكون معها الشىء

فتلقيه حينما اتفق وتكون غرفتها «كسوق الكانتو» والخادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها ، ولو ظلت شهرا على هذا الحال ، وتعطيها مبلغا فإذا سألتها عنه كيف أنفق اكتفت بأن تقول لك «فى البيت» حتى كتبها التى تحبس نفسها فى غرفتها أياما لتقرأها أنا التى أرتبها وأنظفها وأنفض التراب عنها ولا تستطيع أن تشترى لنفسها منديلا أو تفصل ثوبا .. وهذا كل ما استفادته من المدرسة ! الكتب ليس إلا ، وماذا أقول ؟ أقول تتفكر تتحسر ؟

وتنهدت .

ووقف هو كالأبله .

وظهر الشيخ على فى الباب فسد فضاءه .

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر .

وقال الشيخ على وهو يدنو من الدكتور ، أو على الأصح صاح به :

— فى الحديقه يكون منظرك أحسن . ليس هنا مكان التماثيل ، الغرفة أضيق من أن تتسع لتمثال كبير إلا فى الحديقة . تعال نختبر المواقع ونتنق أوفقها ، أوه ماهذا ؟ .

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة .

وقال الشيخ على : «أتفاح هذا ؟ لماذا تحمله فى جيوبك ؟ لا ليس هذا تفاحا . أهو فحم كوك ؟ » .

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل فى جيبه فحم «كوك» .

فابتسم الدكتور وقال «فحم ؟ لا لا» ولكنه لم يمدد يده إلى جيبه ولم يخرج مافيه ، وكيف يخرج علبتى الحلقان ويريهما للشيخ على ؟ ومع ذلك لماذا لا يفعل ؟ هل كان ينوى أن يقدمها سرا ؟ كلا ولكنه لم يكن يفترض أن يكون الشيخ على حاضرا ساعة الاهداء ، ولا بأس بان يعرف الحكاية بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع إلى المركز .

واستحيا أن يخفى الأمر عن الشيخ على ، وخطر له أن هذه قد تكون

فرصة أتيحت للتخلص من الحلقان التي أنسيها لما صدمته شوشو برفض عيادته ، فأخرج العلبتين ، ومد بهما يده للشيخ على ففتحهما هذا وقال :

— حلقان ؟ ها ها ! تكاثرت الظباء على خراش ! ! بل على العكس ، تكاثر على الظابية الخراشون .

فلم يفهم الدكتور ، وخيل إليه أن قريبه يهذى ، خراش وظباء ماذا يعنى ؟ ورفع إلى الشيخ وجها كله علامة استفهام .

فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيده الكبيرة : لم يخطىء ظنى ياصاحبى ! وساصف لك دواء هو خير من كل طبك الذى لا ينفع أحدا ، طبك الذى يخونك الآن ، طبك الذى ترفضه شوشو . آه . . لقد فضحك وجهك . . فاسمع : دواؤك أن تخرج إلى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقان ، فتلقيهما فيه وتلقى نفسك وراءهما هذا هو دواؤك . فلا أمل لك فى شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقه فاذهب إلى البحر . تعال معى فقد تحتاج إلى معونتى » .

القسم الثالث

لأنى دعوت فأبيتم ، ومددت يدى وليس
من يبالى ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم

الفصل الأول

كيف أصفح لك عن هذه

لو رأى القارىء إبراهيم فى الأقصر بعد الذى سردناه لك فى الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أو على الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله فى الهياكل والمقابر ، والهزيع الثانى من الليل مكباً على الكتب . أو مدوناً ملاحظاته وآرائه فيما شهد فى يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيرة من الكتب التى وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الأجانب التابعون للحكومة المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الأطلال ويذهب يفكر — لا فيما يحيط به من المعاهد الدارسة ، بل فى هذه الصحراء العارية التى تكتنف كل شىء ، والتى عظم وقعها فى نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه فى حله وترحاله وفرشها وبسطها حوله فى حيثما يكون من الأرض — نعم ليت هذا فى وسعها ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها وأن يلفها مع ثيابه وأشيائه فى حقائبه ، حتى إذا نزل مكاناً واستوحشت نفسه أنس بأن يخرجها وينشرها أمامه ويتأملها ويذكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه — فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكرا تغلوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها ، فظاهرها مجدب ووجهها أجرد ، ولا علم لأحد بما فى جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض ، وكذلك هو : أخطأه الحظ فى ناحية ، فأجدب ظاهره وبقى باطنه زاخراً بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب ابراهيم نشوء هذه « العاطفة » فى نفسة للصحراء ، فقد قرأ — أين يا ترى ؟ ما أنحون ذاكرته فى هذه الأيام — أن بعضهم

كان يقرأ وصفاً للصحراء الكبرى فأدهشه أن يحس أن أنفه قد غطته البقع فأمسك عن القراءة مخافة أن تخرج على بدنه الحصف من لفح ما يصف الكاتب .

وهز رأسه وتساءل وهو يدير عينه فى الفضاء والخراب حوله .

— ماهى هذه المدينة ؟ أهى شرط مرتبط « بالإنسانية والمروءة » ؟ بانقطاع العذاب أو التعذيب ؟ كلا فقد كانت أشور على حظ عظيم من المدنية وكان أهلها مع ذلك يسلخون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا يقعدونهم على الخوازيق وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون كما يموتون فى حومة القتال ! ! وروما أيضاً كانت مركزاً للحضارة فى أيامها ، ومع ذلك كان أبناؤها يلتذون برؤية مناظر الفتك — فتك الحيوان بالإنسان والإنسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما . ومصر التى تبهرنى آثار مدنيتها ماذا تقول نقوشها على جدران هياكلها ؟ ماذا يقول الهرم وحده ؟ ؟ فى كم سنة بنى وكم روحا زهقت فى سبيل حجارته ؟ .

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد فى ظل الديمقراطية ؟ ولا هذا أيضاً فإن أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما تستخدمان الجموع المدربة والجماهير المنظمة فى جيوشهما وفى الحادثات الحرف فيهما وبذلك يتيسر تحقيق مآرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ، ويبلغون غايتهم كما يفعل زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » ، وبفضل الكثرة المدربة على الطاعة . والرأى العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق فى ظل الديمقراطية ؟ .

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة ؟ حتى ولا هذا فإن الفساد والرشوة فاشيان فى أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على استفاضتهما .

« ماذا إذن ؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية ؟ » .

هنا ابتسم وقال لنفسه « إن جو المدنية أصلح ما يكون للرذائل الجنسية » وتلفتت عينه إلى ناحية الفندق الذى ينزل فيه .

ومل هذا السرد والنفى . ونهض وهو يقول « إلى أن يجيء ذلك اليوم الذى يدرك فيه الناس — كل أحد — أن الرقى العقلى وحده ، أن الكولتور الذى صدع رءوسنا به الألمان — إن المدنية التى تلهج بها ليست هى الآخر بل الأول ، ولا النهاية بل الابتداء ولا الغاية بل الوسيلة ، ولا الحصاد بل التربة — إلى أن يجيء هذا اليوم فلن يكون رقى الإنسان مستحقا للذكر إن روح الإنسان هو المهم » .

وانحدر إلى مقبرة أمنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر ، ودخل القاعة ذات العمودين ونزل سلالم أخرى إلى قاعة ذات ستة أعمدة ، وجدرانها مغطاة بالنقوش والمناظر المنقولة عن «كتاب ما فى الآخرة» ، ومضى إلى آخرها وأطل على تابوت الملك وأشار إلى الحارس فأطفأ الأنوار الكهربائية ولم يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقد وكأنه نائم ، وقال لنفسه وهو يتأمله .

— إن هذه الأعضاء النحيفة المحروقة كانت فى حياة صاحبها مكسوة باللحم قوية العضل ، وكان هذا ملكا قوى الجسم وكان ينزع قوسا لا يقدر أحد من حاشيته أو جنوده أن ينزعها . وكان حاكما قويا شديد البطش عظيم البأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العديدة والشعوب المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبله فى دائرة ملكه ، وكان قاسيا على خلاف أبيه حتى لقيل عنه أنه ذبح بيده عدداً من الأمراء الذين ثاروا عليه وربط واحداً من رجليه وعلقه مقلوبا يتدلى من السفينة — رأسه إلى الماء ورجلاه إلى السماء — هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرنا ومع ذلك يحس المرء وهو ينظر إلى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور — ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة

فوقها ليست شيئا — يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كان هذا الزمن لاشيء على الحقيقة ؟ هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الابد ، وهم ليس إلا ؟ عجيب . . عجيب ! » .

وانثنى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الأصحاب : مومياء عجوز لايزال شعرها الذي أشابته الأيام يلمع كالفضة ، ومومياء فتى لايتجاوز الرابعة عشرة على صدغه خصلة من الشعر . . »

ونحى إبراهيم عينه وهو يقول : آخر كل شيء هذا . . آخر الحزن والسرور . . آخر السعادة والشقاء ... آخر المجد والعزة والذلة والخمول ، آخر الشهرة وآخر الخفاء . . باطل الأباطيل الكل باطل . . صدق ابن داود . . صدق سليمان . . » .

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

— ٢ —

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع حنينه إليها ، لكن بضعة أيام بين هذه الأطلال والمقابر والمومياءات والصحراء قللت من حدة غضبه على أختها نجية وإن لم تنقض عزمه المبرم ومكنته من أن يتدبر ماحدث وهو ساكن . فاستطاع أن يقنع نفسه بأن ردها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء أن يكون له محل . وماذا قالت له ؟ أنها لم تزد على أن قالت أن ابراهيم كشقيقها وليس أبعث على سرورها من أن يكون زوج أختها ، ولكن شوشو هي الصغرى ؛ هناك سميحة وهي أكبر منها ؛ فإذا تزوج شوشو فقد قطع الطريق على سميحة ، وخليق بألسنة السوء أن تذهب تختلق أسبابا شائنة لتخطي سميحة . فهل يرضى هو هذا ؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى.

لشوشو على سميحة ، فإذا شاء أن يتزوج سميحة ، فهي له بلا مهر ولا قيد ولا شرط .

هذا كل ما حدث ، وهو عين ما كان يتوقع ، وصحيح أنه بلغه أن نجية حلفت أن لا تعطيه شوشو ولو ملأ حجرها ذهباً ، ولكن لماذا قالت ذلك ؟ ما الذى أنطقها بهذه الكلمة الجارحة ؟ إنه الشيخ على ! نعم هو . فقد أراد أن يحملها على القبول والتساهل ، وكان عنيفا كعادته ، وهاجها بسخره ؛ فغضبت وقالت ما قالت ، ولا يزال صحيحا أن عدواً عاقلا خير من صديق جاهل .

وابتسم . . الشيخ على صديق جاهل ؟ كلا ! إنه الإخلاص مجسداً ، والذكاء مصوراً ، ولكن ذكاءه خانه هذه المرة ، فندت الكلمة الجارحة عن صدر نجية لكل ما تنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناطه . ومن يرد الكلمة بعد أن تخرج ؟ من يعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟ .

هذه هي المسألة ، فلا سبيل إلى إعادة الكرة . نعم لم يذهب الأمل ، ولكنه هو لايستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالبا أو خاطبا . كلا . هذا محال ومحال مثله أن يرى شوشو . . . وكيف يراها وأين ؟ وإذا لم تفيء نجية إلى الرضى ولم تتقدم من تلقاء نفسها إلى إبراهيم ، فكل رجاء عبث ؛ ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان ؛ واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلى فى عروقه وهو يفكر فى كلمة نجية ، كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ لو ملأ لها حجرها ذهبا ؟ نجية تقول هذا . . . وهي مع ذلك مستعدة أن تزوجه سميحة بلا مهر ! ! ها ! وأدار وجهه . كأنما أراد ليتقى أن يراها ، وتصلب وجهه وثبت حملاق عينه

وصرت أسنانه وهو يقبضها من الغيظ وصار منظره مفزعاً ، وكانت فتاة مصرية تمر به وهو لايراها ، فوقفت وارتفعت يدها البضة إلى قلبها ، ثم رجعت من حيث جاءت ، وولت هاربة .

وزايلته النوبة ، وعاوده السكون ورجع يسأل نفسه : كيف ؟ كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لا تلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه .

غير أن الاضطراب لم يطل ، لأنه كان أصح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط ، فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها : ما سؤالى هذا عن الكيف ؟ إنه لا محل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح ، فالفراق موجود ، أما العذاب فهل لم أحتمله الى الآن ؟ لا أدرى كيف ، ولكن الذى أدريه أنى احتملته والسلام ، ولست أرى أنى خرت أو وهنت فيجب أن أضع حداً لتخليط النفس . نعم لا يجوز أن أسمح لها بأن تحيلني امرأة لاتعرف إلا البكاء » .

وشوشو ! مسكينة مسكينة ! حزنها دفين فى صدرها . وليس لها ما يعينها على التسلى ، بل كل شيء يؤجج النار التى فى قلبها ، ولا صديق بجانبها أو صديقة ، كل ما حولها عدو لهـا ، ما خلا الشيخ على وهو لايسعه كثير ، ولو كان فى مقدوره شيء لمـا حدث ما حدث ، فخطبها أدهى ، ومصيبتهـا أعظم ، ألا أبرق للشيخ على أوصيه بهـا خيراً ؟ يحسن ولا يحسن ، ولو أمكن أن ترسل البرقية إلى غير بيته . . ولكن هذا غير ميسور ، وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعا بأمره ويسألونه عنه ، وربما كان الآن فى القرية فيفتحونه ويطلعوا عليه فيقع المحظور . كلا . ومع ذلك ما الحاجة

إلى إيصاء الشيخ علي ؟ ثم إني . . نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . كل القطع . . وفي خلال ذلك ماذا ؟

لا أعلم سوى أن قول القائل :

إن من ساءه الزمان بشيء لحقيق إذن بأن يتسلى

يدور بنفسي . صدق . ولكن ذهني لايسعفني باقتراح . فلندع الأمر للمصادفة ، وبحسبي الآن كأس من الويسكي .

وصفق .

الفصل الثانى

« كل طرق الانسان نقية فى عينى نفسه »

— ١ —

كان الشيخ على لا يزال راقدا فى سريره وإن كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ، وكان سريره يسد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة وأختها الكبرى نجية فيها ، وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقعاً أسود تسدله على وجهها حين تريد أن تخرج متنكرة ، لأنه كثيف يغطى الوجه كله ما عدا العينين :

— أعوذ بالله من البيت يا أختى ! لم أر فى حياتى أقذر منه ولا أضيق : غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالحصير والهواء ينفذ منها . والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الحصير ، وفى أصابعها خواتم من الفضة ، وفى أذنيها قرطان كبيران من الفضة أيضاً ، وعلى ساقيها خلخالان من الفضة كذلك . لا شىء من الذهب أبدا . كل ما تتحلى به من فضة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ولكنها لم تنزل إلا بعد أن ازدحم البيت — الغرفة والسلم — بالنساء . وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضاً من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها إلى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعن لى رأسى . ومع أنى كنت لابسة هذا الإزار الخلق الذى استعرته من فاطمة ، فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة .

فقاطعتها نجية قائلة :

— وماذا قالت لك ؟

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فألقته على الكنبة وهمت

قليلا لتسحب الإزار من تحتها ثم جمعته وكومته وقذفت به وراء البرقع وتنهدت ثم قالت :

— قالت ؟ لقد قالت لى كل شيء ! روت لى الماضى كله وكشفت لى عن المستقبل أيضاً . كيف عرفت يا أختى ؟ إن هذا لغريب والله ! لكأنى كنت فى حلم حتى ما كنت نسيته أذكرتنى به . لقد ذهبت إطاعة لك فقط ، ولم أكن أعتقد أنها ستعرف شيئاً ، أو أنها ستنبئنى بماض أو حاضر ، وكنت أقول لنفسى فى الطريق : ومن أين لها العلم بشيء ؟ إن هذا كله دجل ولكنى لم أكد أجلس إليها وأناولها المنديل حتى قلبته فى كفيها وقالت : « هيء ! لا تصدق ! إيش عرفها دى رخرة ؟ معلهش ! ممكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ! أهو حانشوف بعينا ونسمع بودننا » وأقول لك الحق يا أختى لقد دهشت وخجلت من إنكارى قدرتها على الإنباء بالغيب ، وضحكت مستغربة لأنها كانت تتكلم وهى مطرقة وكأنها تقرأ فى كتاب .

فقالت نجية :

— ألم أقل لك ! ليس مثلها ، كل من رآها يروى عنها الغرائب ، ولكن ماذا قالت لك !

— « قالت لى ! وهل تركت لى شيئاً لم تقله ! حدثتنى عن شوشو وعن إبراهيم ابن خالتى وعن الدكتور محمود . ليس بالإسم طبعاً ولكن بالوصف . أيوه قالت لى « آل ! طيب ماعلهش ! بكره نعقل ونرجع نقول ياريت اللى جرى ما كان ! لكن نقول إيه ونعيد إيه ؟ هو الضفر يطلع من اللحم ؟ هيء لكن ده مش ممكن . ولا لما تشوف لبن العصفور . وازاى ده يجى ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين ، واهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام » .

نجية مقاطعة . « شوفى يا أختى ناصحة صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ » .

فقالت سميحة : و آه ! قالت لي في الآخر هاتي حاجة أقرا لك عليها ثم خديها واعطيها له ليأكلها فيفك العمل بإذن الله . فقلت لها إنه مسافر وبعيد جداً ، فقالت إنها تعرف ذلك ، فهاتي الحاجة أولا وبعد ذلك تكون إرادة الله .

فوضعت نجية كفها على خدها واتكأت بكوعها على ركبتها وقالت :

— ولكن أي حاجة ؟ ألم تفكري في شيء يصلح ؟

ووقفت سميحة وهي تقول بصوت أعلى قليلا :

— لقد فكرت في كل شيء ، وهل يربكني شيء ؟

ثم مالت فوق أختها وقالت :

« فكرت أن أشترى شركولاتة — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية . أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله في البوستة إذا كان لا يزال باقيا في الأقصر . فما قولك ؟ » .

فمدت نجية يدها حتى لمست رأس أختها ومسحته وقالت بلهجة الإعجاب :

« يحرسك ربي من العين . يحرسك ربي من العين »

وتلفتت يمينا وشمالا .

— ٢ —

قال الشيخ علي لما سمع هذا :

« همهم ! شكولاتة مسحورة ! نجيب فيها إبراهيم ! » .

واستوى قاعدا على السرير . وكان الشيخ علي — على الرغم من نشأته الأزهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم — لا يؤمن بشيء من ذلك ولا يطيق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن زوجته أغرت أختها بالخروج خلسة في البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه

أن زوجته تتخفله وتدور من وراء خديعته وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجديها وأنها ستحمل إبراهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهي إذن لم تعبأ برأيه ولم تكترث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين إبراهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها إن إبراهيم لا يطيق سميحة وأنه إنما يحب شوشو ، ثم هي لا يكفيها أنها حالت بين شوشو وإبراهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن أطلقت لسانها بما أطار إبراهيم إلى الأقصر وهو موغر الصدر مهيض الكرامة ، وأن جعلت إبراهيم حقيقا أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا إرادة ولا سلطان له في بيته ، لا يكفيها كل هذا ، بل يجب أيضاً أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجر أختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتغريها بهذه المساخر التي لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر في هذا ، ويتأمل ما صار إليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهية والنفور ، وانثنى خاطره إلى شوشو المسكينة التي لا صديق لها ولا معين سواه في هذا البيت ، والتي لا تبارح غرفتها مادام هو بعيداً عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها وتهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه ولينه ومرونته .

وحنق .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يحب أن يراها وإذا جاءته إليه صرفها من غير أن يرفع وجهه إليها وأمرها أن تدعو الخادمة .

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق :

« شوشو » .

فخرجت في طلبها .

ودخلت « زوزو » إبنته وقالت :

— بابا .

— نعم .

ورفعها إليه وأجلسها على رجليه — فوق اللحاف . وقبلها .

— متى نذهب إلى أبي قير ؟

— اليوم .

— صحيح ؟

وصفقت بيديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتها وطوقته وأوسعته تقبيلا فى عينيه وأنفه وخديه وأذنيه .

ونقرت شوشو على الباب ثم دخلت متثاقلة متحاملة تجر رجليها ، وعلى شفتيها ابتسامة ليست فى عينيها فمد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى عمناه وأهوت عليها تلثمها ، فانتزعها وهو يتكلف الابتسام :

— بل هنا . أسرعى فإن بجلدة وجهى تأكلنى .

فابتسمت له وقد شعرت بشىء من التسرية فى حضرته ، وطبعت على خده قبلة بنوية صامتة ، ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ولثمتها كأنها تفيض عليها من ذلك الحب الدفين فى صدرها المحبوس بين ضلوعها ، واغرورقت عينا الشيخ على وهو يراهما وقد تعلقت كل منهما بالأخرى ، ثم رفع وجهه إلى السقف وقال متمتما : « الله يجازيك يا نجية ! » .

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال :

— شوشو.

فلفتت إليه وجهها الساكن الحزين وقالت :

« نعم » ولم تزد .

فقال وهو يرد عنا زوزو :

ـ زوزو تقترح أن نذهب إلى أبي قير ونقضي بقية النهار هناك ، وقد وعدتها فما قولك ؟

فقالت : « أمرك » .

فقال وهو يميل نحوها ويكاد السرير يميل معه :

ـ أنت معنا ؟ قولي نعم .

ولكنها لم تقل نعم ، وإنما قالت كالمستغربة .

ـ أنا ؟ حاضر .

فأحس الشيخ علي كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لها ، على أنه ملك نفسه وقال :

ـ لا أراك يسرك هذا .

فقالت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن في الدنيا ما يسر .

ـ يسرني ؟ أوه . لماذا لا يسرني ؟

فلجأ الشيخ علي إلى المزاح ليرفه عن نفسه وعن شوشو أيضاً وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ في التقليد

ـ لأنك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا .

فابتسمت شوشو ـ بشفتيها فقط ، فقد خبا الضياء الذي كان في عينيها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت :

ـ ماذا كان ينبغي أن أقول إذن ؟

فمضى الشيخ علي في مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال :

ـ لا تقولي شيئاً . كان ينبغي أن تقبلي علي وتطوقيني بذراعيك وتقبليني هنا وهنا . هيه ؟

فضحكت ، ورنت ضحكتها فضية النبرات ، ولكنها كانت ضحكة

قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولكن الباعث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيها ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هذه « الدبة » ، وجال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه ، فارتج السرير وفزعت زوزو فى أول الأمر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهي تضحك مسرورة جذلة .

الفصل الثالث

« من هذه الطالعة من البرية ؟ »

— ١ —

مضى أسبوع على إبراهيم وهو فى الأقصر — وحده — لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد سوى موظفى الفندق الذين أفضى إليهم — كما هى العادة — باسمه ومهنته وما إلى ذلك ، حتى طعامه كان يتناوله وحده فى أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن ينفرد بها على الرغم من ازدحام الفندق بالأجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك ، وقد لفت الأنظار إليه إيثاره العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل مايجرى حوله كأنه لايرى ولا يسمع ، وإكبابه على القراءة والكتابة ، وعنايته بالآثار ، وقد التقى به كثير من النزلاء — رجالا ونساء — فى معبدى الأقصر والكرنك وفى وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشرود نظراته واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاغطوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الإنسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق فعلموا منه كل مدون فى سجله — وما أقل ذلك — وما كادوا يعرفون أنه أديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لإبراهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما فى هذا الفندق ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة .

واتفق أنه كان عائدا مرة من وادى الملكات ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع ، حانت منه التفاتة إليهما فإذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها فى ثياب أفرنجية وقد مدت رجليها وأسندت ظهرها إلى قاعدة التمثال وحدجت فى الأفق بنظرها ، فكبح البغل الذى يجر عربته —

وكانت من النوع الذى يسمونه « السنكارة » وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين — ووثب إلى الأرض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم إليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت ، مؤكدة له أنها لامتعبة ولا تائهة وأن له أن يطمئن وأن يثق فى أنها ستعود سالمة .

وكانت الفتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، وكان قدها نحيلا ولكن جسمها ناضج ، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها مايدل على العامية ، وكان لونها على سمرته رائقاً صافيا ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سياها ماينبىء أنها فكرت كثيرا وعرفت فوق مايعرف أترابها ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ، ولكنه محيا أجمل مافيه ماينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفمها ، فقد كانت العينان عسليتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العين واسعة ولكنه لم يكن فيها شىء من المكر ، وكانت إذا رفعتها فجأة بباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لايسع المرء إلا أن يقتنع بجمالها وفتنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين وجبينها واسعا عريضا يخيل للمرء أن لصاحبه ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل ملتوية يعبث بها النسيم . ولكن أغرب مافيها فمها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولكن الشفتين كانتا حادتين حاسمتين باردتين ، وكان لونهما سريا ولكنهما لاتفتران عفوا مع كل خاطر ، وإنما تتحركان بالإرادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صلابتهما على الرغم من لينهما ، شىء يجعل الفتاة تبدو أكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان العسليتان ، وخداها المستديران — هذه هى كل معارف الفتاة الصغيرة . أما جبينها وفمها فتلك معارف المرأة التى خلفت الشباب وراءها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الأقدار أن تمطر السماء فى ذلك المساء رذاذا ضعيفا بعد أن

ركب إبراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطىء الأقصر قبالة الفندق ، وقلما ينزل من المطر كثير أو قليل هناك ، فذكر إبراهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى التمثال ، فأسرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود إليها ليقلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها أو يفكر فيها بعد ذلك .

— ٢ —

دخل إبراهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخرا فى تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كعادته من غير أن يلتفت يمينا أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لو رآها لما حفلها ، وكان جائعا وألوان الطعام شهية والنبيذ حسنا ، فأقبل عليه بإتهمه بشره غير معهود فيه ، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل إليه القهوة فى حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى ابنه ، فتناول القلم فجرى بضعة سطور به ثم توقف ، ثم أمسك وأبى — أى القلم — أن يخط حرفا . فقرأ ما كتب وزاد نقطا هنا ووضع حرفا هناك . وأنه لكذلك وإذا بالخادم يضع أمامه صينية عليها ابريق فيه القهوة ، وإلى جانبها فنجانان ، وخرج الخادم وإبراهيم يفكر فى رسالته التى استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانين فصده هذا ، وخطر له أن الخادم ربما كان قد أخطأ وجاء بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سيرجع الآن بعد أن يفطن إلى خطئه » وراح ينتظر ، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خيلت إليه أطول مما هى ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « أنظر فى إبريقها فإن كان مافيه قليلا فهو لى وحدى وإن كان كثيرا فلا شك أن هناك خطأ » وتناول الإبريق ورفع الغطاء فإذا به ملآن .

ولما رفع وجهه عن الوعاء التقت عينه بعين الفتاة التى صادفها فى الطريق

وأرسل لها المركبة ، فارتد إلى الوراء ، وكاد الإبريق الصغير يسقط من يده ، لكنه استطاع بجهد أن ينهض والإبريق بين أصابعه وقال :

« لقد كنت أنظر فى الإبريق هل مافيه لواحد أو لاثنين » .

فنظرت إليه مستغربة ، ثم رأت الفنجانين وابتسمت وقالت :

ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا ، فاختصر المسألة على مايظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ » .

فقال إبراهيم : « لقد كنت أفحص الإبريق الآن . وكان ذلك أشبه بالمقامرة ، فإذا كانت القهوة لواحد أهملت الفنجانة الأخرى ، وإذا كانت لاثنين انتظرت » .

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالته فقال :

— بسكر ؟

فقالت : « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك » .

فقال مغالطا : « على الانتظار ؟ » .

قالت : « كلا . بل على . . . » .

فقال مقاطعا وقد أدرك مرادها :

— على أنى لم أشرب القهوة كلها ؟

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فرارا من الشكر وقالت :

— ألم تمر بى اليوم عائدا من وادى الملوك ؟

فقال : « نعم . برغمى ! »

ففتحت عينيها جدا وقالت : « برغمك ؟ » .

قال : « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التماثيل على الحشائش فى المطر ؟ أتسمحين لى أن أدخن » .

فأذنت له بابتسامة ، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر مذهبة ، وقالت بعد أن أشعل لها السيجارة :

-- ولماذا لا أجلس هناك . . في المطر ؟

فقال : « لا أدرى ، سوى أنى لا أعرف أن الناس يحبون التعرض للمطر ، على أنك لم تكونى تعرفين أنها ستمطر » .

فقالت : « هذا صحيح . ولكنى أحب المطر . ما أقل من يحبونه أو يذكرونه بالخير . والفلاحون . .

فقال : « إنه فى مصر دائما ، إما أكثر من اللازم وإما أقل من اللازم » .

فقالت : « إن المطر يعبد فى بعض البلاد » .

فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر إليها :

— إن ذلك يتوقف على المطر .

فقالت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الإنسان الروماتزم . أما أنا فأصارحك أنى أحب أن أنظر إليه منهمرا — ولكن من وراء زجاج النافذة » .

وكانا قد شربا القهوة — باردة — فنهضا وذهبا يتمشيان فى حديقة الفندق الواسعة والناس ينظرون إليهما فى دهشة ، كأنما استغربوا أن يروا إبراهيم ومعه إنسان ، والتفتت اليه فجاة وقالت :

— لقد كنت أفكر . .

فقال : « وأنا كذلك .. »

فمضت فى كلامها من غير أن تعبأ بمقاطعته :

— كنت أفكر فى أنك أقل الناس فضولا أو أكثرهم عدم مبالاة .

فقال : « أنا ؟ ربما ! أعنى أنى حقيقة لا أبالى سوى ما أنا فيه ، ولا يجاوز فضولى ما تأخذه عينى » .

فالتفتت إليه لتتبين فى وجهه هل يتكلم جاداً أو هو يريد أن يثنى

عليها ضمنا ، ولكن وجهه كان خاليا من كل أمارات المزاح فصمتت هنيهة ثم قالت :

— لقد كان ينبغى أن تسألنى عن السبب . ان المرأة حين تتهم الرجل بقلة الفضول أو قلة المبالاة يكون معنى هذا أنها تريد أن تخبره بشيء .

فقال : « أهذا صحيح ؟ » .

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل إليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما من الكلفة .

وقال : « إذن أرجو أن تخبرينى » .

فقالت : « إنك تتعب المحادث — لاتنتهز فرص الكلام التى يتيحها لك » .

وابتسمت ، فقال :

— ولماذا ترينى رجلا عاديا جداً ؟

قالت : « لم أقل ذلك ، إنما قلت إنك قليل الاكتراث ، قليل الفضول » .

فقال : « ولماذا ؟ أعنى أرجو أن تذكرى لى السبب » .

قالت : « ألم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجد : « ولكنك عابدة المطر . فماذا أريد أن أعرف فوق ذلك ؟ » .

فضحكت وهى تقول :

— لكن أبى لم يسمنى هذا الاسم !

فقال : « إن آباءنا لايعرفوننا كما نحن » .

فهزت رأسها موافقة فقال :

— إذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فما عليك إلا أن تخبرينى .

فقالت : « إذن أنت لاتعرف اسمى » .

فقال : « لا أعرف الاسم الذى اختاره لك أبوك » .

فقالت : « اسمى .. اسمى .. ليلى .. » .

فقال : « اسم جميل ولا شك .. ليلى .. نعم ، ولكنى أرجو أن تظلى عابدة المطر ؟ » .

فقالت : « لماذا ؟ » .

قال : « أخشى .. أخشى أن أصبح أنا المجنون » .

فضحكا . وعرفها بنفسه وهما راجعان إلى الفندق .

الفصل الرابع

« أن تكن سورا فنبني عليها برج فضة
وان تكن بابا فنحصرها بالواح ارز »

— ١ —

بدأ ابراهيم يلاحظ أن الناس — ونعنى النازلين فى الفندق يتبعونه بنظراتهم ؛ وان رءوسهم تتدانى حين يظهر فى مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن ان معرفته بليلى هى التى يرجع إليها اكتراثهم له والتفاتهم اليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وهنا تبين منها ان نزول هذه الفتاة فى الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها أكثر من ان اسمها ليلى وانها سارت على الأيام تصحبه فى روحاته وغدواته .

ومن العسير ان نقول ماذا كان احساس ابراهيم نحوها على الدقة فقد كان يجد فى محضرها روحا وايناسا ، ويحس ان الوحشة قد زايلته ، ولكنه لم يكن يشتاقها حين تغيب ، وكان ربما قضى النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى اذا التقى بها شاع فى نفسه السرور ولم يعن هو بأن يحلل عواطفه ، لأنه على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة الى ذلك ، ولم يحس بأن لهذه العواطف الحاحا او ضغطا ، وكل ما هنالك ان وقدة نفسه كانت تهدأ حين يراها ويحادثها وان الاضطراب الذى فى صدره كان يسكن ، وان ألسنة الهواتف كانت تنقطع ، وان النجاوى كانت تخفت ، وانه كان كالذى صهرته الشمس ورأى شجرة فنواء فمال اليها يستروح فى ظلها ..

وراق ابراهيم بعد ان فطن الى اهتمام الناس بليلى ان يلاحظ مظاهر

ذلك . وان كان قد ظل عاجزاً عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية وأكثر النزلاء أجانب على أن الأجانب كانوا محتشمين فى التفاتهم إليها . وكان الأمر لا يعدو التهامس والنظر — خلسة على الأكثر — أما المصريون فكانوا أجرأ، وكان أمرهم معها يشبه المطاردة وقد رأى ابراهيم أحدهم مرة يعترض طريقها ويخرج من جيبه منديلا فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات كأنها كانت فى هذا الجيب مصادفة ، أوكأنما صاحبها قد نسيها فيه، فسارت ليلى فى طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض ما فى البساط من النقوش ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفى مرة أخرى كانت ليلى تتكلم على التليفون فاندفع شاب إلى غرفته وفتح بابها ولما رأى ليلى شرع يعتذر اليها ، كأن ما وقع منه كان عفواً ، ولكن ليلى مضت فى حديثها على التليفون وكأن الباب لم يفتح وكأنما لاأحد فى مدخله يكلمها معتذراً متأسفا .

وكان هنالك آخر لا تجلس ليلى فى مكان إلا دار به ينظر حوله باحثا عن شيء كأنما من شواص ما يفقد أن يكون على مقربة من ليلى .

ورجل آخر فى سن الكهولة كان يخيل لإبراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع طربوشة ويضعه على الكرسى الذى تهم ليلى بالقعود عليه ، ليجرها إلى الاعتذار أو إلى الاصغاء اليه وهو يعتذر لها . وهكذا ..

وعنى ابراهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحككون بليلى ، فعد منهم تسعة عشر ، فأطلق عليهم رقمهم ، وسماهم التسعة عشر وكانوا جميعا تنقصهم شجاعة الإقدام على مخاطبتها ، أو لعل الأصح أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ، ولكن شيئا فى وجه ليلى وهيئتها كان يصدهم ويزجرهم ، فقد كان فى هيئتها احتجاز ، وعلى وجهها وقار مستغرب ممن هى فى مثل سنها ، وكان الناظر اليها لا يسعه إلا أن يحس ذلك .

ومن غريب ما حدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت فجأة بعد

أن نزلت ليلى فى الفندق وصاحبت ابراهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف ابراهيم مواطنيه جميعا وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبل فإذا دخل الصالون ، ألح عليه كل من يكون موجودا منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجائر عليه وتقديمها اليه والتبرع باشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا فى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الأسئلة عن ليلى ، فعلم أنه ليس محترما لذاته وأن مجده مستعار ، والضوء الذى عليه منعكس عن تلك المرآة .

وفى رابع يوم لاتصال ابراهيم بليلى ، كان عائدا قبيل الظهر من حديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان الى الحديقة بعد كلام متقطع :

— اسمحى لى أن أؤكد لك أنى لا أريد أن أثقل عليك بوجودى ، ولكنى أحب أن أسألك كم ساعة فى اليوم تستطيعين أن تتحملى ظلى ؟

وكان يبتسم ، وفى وجهه ما يدل على أن للسؤال غرضا آخر وأنه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهى حائرة عاجزة عن التكهن فقد ألفت منه اللف والمحاورة والمفاجأة .

— انى هنا كما تعلم وحدى .

فقال وهو ينكث الأرض بكعب حذائه أثناء السير .

—إن هذا لايكفى ، ثم أنه خبر لاجديد فيه فهل لك أن تجيبى ؟

فقالت بلهجة رقيقة .

— ألا تختصر الطريق وتفضى الىّ بالغرض من السؤال ؟

قال : « حسنا . سأفعل . انى أريد أن أختار أحد الشرين ؟ » .

فرفعت حاجبيها مستغربة وفتحت عينيها جداً وقالت :

— أحد الشرين ؟

، فابتسم وهو يقول : « معذرة . لقد كنت أريد أن أقول ان عليك أنت أن تختارى أحد الشرين » .

قالت : « هذا أبعث على الدهشة . أى شرين ؟ » .

قال : أنا أو التسعة عشر » .

فرددت قوله « أنت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ » .

قال : « نعم . فإن فى وسعى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى الخمور كالسمكة ، وأن آكل وأنام مابدا لى — كل ذلك من غير أن انفق مليا » .

وسكت فقالت : « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤالك ؟ » .

قال : انتظرى ، ولكن هذا يكلفنى جهدا اذا كان لا يكلفنى مالا واخلق بالمدخنة ان ينقطع مددها ، وببحر الخمر ان يجف ، وبالموائد ان يطير عنها كل ماعليها من الالوان اذا لم افعل ما هو متوقع منى فى نظير ذلك كله . . اعنى بعبارة صريحة اذا لم اعرفك بالتسعة عشر ! » .

فصاحت « ما افظع هذا ! »

قال : « لا تفزعى . فلن افعل شيئا من هذا . ولكن هنا تسعة عشر مصريا يريدون أن يعرفوك . . لقد عددتهم . . واحدا واحدا . . وهنالك غيرهم ولكنهم — معذرة — لا يعبأون بك . . فإذا عرفوك . . .

فقاطعته صائحة « لا تتم هذا الكلام . . ارجو . . من فضلك »

قال : « اذن فلنتعاهد » .

فصمتت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

فقال : « نعم نتمشى معا نحو ساعة كل يوم هنا او فى اى مكان آخر تختارينه وفى مقابلة ذلك اتعهد بأن لا اعرفك بأحد من التسعة عشر » .

فأطرقت هنيهة كأنما تفكر وقال وهو يستحثها :

— اختارى أخف الشرين : انا واحد وهم تسعة عشر .

فقالت : « لا بأس . قد قبلت المعاهدة ، ولكن يجب ان تقيني هؤلاء (وضحكت) التسعة عشر !

قال : « لاتخافي ، سأشترى مدفعا رشاشا اذا احتاج الأمر الى ذلك » .

— ٢ —

وانتقلت بعد ذلك الى مائدته وصارا يتناولان الطعام معا ، وتوثقت اواصر الصداقة بينهما وصارا لا يفترقان الا ليستريح كل منهما او ينام فى غرفته ، غير انه بقى لا يعرفها الا باسم ليلى ، وهى لاتعرفه الا باسم ابراهيم ، والغريب انه لم ينشأ ما يشعرهما بالحاجة الى استيفاء الاسماء ، ولم يعرض بينهما ما يدعو إلى التحدث عن الماضى وكانا يتنزهان ليلة فى النيل فى زورق . فقالت وهى مدلية يدها للماء :

— إنى اكره الرجال .

فضى ابراهيم ولم يجب كأن الأمر لايعنيه والخطاب ليس موجها اليه ، فالتفتت اليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة وقالت :

— احسبنى اسأت الأدب ؟

فقال : « كلا وانى لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر — واعطف عليك ايضا » فالتمعت فى عينيها نظرة خبيثة وهى تقول :

— من حسن الحظ ان الرقم لم يبلغ العشرين .

فقال وعينه إلى السماء ، وعلى وجهه آيات الذهول :

— من يدرى ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين . .

وسكت .

فسألته وهى تدنو منه :

— لماذا تقول من يدرى ؟

فأرسلها ضحكة مفرقعة وقال : «وهل فى الدنيا من يدرى شيئا ؟ قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرا ، ولكن الغاية التى يصل اليها بعد الجهد والعناء من الذى يستطيع أن يقول أنها هى التى كان يقصد اليها حين أخذ الطريق » .

وأحس أن كلامه فيه من الجد أكثر مما ينبغى فقال : « وليس لنا إلا الحاضر ياليلى ، والواحد الذى يمكن أن يصبح متمما للعشرين مصمم على إغتنام الحاضر الذى هو فيه » .

ولم يعودا يريان الفندق و (المعبد) ، والقمر يريق ضوءه على صفحة النهر ، والنسيم البليل يصافح خديهما . وأخذت الأقصر تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كأنما أسلمتهما إلى النهر الخالد . وتناول ابراهيم المجدافين بعد أن استراح قليلا ، فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم على ضوئه مخلفا وراءه خطا طويلا . .

فقالت ليلى ، وقد أحست فجأة أن قوة لاتغالب قد استولت عليها واستبدت بها :

دعنى أجدف فإنى أحب ذلك .

فابتسم وقال : « اذن فاجلسى أمامى . . هنا . . »

ونهض هو ووقف فى وسط الزورق ، ومد اليها يده ليساعدها على الخطو وجلست تجدف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب الماء خفقا خفيفا بمجداف بعد مجداف ، وكان ضربها ، لخفته على وجه الماء ، فكان رشاشه يطير إلى ابراهيم فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل مميل ، وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الأحمر الصافى ، وحاجبيها الكثيفين السوداوين وعينيها الضيقتين البراقتين ، فخيل لإبراهيم وهو قاعد أمامها أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضا .

وقالت ليلى وقد أراحت طرفى المجدافين على ركبتيها :

« ما أجمل هذه الليلة ! » .

فقال ابراهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج :

« نعم . أليست كذلك ؟ » .

فانفجرت ضاحكة وقالت وهى ترد قبعتها عن وجهها إلى رأسها :

« هل تعلم ؟ انى . . . »

قال « ماذا ؟ »

قالت : أحس برغبة ملحة فى أن أخلع هذه القبعة والقيها فى الماء وأرسل جمم شعرى — أرسلها للنسيم والقمر » .

فقال ابراهيم فى لهجة فيها من الحنو نبرات :

« اذن فافعلى » .

ولكنها صمتت قلقة ، ولم تستطع ان ترسل نفسها على سجيتها فقال إبراهيم :

« أنك تخجلين ان تطيعى رغباتك ، وليس خجلك لانى معك وانى أرى ما تفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت ان تطلقى لنفسك العنان ، وان تفعلى ما يهتف به جسمك ، لأنك كغيرك — مثلى ومثل الناس جميعا — تؤثرين أن توهمى نفسك انك فوق الحياة وفوق دواعيها وان كنت تعلمين فى أعمق اعماق سريرتك انك لست إلا مظهرا ضئيلا من مظاهرها ، وان كل مقاومة منك لطبيعتها وسنتها الخالدة واحكامها المبرمة التى لا مفر منها . مجلبة للشقاء والألم . لماذا تحسين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا تخفينها ؟ ان القوى المحبوسة فى النفس تتطلب منفذا ، والجسم ينشد السرور واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه » .

فقالت ليلى : « نعم . نعم » .

وغزت رأسها كتائب من الخواطر الجديدة ، وتلفتت حولها ، وعينها

تقويم ، وتغلغل إلى اعماق نفسها جمال الليل والقمر الساهم وحسن النهر الجارى بين القفار الحالمة ، ولج بها الشوق إلى تجربة القدرة على افادة السرور بلا خجل او تردد .

ومضى ابراهيم فى كلامه فقال « انى احلم – حلم فقط مع الأسف – بعصر لايحول فيه بين الإنسان وسعادته ، عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته التى لاتعتدى على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها فى جرأة وحرية » .

فسألته : « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟ »

فقال : « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرا سخيفا ، ولم يكن الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها او حدودها فكانت الحرية فوضى وكان هو لايستحق الحرية التى لايفهمها ولا يحترمها ولا يحس الاستمتاع بها ، وعصرنا الحاضر ايضا سخيف ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم فى العقل تحكمها فى الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وإنما أحلم بعصر لا يستحى الإنسان فيه من نفسه ومن غرائزه المهذبة ومن مطالب هذه الغرائز ، لايخجل ان يرمى طربوشه اذا شاء ذلك وان يمشى عارى الرأس إذا احس ان هذا أكفل باشعاره الغبطة والروح ، ولا ان يثب فى الطرقات ويرقص فى الشارع او يجلس بثيابه الأنيقة على الحجارة او التراب اذا اشتهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لايضير احدا » .

فسألته بلهفة كأنما خافت أن يسترسل من غير ان يعرج على ما فى رأسها :

– ولكن ماذا عن الحب ؟ إلا قيودا له يفرضها علينا ؟

فاكفهر وجهه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

الحب يفرض قيودا ؟ لماذا ؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا يافتاتى وإنما هى الغيرة ، اتفهمين ؟ انها الغيرة ! وليست الغيرة وحدها هى التى تفرض القيود ، بل فضول الناس أيضا وتدخلهم فيما لايعنيهم ،

وخوفنا من فضول الغير ، ذلك الفضول الذى نعبر عنه برأى الناس فينا . ما دخل الناس فى حبى وبغضى وهو شىء يعنينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف رأى الناس أو فضولهم ؟

فقالت لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك » .

و نظرت الى ابراهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت أنها تحسه قويا طاغيا وان كان فى رأى العين ضعيفا يابس اللحم على العظام ذابل الشفتين ساهم الوجه . وانكشف لعينها ، وهى تنظر إلى ابراهيم ، عالم بأسره من القوى الزاخرة والعواطف الفائرة ، فهل تدخله ؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت أيضا وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها أو أوحته إليه ، فأسرعت أنفاسه هو أيضا فصار يلهث كأنما كان يجرى . ولكنه كبح نفسه وتناول المجدافين وأهوى بهما على الماء يضربه بسرعة وقوة ، فانطلق الزورق يفرق الماء ، وصار خريره منغما فى مسمعهما ، واقتربا من الشاطىء الغربى فأراح ابراهيم احد المجدافين وضرب بالثانى فمال الزورق .

وبلغا الشاطىء ، فوقفا ، ووثب ابراهيم أولا ، ثم مد يده لليلى فوثبت إلى جانبه ، ولكن الوثبة إلى أرض غير مستوية أفقدتها توازنها فمالت إلى إبراهيم وأمسكت بكتفه ووقعت بين ذراعيه . وطال التصاقها به على غير قصد منها أو منه فاندلعت النار فى دمائها وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور حارة واحتضنها وشد عليها ، ومادت الأرض بهما وغامت الدنيا فى أعينهما ، وهمست فى أذنه وهو ينحنى بها على دهس الشاطىء « ماذا تصنع ؟ دعنى بالله ! » ولكن الصوت كان خافتا والأنفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعلو ويهبط ويبغى صدره . . ولم يكن حولهما إلا الليل المقمر وإلا رائحة النهر والأعشاب البايلة على حفافيه ، وإلا الجو يسخن تارة ويبترد أخرى وسكون عميق ، وفقد كلاهما وعيه ، وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا فيها كل ما فى دمائهما من نار .

الفصل الخامس

كلت عيني من الحزن ، واعضائي كلها كالظل
« يوجد باطل يجرى على الارض ان يوجد
صديقون يصيبهم مثل عمل الاشرار »

— ١ —

رسالتان بعثت بهما شوشو إلى إبراهيم ، ومضت الأيام ولم تتلق عليهما ردا ، وثالثة أنبأها الشيخ على أنه كتبها إليه ، ولا جواب أيضاً . فما معنى هذا ؟ أيمكن أن يتلقى إبراهيم رسائل منها وأن يهمل الإجابة عليها ويدعها تمزق قلبها ؟ لم تعهد شوشو في إبراهيم هذه القسوة ، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره ، وإنه لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروهها ، وما ألفت منه شوشو إلا الحنو والرقة والترفق بها حتى في ساعات ثورته وغضبه ، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت ، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لا محالة غدا ؟ ألم يعاطها الحب صرفا ؟ ألم يكن أحنى عليها من أمها ؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختيها ، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحدا واحدا وهو يبتسم ويمزح ، ولم يتجهم وجهه إلا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجية . حينئذ فقط عبس وقال : « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما ؟ » ولم يعبأ حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته ؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة ، وسخط إبراهيم عليهما وحدهما ومقته لهما ، فكيف يعقل أن ترد إبراهيم رسائلها فلا يرد عليها ؟

لا بد إذن أن يكون إبراهيم قد زايل الأقصر ورحل عنها إلى أسوان أو إسنا أو غيرهما ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يمل كل مكان

فليس على هواه ! ولو كان يسعها هي أن تنتقل مثله لما أطاقت الإقامة فى مكان واحد إلا أياما قليلات ، ولو كانت تذهب من بلدة إلى بلدة ، لعل التنقل يفيد سلوى ! آه ليت هذا فى وسعها ! إذن لأمكن أن تتجمل بالصبر :
إذن لهان عليها أن تحتمل التمزيق فى صدرها ، والاظافر التى تقطع قلبها ، والنار التى تندلع فى عروقها وتصليها الجحيم فى الدنيا ! إذن لنجت من رؤية أختها كل يوم — كل ساعة — كلما شاءتاها أن تراها لا كلما شاءت هى ! إذن لما أضطرت أن تحتمل ما تكايدها به أختها سميحة التى سارت فى عرس تلبس كل يوم معرضا من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئاً من زينتها وحليها الا لبسته وبدت فى حفلة وفى عينيها سرور تلتمعان به ، وفى قلبها حبور ينضح به وجهها هو سرور الشماتة وحبور الانتصار والفرحة بالخيبة التى منيت بها . وهى أختى ! بنت أبى وأبى وأنا وهى من دم واحد ، وقد انحدرنا من أبوين إثنين ! من يصدق ؟ بماذا أسأت إليها ؟ أى شيء جنيته عليها ؟ ما ذنبى أنا إذا كان إبراهيم لم يحبها ؟ نعم ، أنا أيضاً أحبه ولكن هذا ليس من ذنوبى لديها ، فما أرى حبى له قد نفعنى وإنما ذنبى لديها إنه يحبنى . وذاك ما لا حيلة لى فيه لو أن لى حيلة فى نفسى ولقد جاهدت — علم الله — أن أصرفه عن طلبى وعن التقدم إلى أختى ، ولكنه لم يسمع لى ولم يعبأ بى ، وليته كان قد أطاع إذن لأمكن أن أصبر ، واثقة أنه يحبنى راجية أن يجيء يوم يقرب فيه البعيد ويسهل فيه الصعب أما الآن فلا أمل لا أمل ! حتى ولا فى سطر منه أتعزى به . يا لهول الظلمة الراكدة التى تحف بى وتجثم على صدرى وتخنقنى ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا ينفذ منها شعاع واحد من الأمل !

ولا بد لى من احتمال أختى هاتين . أختى بنتى أبوى ، أختى اللتين قضتا على ، وسحقتا نفسى وخنقتا قلبى — لماذا ؟ لماذا ؟ وارتمت على السرير وبكت ، وراح كيانها كله يهتز ويرتجف وامتدت كفاها إلى شعرها المرسل فشدتاه كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهى تحاول أن تملك نفسها وزجر عينيها عن البكاء ثم أستوت قائمة وهى تقول « لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونقر الباب ففزعت إلى المرآة فطالعها فى صقالها وجه محتقن وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، ولم تدر ماذا تفعل ولكنها أسرعت إلى القلة فأخذت منها ماء فى حفنتها مسحت به وجهها وعينيها وتناولت منشفة ومضت إلى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ على ، فتناول كتفيها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة وقلبه يتفطر :

« هنا إلى جانبى على السرير » .

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمناه بينما كانت يسراه تربت لها على كتفها اليسرى ، ثم أسند رأسها إلى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هي إلى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ على لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فأغرورقت عينه وسقطت دمعة على جبين شوشو — حارة حامية ، فانتبهت ورفعت رأسها فأخذت عينها الدموع المترقرقة فى جفنيه .

هذه الدمعة — هذه القطرة التى نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جميلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت على النار التى فى قلبها بردا واشعرتها شيئاً من السلام والسكينة فنسيت نفسها لحظة ، وذهلت عن آلامها هنيهة ، ولم يبق أمامها إلا هذا الرجل الضخم يبكى لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن يرى جبلا يقتلع وفرحت بعطفه وتحننه ، وإن كان لا شك عندها فى رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بنته كروزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فنهضت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيه قبلة شكر صادقة .

وقال الشيخ على وهو ينهض : « زوزو تنتظرنى فالحقى بنا » .

وخرج وتركها تصلح من شأنها .

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط وزوزو تحاوره بها وتلقيها إليه فى حيث لا يكون إلى اليمين جداً إذا كان هو إلى اليسار ، وإلى اليسار إذا كان هو إلى اليمين ، أو تقذفها عالية فيتطاع إليها مترقبـــا هبوطها ليلقفها فتنسلل هى وتكون إلى جانبه فإذا دنت الكرة منه فى سقوطها ، صاحت به « ايه » ودفعته بيديها وفى ظنها أن تقلقله ! وهو يلهث من الجرى ، إلى كل ناحية وينفض عرقه وإن كان الجو باردا ، ويخجل أن يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه فيخالطها ويقترح لعبة أخرى لا تكلفه جريا ولا تتقاضاه وثبا ، وهى تصر على الكرة وتروح تدب برجليهـــا على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لايوافقها ، وتقول بسرعة كأنما تريد أن لا تدع له فرصة للكلام والاعتراض ، ووجهها مرفوع إليه حتى لتكاد تقع على ظهرها .

— لا يا بابا ، لا يا بابا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى تقف هنا وأنا هناك ، لك على ما احدفهاش بعيد ، بشويش ، هيه ؟ أعمل معروف .

ولكن الحظ كان مواتيا لأبيها فقد ظهرت شوشو على رأس السلم ورآها الشيخ فنجا وفرح بنجاته ، وبهذه الفرصة للخلاص من غير أن يحتاج إلى أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فانحنى عليها وتناولها ورفعها إليه بلا جهد وقبلها وأدار وجهها إلى السلم وهى معلقة بين يديه فى الفضاء وقال :

— خالتك شوشو .

فصفقت زوزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تفيده من رؤية أبيها الضخم يعدو ولا يدرك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد واحدى يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والأخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وإن كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها

وناز عتها نفسها أن تجرى إليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحت تحرك رجليها في الفضاء بسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الأرض فتراها بعيدة فتناشد أباها أن ينزلها ، وهو يعابثها ، ويدعى أنه يطيعها فيدنو بها من الأرض حتى إذا كادت تلامسها قذفها في الهواء وتلقفها بيديه ، وهي تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً .

وصارت شوشو قريبة منها فالتفتت زوزو إلى أبيها وقالت :

— وحياة خالتي شوشو .

فوضعها على الأرض في رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلتها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه وحنت عليها تقبلها ، ثم همت بان تعتدل وتستوى واقفة ، ولكن زوزو دفعت ذراعيها فجأة وطوقت عنقها ، فلانت لها شوشو ، وتلقت قبلاتها الحلوة على شفتيها وخديها وعينيها ورأسها — من فوق السكبة(١) — وأذنيها ثم خرجوا .

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من سجفي الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كأختها من الفرجة التي بين السجفين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفي الستارين ولم تدع إلا شقا صغيرا لعينها ، ولما لم يبق شيء تنظر إليه أرخت يدها وتنهدت وهي تدور وتواجه نجية . وقالت :

— خرجوا . استريحي بقى .

وكانت لهجتها تنم على الأسف ، ونبرة صوتها تشي بالكمد المكتوم ولا أسف هنا ولا كمد ، وإنما كانت تتكلف ذلك وتتصنعه لتستثير نجية

وتغذى عنادها . ولم تكن تبالى فى سبيل ذلك أن تمشى بالوقيعة بين نجية وزوجها . فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع فى روع نجية بالتلميح المتوالى أنه لا يبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما ، أن ينتهى الأمر به إلى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكى من أن تصرح بهذه الدسيسة ، وألبق من أن تزيد على الإشارة فكانت ربما تنهدت فجأة وقالت :

— الأمر لله .

فتقول نجية : « ماذا يا أختى ؟ »

فتقول سميحة : « لا شىء ربنا يستر ! ربنا يستر » .

وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الأمر على كل وجوهه المحتملة .

ثم بعد ساعتين ، أو يوم ، تعيد الكرة فتقول :

— إن إقامتنا معك يا أختى لا يعلم إلا الله ما قد تؤدى إليه .

فتقول نجية : « كيف يا أختى ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين كأنى استثقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة « وجودى أنا ؟ يا ريت ؟ نهايته ! ربنا يسلم » .

فتلح عليها نجية وتقول : « ألا تقولين ماذا فى رأسك هذا ؟ إنك تفهمين أكثر مما أفهم .. فهل .. هل . قولى .. تكلمى ..

فقاطعتها سميحة حتى لا يبلغ الأمر درجة المصارحة وتقول :

ربنا لوحده هو اللى عالم بما فى رأسى .. ده تبقى مصيبة .. لكن هو جنان ؟

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً إلى هذه الناحية ، وعميت عن السبب فيما يبدو من عطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوساوس ودبت فى صدرها الغيرة ، وإن كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون

ومدافعة ما تهمس به ، وبقيت تعتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير أن مجرد التفكير في هذا المستحيل غيض من وجهها كل بشاشة لشوشو والشيخ علي ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعي أن تكل ذلك إلى سميحة وأن تفتح أذنها لكل ما تشاء أن تصبه فيها ، وزاد الفساد لأن الشيخ علي أصر على جفوته وإهماله لنجية ، ومنح شوشو عطفه وعنايته وصار لا يفارقها مادام في البيت ، وكثر اصطحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ علي يتوقع ، بعد أن أعلن إلى نجية سخطه على مسلكها حيال إبراهيم ، واستياءه لرفضها العمل برأيه ، ونقمته منها أنها حقرت شأنه في نظر إبراهيم بأن أظهرته له رجلا لا سلطان له ولا إرادة في بيته . — نقول إنه كان يتوقع من نجية بعد أن أعلن إليها هذا وجفاها من أجله ، أن تندم وتحاول استرضاءه وتسعى لتتألفه من نفرته ، ولكنها لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما ولم تقصر في الدس والوقيعة ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ علي لن يفيء إلى الرضى أو يصفح عن نجية إلا إذا نزلت على حكمه وعادت إلى رأيه بتزويج شوشو لإبراهيم ، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك إذا تنبهت نجية إلى واجب العمل على ترضى زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار الجفاء — على الأقل إلى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهتدى إلى حيلة جديدة .

ومن الأوهام الشائعة أن الأطفال آخر من يفطن إلى الحوادث التي تقع حولهم والبواعث التي تفضي إلى وقوعها ، وكثيراً ما يطمئن الكبار إلى جهل الصغار وعجزهم عن الإدراك والنظر والتمييز ، ولكن الأطفال كثيراً ما يخزنون في رءوسهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لراعهم عمقها واعجبوا لقدرة الأطفال على التقصي والاستنتاج ونفاذ البصيرة ، وليس بالنادر أن تكون سعادة الأسرة رهنا بما يبديه هؤلاء الصغار من الحكمة وصدق النظر والصمت ، وهي صفات قد يكون مرجعها إلى الإلهام وما أحرى كثيرين من الكبار بأن يتلقوا درسا في الكياسة من هؤلاء الصغار المستجهلين .

ومن أجل هذا لم يكن عجيباً أن عمى الشيخ على وشوشو عن حقيقة ما صار إليه الموقف فى البيت ، وإن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفا من هنا وطرفا من هناك وتضم هذا وذاك وتستخلص وحدها سر الأزمة وطورها الجديد ، وإن لم يخل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع والأسباب ، ولكن النتيجة التى انتهت إليها كانت فى جملتها صحيحة ، غير أنها ألهمت أن تمسك على ما خزنته فى رأسها الصغير فلم تثرثر به .

وهكذا صار البيت معسكرين . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على إلى القرية بغتة وأخذ معه شوشو وزوزو .

الفصل السادس

« هل انتهيت الى ينابيع البحر او فى مقصورة القمر لسيت ؟ »

— ليلى

— نعم .

— لا أدرى ماذا أقول ! ولكنى أدرى أنى أريد أن أقول شيئا :،
اظن أنك عطوف يا ليلى .. ولو أنى كنت شيخا هرما لردنى النظر اليك
شابا يافعا .. شابا باحساسى على الأقل ، ولو ان شكسبير عرفك لأكثر
نظم الأغانى وأقل من الروايات .

فأشارت ليلى بكفها البضة ناهية عن الاسترسال وانحنت له مازحة وقالت :

— أشكرك ، واسمح لنفسى ان أشك فيما تقول ، ولكن شيئا واحداً
أنا على يقين منه ، فلو انشكسبير عرفنى لناولنى سيجارة .

فاعتذر لها ومد يده بعلبة السجاير ، واشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الأقصر فى الصحن المتسع الذى تحيط به
الأعمدة ، واليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفة رجال الآثار بساحة
أمنحتب الثالث ، وكان ابراهيم قد رشا الحارس فاذن لهما أن يدخلا فى
الليل ، فاتخذا مكانهما إلى جنوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة والأعمدة
اكثرها سليم ، فجلسا يتصوران ما كانت عليه هذه الساحة من الأبهة والرونق
فى ايامها وايام هذا الملك — امنحتب الثالث — الذى بلغت بلاده فى عهده
ذروة الغنى والرخاء ، وانطلق ابراهيم يحدثها عن هذا الملك وكيف انه
وهو يبنى هذا الهيكل اغتنم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الجدران
سلسلة من المناظر تتعلق بارتقائه العرش وتبرره ايضا ، وذلك لأن
الشريعه المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجا لبنت
الملك الكبرى أو ابنا لها ، ولكن اباه — تحوتمس الرابع — لم تكن

له ، على مايظهر ، بنت فيتزوجها لابنت ملك لإقليم صغير فى سورية إسمه ميتانى ، وقد تزوج أمنحوتب وهو صغير — تى — وهى ليست من أسرة ملكية ، وأكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمنحوتب هذا المعبد ليتألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التى تصور ميلاد الملك وتتويجه محو كل شك فى حقه فى ارتقاء العرش .

وقال إبراهيم بعد أن أفضى إلى ليلى بهذا التاريخ القديم :

— أحسب هذا مثالى . .

فعطفت اليه وجهها وابتسمت وهى تتوقع أن يفاجئها بملاحظة مضحكة ، أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو فى كلامه فقال بلهجة جادة :

« . . . أنا أيضا أرتقى عرشا أكبر ظنى أن ليس لى فيه حق شرعى ، فليتنى أستطيع أن أشيده معبدا ضخما لإلهى المعبود ، أسوغ به ما استوليت عليه » ولم تكن ترتقب منه هذه اللغة الجادة فغاضت ابتسامتها ، وعجبت لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم فى سماء نفسه ، وأحست أن هذا لابد له من علة ترجع الى ما لقى فى حياته وأنه لا شك قد قاسى وتعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت :

— ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟

وزمت شفتيها وكانتا ترتجفان ، فألقى اليها ابراهيم نظرة عتب ، ولم يقل شيئا ثم التفت اليها فجاة وأمسك بكتفيها المستديرتين ، فانتفضت للمسه ، وقال :

— ليلى . ستشقين بسببى غدا ، غدا !

وهز كتفيها بعنف ، فقالت :

— كلا ! لن أشقى . أو فلأشق ! سيان ، انما تنشأ الأحزان لأن الإنسان يفرض لسعادته ثمنا . ولست أتقاضاك ثمنا ، فدع هذا ، على أنك أديت ولا تزال تؤدى لى ثمن سعادتى ..

فقال : « كيف ؟ » مستغربا .

قالت : ألست تحميني من التسعة عشر ؟ » .

فابتسم ولكنه قال :

— ليلى . واجهي الأمر جادة . أرجو .

فقالت من غير أن تعبس :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم . لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا تداعى ، وأنها لحظة اذا أفلتت فهيهات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك فى ذا كرتينا أنفس ماندخر وأجمل ما استمتعنا به . فبالله عليك لاتمط وجهك ولا تفسد على تلك الذكرى !

فوجم إبراهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هى على رجله وقالت له وذراعها حول عنقه :

— لعلك فكرت فى الزواج ؟ هيه ؟ لا أستغرب أن تكون قد فعلت فإن رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لاينى ولا يتوقف ، كلا ياصاحبى ، ان الزواج نقلة الى حالة أخرى .. لانعود بعده ليلى وابراهيم ، كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيدها من تلاقينا ومن خلواتنا .. لازواج بيننا .. فلنبق هكذا .. دائما .. أنت إبراهيم لاأكثر .. وأنا .. ليلى .. لاقيد ولا رباط سوى هذا الحب ! الحر .. الطليق كالعصافير .. ان فى عينيك دهشة . أليس هذا بعض ماعلمتنى ؟ أيحلق التلميذ درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لا لست وحدك معلمى . لاتخف ، الدنيا كلها علمتنى .. الحياة هى التى أجرت ارادتى وخواطرى فى هذا المجرى ، وما كنت أسالك كالتلميذة الا لأنى كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسى وهواجس ضميرى بلسانك وبقوة بيانك . وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستى كنت أصغى اليك وأنا أنتفض من السرور والدهشة أيضا .. لقد خلقنا — أنا وأنت — لنحيا هكذا .. لسنا نصلح لذلك الحب التقليدى ..

ولكنك لم تقل لى قط أنك تحبنى أوه .. لا .. لاتقلها .. لاتبتذل المعنى بلفظة . لاتقيده ، دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة .. ويضطرب به الجسم كله .. أو تتكلم العصافير ؟ والحمائم ؟ لاتقل شيئا .. قبلنى .. مرة أخرى .. !

ولم يكد ابراهيم قد سلا شوشو ، ولكنه تسلى ، ولم ينقص حبه لها ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارىء أن يتسع القلب الواحد لحبين ، غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ، لايمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا فى القلب متجاورين كما يتجاور فى القلب حب الوالدين ، وحب البنين ، وحب الأخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، حب الأدب أو الفنون أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة فى مصادرها ومظاهرها وآثارها ، واختلافها هو الذى يوسع لها ضمير الفؤاد . والنفس الإنسانية أعمق وأرحب وأغزر موارد من أن تشقى أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ، وأين ذاك الذى سبر غور النفس وغاص إلى أعماقها ونفذ إلى كل شعابها وتغلغل إلى أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لانسانين كما يتجاور حب لواحد وبغض لآخر ؟ من الذى مسح هذا « التيه » المضل ودرس طرقه وأحاط بمنعرجاته ، وألم بمباديه ونهاياته ؟

وهكذا كان قلب إبراهيم يعمره حبان : حب شوشو الرائعة التى تستولى على النفس محاسنها « جملة » — وكانت شوشو كما أسلفنا القول فى ذلك « فتاة » لايحس الرجل مادتها « ولايلتفت حين يحادثها إلى « الشكل » وكانت قدرتها هذه على صرف المجلس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص محياها ، ليس مرجعها إلى لباقة أوكياسة مكتسبة ، وإنما كان مردها إلى تلك السذاجة المحببة التى تذيب القلب وتشيع السرور فى الصدر وتثير كرم النفس ومروءتها وكان لها نجرأة النفس الغريرة وحرارتها وخفتها ، وكان إحساس المرء حيالها أشبه بإحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلى فخلق آخر . وجمالها مختلف جدا . وفتنتها مستمدة من عناصر غير هذه ، فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكانت تبدو ساكنة وهي تنساب ، وكان جليسها لايسعه إلا أن يشعر أن لها عينين إثنتين . والمرء في العادة لا يجعل باله إلى هذا الإزدواج ولا يلتفت إلى تلك التثنية ، حتى ليغلب أن يستعمل لفظ المفرد ، والمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين ، ويذكر الجفن وهو يعني الاثنين لأن النظرة من كلتيهما واحدة . وهما توأمان ومعناهما في الذهن مندمج ، ولكن ليلى كان لكل من عينيها إماضها . ولااختلاف بين اللمعتين ، وإنهما لمتجاوبتان ولكنهما على ذلك فيما يحس الرجل مستقلتان . وكانت أمارات التفكير الكثير المرتسمة على محياها ربما أطفأت هذا الالتماع ، وان لم تعف مع ذلك — إلا قليلا وإلى بضع دقائق — على شيء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادى التكليف بحيث ينفي صدق السريرة . وكانت شفتاها — كحاجبيها — خطين حاسمين حادين ، وان كانت تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يتوقع — ولا يستغرب منها — حين ينظر الى جبينها الوضاء الذي ترد عنه الشعر ولا تدعه ينسدل عليه — الصراحة والجرأة صراحة النفس التي تأنف أن تغالط في الحقائق ، وجرأة القلب الذي ذاق وجرب ، والعقل الذي فكر وتعب .

فبينما كان ابراهيم ينعم بحب ليلى وقربها ، وكانت هي تساقيه الهوى صرفا غير مقطب ولا مكدر ، وبلا قيد أو تحرج ، كان قلبه يتلفت الى شوشو وينثني بالصبوة اليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها ، وكان في كلا حبيه مخلصا : يجري في هواه الجديد بغير لجام ، ويرتد الى شوشو بالقلب الكسير المستهام ، فكان حب ليلى الخمر يعب فيها العاشق الولهان يحسب أن سيغرق فيها وجده . فتستعر جوانحه وتضطرم النار في جبينه وتتقصف أضالعه . وكان تحرر ليلى يفتنه . وسذاجة شوشو تسبيه ، وكان حب شوشو يتمثل له حاسما كالزهادة لمن لم يجد لعلة نفسه شفاء في الرياد والضرب في زحمة الحياة . وكان يبدو له — بعد أن انتهى الى ما انتهى

اليه — بمثابة الرفض للحياة . ورفض الحياة — على كل سحره لايزيد النفس إلا إمحاء . والزهادة قد تكون منجى ولكنها يأس ، وهى ، على كل ماتدل عليه من القدرة على التسامى فوق مغريات الحياة ، قلما يفضى إلا إلى أن تخسر النفس طيبها ورضاها ، والسعادة لاتجنى فى الحياة بان يرد المرء يده ، بل بان يمدها الى الثمار ليجنيها .

وكان حين يفكر فى حبه لليلى يتصور المروب من النفس ، ويخيل اليه أنه يسوم ذكاءها اطفاء . وأنه يبلدها وينشر الضباب على صفائها ولم لا ؟ أليس اللبيب هو الذى يمحض نفسه مراحا ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر نفسه باللذة ويضنيها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرهما وفى جوهرهما مذهبين مختلفين : رفض الحياة والاستغراق فيها . ولكنهما من حيث النتيجة سيان .

وسواء من قال ليس سوى الأرض ومن قال لن تنالوا السماء .

وأبيقور — بعد — كزينون ، كلاهما مخطىء وكلاهما مصيب ، وقد التقيا باعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس ابراهيم .

بل هناك حب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس ابراهيم ، ولكن كونه غير طاف على اللجة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان ابراهيم — حين يجيش صدره وتفور نفسه وتختلط الأعالى بالأسافل ويندفع الراسب الى مستوى الطافى — يذكر مارى ويشتاقها . مارى الضعيفة التى تشعره بقوته ، المذعنة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرز له لذة الغلبة ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها الى جانبه ليوحى اليها ارادته وليشعر بلذة الإسراع الى الاجابة والامتثال .

وقال ابراهيم وهو يفكر فى ثالوث قلبه :

« عجيب .. عجيب .. حين أذكر « مارى » أحس سطوة القوة ، وصيال العزم ، وعتو الجبروت ، وأتصور شوشو فاحس وقار التجربة وسمت العلم وأبهة الشيخوخة وحنو الأبوة ، وأكون مع ليلى فأرانى كأنى أتعلم رقصة الحياة على ايقاع الشباب .. عجيب .. عجيب .. »

الفصل السابع

« حوط طريقي فلا اعبر ، وعلى سبلى جعل ظلاما »

لم يسع الدكتور محمود الا أن يبتسم ، و هو يقرأ الرسالة التى بعث بها قريبه الشيخ على مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولا يذكر سببا موجبا لذلك ، ويؤكد له فيها — بلا مناسبة — أن كونه طبيبا ، مثل كون أحمد الميت ميتا — كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد منذ عاد إلى الإسكندرية ، ان يروض نفسه على السكون إلى اليأس من شوشو ، ولم يكن يدرى لماذا ينبغى أن يقنط ، ويثنى عنان الأمل ، ولكن الشيخ على صده عن الرجاء ، والشيخ على بطبيعة الحال أدرى ، وهو ناصح غير متهم ، غير ان المسالة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل ما فيها ان شوشو اصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى وتسبقها الى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ولكن لهجة الشيخ على تنىء بأن هناك شيئا خلافه لم يرأن يفضى به اليه و يطلعه عليه ، فا عسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟

وكان الدكتور محمود أشرف من ان يخطر له ان يتسقط الأخبار أو يستدرج الخدم ومن اليهم ، لعله يظفرمنهم بما يحل هذا اللغز أو يهدى على الأقل إلى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التى هو فيها تحيط به من غير ان يحاول تبديدها او إراقة شيء من الضوء عليها ، وضاعف جهده فى عمله ليكون ذلك أعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على ان ينتقل بها وبنفسهإلى دائرة الأحلام والذكرى المحببة التى تتشبث بها القلوب .

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح اقسى الأوقات عليه . فهو فى النهار ينصرف إلى عمله واذا ثقلت عليه وطأة الوحدة لم يعدم جليسا يسامره اما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك .

تبدو له الحياة اول ما يفتح عينيه عليها متثائبا ، وردية ذهبية ولكنه لا يكاد يفرك عينيه حتى تكر اليه الذكرى الأليمة بكل قوتها وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعضع أمامها ، قوة على قوتها ، ففى كل صباح يفتتح حياته بالشعور بمرارة الحرمان وقسوة الأقدار ، وفى كل صباح يهمس فى اذنه قضاء الحظ ان حبه يجب ان يموت ، وفى كل صباح يرتد فزعا من هول هذا القضاء الذى لا لطف فيه .

ولو كان الدكتور محمود أصلب عودا لقاوم وكافح ورفض أن يذعن لهذا القضاء الذى فرضه عليه الشيخ على ، أو على الأقل جدا . لطلب من الشيخ على أن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف فى أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذى لا يعنيه من الحياة إلا مقدار مايطلب من متعة تعود أمتع إذا كانت اخشن . لهز كتفيه ساخرا ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذى يسمه أن يعبث ولا يعبأ بالصدمات إذا كان لا يشعر بعاطفة قوية ، حتى إذا صار الأمر جدا ، انقلب حبيا ضعيفا غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكانت مهنته — بما تنطوى عليه من تبعات جسام — قد عودته الشعور بالمسئولية وأفرغت عليه روح الجد الصارم فى شبابه ، وعلمته ان ينظر من أتفه الأسباب إلى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وأنها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال إنسانا آخر .

وقال الدكتور لاحمد الميت فى الطريق إلى القرية .

— هل مرض أحد ؟

فقال الميت : « لا ، أبدا ، كلهم بخير » .

فقال الدكتور كأنما يناجى نفسه :

— اذن لماذا يدعونى الشيخ على ؟

فهز أحمد الميت كتفيه ولوح بيده وقال — كأنما كان الخطاب له :

« تسألنى أنا ؟حصانك هذا أدرى منى . فقد تطوعت لحمل الرسالة لأهرب من وجهه » وضحك .

فنظر الدكتور إليه بسرعة ، ولم تعجبه هـذه الضحكة العصبية ، وشد اللجام ثم أرخاه فأسرع الجواد وانطلق يخطف ، فكاد أحمد الميت الذى فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، و ارتفعت يده بسرعة إلى قفاه ليرد العمامة إلى جبهته ، ثم العباءة فوق ركبتيه وانحنى إلى الإمام قليلا .

وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وغرابة اعتقاده أنه مات ، وأنه الآن غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله :

ـ أحمد .. كم عمرك الآن ؟

فابتسم أحمد كأنما فطن إلى الغرض مما ظنه مداعبة ، ولم يجب فأعاد الدكتور سؤاله :

ـ كم عمرك يا أحمد ؟ لماذا لا تجيب ؟

فرفع أحمد وجهه إليه مستغربا وقال :

ـ عمرى إيه ؟ سبحان الله العظيم . حتى أنت يادكتور !

فافتر ثغر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال :

ـ دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟

فأرسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة إلى الطريق ، ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه الى حجره وقال :

ـ ايه . . سبحان العالم . ده شىء مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ما وافى الأجل ؟

فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره ، أو أن يدرك البواعث على هذا التعليق ، فسأله :

ـ ألا تذكر شيئا من حياتك . . أعنى قبل أن تموت ؟

فأدار أحمد وجهه وقال بلهجة جادة :

ـ أذكر ايه ؟ أنا مت واللى كان كان .

فقال الدكتور : « أعرف ذلك ، ولكن ألم تحلم قط ، أعنى ألا ترى فى منامك شيئا من حوادث تلك الحياة الأولى ؟ » .

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب :

— أيوه بحلم . لكن يعنى ايش درانى إن اللى بشوفه هو اللى كان . . أهى منامات تهاليس . .

فالح عليه الدكتور :

— وماذا ترى فى منامك ؟

— كتير ماتعدش . مين فاكر ؟

فقال الدكتور :

— هل تتكرر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟

فصمت أحمد هنيهة وهو مطرق ثم قال :

— أى والله برضه بحصل .

ثم رفع رأسه وقال :

— وأنت ايش درالك ؟

فابتسم الدكتور وقال :

— ألا تذكر واحدا من هذه الأحلام المتكررة ؟

فظل أحمد مطرقا ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتعب وهو يجاهد أن يذكر ثم قال :

— مش جادر وحياتك يا دكتور . هم الدنيا بينسى الواحد نفسه

وعاد الدكتور يسأله :

— ألا تتكلم وأنت نائم يا أحمد ؟

فقهقه أحمد وقال :

— يعنى منين أبجى نايم ومنين أسمع نفسى ؟

فسكت الدكتور ولم يسأله شيئا بعد ذلك .

ولما قابل الشيخ على قال له :

— أحمد الميت يستحق أن يراقب وهو نائم . فلا يبعد ان يتكلم بما هو مستكن وراء الوعي ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضا قد يفيد فإن شفاءه فيما أعتقد غير بعيد .

— ٢ —

اضطربت شوشو لما علمت أن الدكتور محمود قد جاء ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضاحكها ، وكانت الأيام القليلة التي قضتها في القرية بعيدة عن أختها قد ردت إلى خدها صبغته الارجوانية وإلى عينيها اللمعة التي أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكايدة سميحة وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ على وحلاوة روح زوزو ، وشعرت وهي معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها في الإسكندرية ، وكانت تقضي أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد للأطفال من الثرثرة ، ولا سيما مع من يطمئنون اليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ما تعلم ، ومالا تستطيع أن تعلله أو تفسره على الوجه الصحيح ولم تكن تعلم ، وهي تطلعها على أسرارها الصغيرة ان ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأتها أن خالتها سميحة ذهبت إلى امرأة « تبين البخت » وأنها بعد ذلك اشترت صندوق « شكولاته » وأعطته المرأة التي تبين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخذته بعد أن سحرت المرأة الصندوق ، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى « خالها ابراهيم » في الأقصر .

وقصت زوزو أيضا على شوشو ما سمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود ، وكانت زوزو تراهما من الحديقة وهما لايريانها لأن الشجرة تحجبها ، وروت لها ماتذكر من كلام سميحة وما قالته في أختها شوشو

فسألتها شوشو : « وماذا قال الدكتور لها ؟ » .

فقالت زوزو : « لم أسمع كلامه ياخالتي ولكن خالتي سميحة كانت

محتدة فى ردها عليه . لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذى يعجبه هذا الكلام ، إنه عيب أليس كذلك ؟

وقبلتها بين عينيها ثم مضت فى روايتها فحكت لها أن أباها أخرج من جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقان من الذهب لها فصوص من اللؤلؤ ، وضحكت زوزو وقالت : «كان بابا يحسب فى جيبه فحم كوك ! ! »

ثم دنت منها حتى صار فمها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت :

«أقول لك يا خالتى بس اوعى تقولى انى أنا اللى قلت ؟ هيه ! بالك الدكتور كان جاى ليه فى اسكندرية ؟ — (وخفضت صوتها جداً) بس اوعى تقولى (وألصقت فمها بأذنها) كان جاى يخطبك وبابا قال له روح ارمى نفسك فى البحر » .

وبديهى بعد الذى اطلعتها عليه زوزو ، ان تضطرب شوشو حين يجىء الدكتور ، وأن يدور فى نفسها ماكان من مغازلته لها قديما ، وان تسر وتدهش وتحزن فى آن معا ، وان تتوالى أمام عينيها صفحات حياتها ، بكل ما حفلت به وما انتهت اليه ، وأن تتوجع لصمت ابراهيم الذى أعياها تأويله إلا على أنه قد غادر الأقصر ، وذهب إلى مكان آخر وأن تسأل نفسها فيم يجىء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضا ، هواه لا سبيل اليه كهواها ، وقد احتمل الصدمة فى صبر وأخفى الجرح الدامى الذى فى صدره ، وعاد يمشى بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن دم القلب لا ينزف . فليست وحدها فى محنتها ! وأحست شوشو بالعطف على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد اختصر المسافة بينهما وأدناها وجعل من الممكن أن يتصادقا وان كان عسيراً أن يتحابا ، أو على الأقل أن تحبه هى ، وهو لاشك يعذرها .. يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أتراه قد علم أنها تحب إبراهيم وأن إبراهيم يحبها وهل يعقل أن يصده الشيخ على من غير أن يطلعه على السبب ؟ ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية —

بأن شوشو هي الصغرى وان سميحة أولى بالتقديم . غير أن هذا عذر لاينهض ولا يقنع الدكتور الذى لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تذليله .. .

ولم يدعها أحد إلى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هي إليه ، فقد كان الوقت نهارا ، والشيخ على فى السلاملك ، ومعه رجال كثيرون وحسبها هذا عذرا وبقيت طول النهار وحدها لا أنيس لها الا الخادمات تراقبهن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقى أوامر الشيخ على من حين إلى حين بواسطة زوزو . وكانت شوشو ربما تمنت أن يصعد إليها الدكتور لتراه ولتقرأ فى وجهه ما فعلت الصدمة فى نفسه ، ولكن علمها بما أفضت إليها به زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام عليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيمتقع .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت اليها وجهها الصغير وقالت :

ـــ خالتى !

ـــ نعم .

خالى ابراهيم . .

فانتفضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها :

ـــ أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئا ؟

فضحكت زوزو وقالت :

ـــ دعينى أتكلم ؟ ما هذه الأسئلة كلها ؟

فكبحت شوشو نفسها بجهد واضح وان كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

ـــ هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة .

ولم تفهم شوشو وقالت :

ـــ يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟

فقالت زوزو وهى تضحك مرة أخرى :

ـــ أوه ! ألا تصبرين ياخالتى ؟ كلا لم يعد ـــ الدكتور سيكلمه فى التليفون . اتفق بابا معه على ذلك .

فسألتها شوشو :
— فى أى شىء يكلمه ؟ ولماذا لايكلمه بابا ؟
فهزت زوزو رأسها وقالت :
— وهل أنا أعرف ؟ إسألى بابا .
— أسأل بابا ؟
فقالت زوزو بخبث :
— آه أسأليه . لم لا ؟
فاغضت شوشو عن هذا وقالت :
— ولكن لماذا يكلمه فى التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له خطاباً ؟
فقالت زوزو :
— خطاب إيه ؟ وهل هو يرد على الخطابات ؟ لقد سمعت بابا يقول انه بعث له بثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أى رد ، ويقول بابا ان الأوفق أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو فى الأقصر أو سافر .
إذن ابراهيم لا يرد على احد — لا عليها ولا على سواها . وما أطيب قلب الشيخ على الذى لا يزال معنياً بها ؟ وما أقساه حين يكلف الدكتور أن يقوم هو بهذا العبء ؟ لا شك أن الدكتور يجهل ما كان .
وانتفضت شوشو وقد خطر لها أن ابراهيم فى الأقصر وانه يهمل الرد على هذه الخطابات عامدا . . من فرط مرارة نفسه . وعناده . . وكبره .
وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو النائمة على حجرها فهبت تقول :
— خالتى !
— نعم .
ومسحت لها دمعها ولم تتكلما .

الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابنه ان عرفته)

— ١ —

عاد ابراهيم وليلى مساء من الكرنك فى مركبة الفندق الضخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب ابراهيم من نفسه أنه لا يكاد يعبأ بذلك وأنه لا يحس القدرة على الترجل والنزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت اليه ليلى وسألته :

ألا تنزل ؟ مالك ؟

وأحس هو فى هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينيه ، وسرت فى بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكتة ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجو باردا ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذى استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته جسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فلماذا يحس بالحاجة الى البكاء ؟ ما هذا الذى يأخذ بمخنقه ؟ ما لصوته يتهدج ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولمحت ليلى هذا التغير المفاجىء الذى نم عليه امتقاع لونه وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرته ، فأعانته على النزول ، وألهمت أن تدعه وشأنه وأن لا تثقل عليه بالكلام ، وأن تتركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ؛ فقد خطر لها أن لما بدا عليه سببا متعلقا بماضيه الذى تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهى تصعد معه وان كان قد ظلت تراقبه خلسة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهره الساكن وابتسامته ،

الساخرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يتكلف مايشبه المألوف منه .

وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد وأحس القرة فى عظامه ، وابتردت كفاه فنفخ فيهما ، ودخلا الصالون وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، وبحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعها من فرط اشفاقها عليه ، وقد أدركت أن علة ماطرأ عليه ، برد أصابه، أو نحو ذلك ، وجلسا وطلب هو كأساً من الكونياك ثم أخرى وثالثة ، وشعر بالدفء فانبسطت أسارير وجهه .

وقال فجاة وبغير مناسبة ظاهرة :

— لست أشاطرك حبك للمطر . كلا ، أحب شىء إلى أن أستلقى على ظهرى وأن أنسى .

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه إشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر بماذا تجيب فقالت :

— أعرف ذلك .. أعنى منك .. ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون فى قافلة .. حبى للمطر لا يمنعنى أن أشتهى ذلك .. قافلة من الجمال فى الصحراء .. أصوات الليل لابد أن تكون بديعة .

فسكت قليلا كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه .

— ان الذى يفعله المرء ليس مهما وإنما المهم أن يستطيع تسويغه .

فلم تفهم ليلى ولم تر أى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ، وازداد ذهوله ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته إليها ودخلتها معه وحتمت عليه أن يتناول قرصا من الاسبرين وتركته لتأمر له بالشاى بينما يكون هو قد خلع ثيابه ورقد فى سريره .

* * *

رقد إبراهيم وهو يسعل قليلا وينكر من نفسه هذا السعال الذى لم يعانه من قبل على إفراطه فى التدخين ، وأحس وهو مستلق بألم فى عظام

صدره وبصعوبة فى التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله إلى البرد والتعب ولم يعره اهتماما وشرع يتسلى بالتفكير ؛ غير أن ذهنه كان يأبى أن يخضع لإرادته ، وكانت الخواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها فوق بعض كأنها الجيش المنهزم .

ودخل الخادم يحمل أدوات الشاى لاثنين ووضعها على منضدة صغيرة أدناها من السرير ثم خرج من غير أن يتكلم كأنما لم يكن فى الغرفة أحد .

وكان إبراهيم أثناء ذلك لا ينظر إلى الخادم بل إلى السقف كأنما يفتنه منه شىء ، ولكنه قال لنفسه « إن الخجل من أن أكون مريضا فى الأقصر — وفى فندق أيضا — هو الذى جعلنى أتقى النظر إلى الخادم . أليس عارا أن يصيبنى برد فى الأقصر ، فى هذا الجو الذى يستشفى به الناس ؟ وليت من يدرينى كيف أصابنى ؟ » .

وسعل ، وشعر أن التنفس يوشك أن يصير عملا متعبا ، فانصرف عن التفكير ونسى معرة المرض فى الأقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذى يفرضه واجب التنفس . وأحس بكسل عن الشاى وبفتور عام فأغمض عينيه ومضى يعالج أن يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليلى لما دخلت ، وإنما انتبه على يدها تجس يده فقال وهو يتكلف الابتسام :

— أوه أنت هنا . لم أشعر بك .

فابتسمت له ولم تقل شيئا بل دست فى فمه ميزان الحرارة وقعدت على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان إلى الشباك ووقفت هنيهة تتأمله ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت :

— لاشىء يستحق الذكر .. نصف درجة بل أقل .. أربعة خطوط .. والآن فلنشرب الشاى .

ورفعته فى رفق كأنما كان وليدا ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن يضطجع وهو قاعد ، فبدأ يخالجه الشك فى صحة ما أنبأته به عن درجة حرارته وقال لها :

— فيم كل هذا إذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟

فابتسمت وزحفت إليه وقالت وهي تناوله ميزان الحرارة .

— إذا كنت لاتصدقني فما عليك الا أن تعيد الميزان إلى فمك ثم تقرأه بنفسك .. هذا هو .

فخجل وقال :

— معذرة ، هذا ذنب الحمير .

قالت : « الحمير » !

قال : « نعم .. حمير الأقصر . ليس في رأسي غيرها » .

فقالت : « لست أفهم .. » .

قال : « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر في رأسي وألحها على مذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير في الأقصر . . أحسب الأقصر قد أعدتني بحميرها ! فقد صارت الحمير هي كل ما في رأسي . .

فسر ليلى أنه يمزح ، ولم تكن تعلم أنه جاد ، واطمأنت إلى أن مابه ليس أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء .

ونقر الخادم على الباب ، فأذنت له ليلى فدخل يحمل بضع زجاجات ووقف ينتظر ماتأمر به .

فنظر إبراهيم من الخادم إلى ليلى مستغربا وقال :

— ماهذه الزجاجات كلها ؟ ليست نبيذ أو شمبانيا ؟

فضحكت وقالت :

— كلا ! ماء ساخن للتدفئة .

وأومأت إلى الخادم فوضع اثنين الى جنبيه وثالثه بين فخذيه والرابعة إلى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج .

فقال إبراهيم :

— ما أسرع ما صرت ممرضة ! من أي مستشفى جئت ؟

فضحكت وقالت وهي ترفعه لتعد الوسائد لنومه :

— والآن ينبغي أن تنام .

فقال وهو يطيعها : « ليس ينقصك الا أن تقضي الليل إلى جانبي على هذا الكرسي .. ولكن كيف أنام من العشاء ؟ أدجاجة تحسبينني ؟

فقالت : « عالج . إن بك حاجة إلى النوم . أما أنا فسأتركك برهة لأعطيك فرصة ؟ »

فعجب وسألها : « برهة ؟ هل تعنين أنك راجعة ؟ »

فحنت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت :

— نعم .

* * *

ولكنها لم تعد إلا بعد ساعة ، ذلك إن انتقالها إلى الغرفة المجاورة لغرفته استغرق من الوقت واستدعى من الأخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع وكان الباب الذى بين الغرفتين موصدا والمفتاح ليس فيه ، فاحتاج الأمر إلى البحث عنه . يضاف إلى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضي زمنا فى ترتيبها فى الحقائب قبل نقلها ولم تشأ أن تجلس وحدها إلى المائدة فى حجرة الطعام لئلا يثير لغطا لاضرورة إليه ، فأوصت بان يرسل إليها فى غرفتها الجديدة وأن يعد لإبراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه فى الليل إذا أحس بالجوع . وأمرت بأن لايزعجه أحد فى أى حال من الأحوال . ثم مضت الى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فالفته نائما . وأشعلت فى غرفتها سيجارة وراحت تفكر ماذا يكون العمل إذا اشتدت عليه وطأة المرض ؟ أن البوادر ليست حسنة لأن درجة الحرارة تسع وثلاثون لا نصف درجة كما كذبت عليه ، ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لا تزعجه . ولكنها ستضطر الى ذلك فى الصباح إذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحدب فإنها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولو احتاج الأمر إلى دمها لبذلته له راضية مسرورة . ولكنها على

كل مابينهما من الحب والمخالطة لم يخطر لها يوما أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ! وهو أيضا لم يعن بأن يسألها شيئا ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسنا ولذيذاً إلى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لامفر من أن تعرف بعض ماتجهل .

ولما وصلت فى تفكيرها إلى هذا الحد ، انتفضت كالمحمومة فنهضت وهى تقول :

— كلا كلا ! إنه بخير ، ولن أسأل عن شيء ! يا لله ! لماذا تغزو رأسى هذه الخواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعنى قلبى أن أتصوره بسوء ؟ لا لا لا ! هذا محال ، محال محال .

وانكفأت على السرير ودفنت وجهها فيه ويداها ممدودتان عليه ، وجاهدت مستميتة أن تنفى من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها كانت تحاول ذلك فقد ظل الحب المستغرق يوسوس لها بالخوف ويجسم الأمر فلم تطق صبراً ، وعادت إلى إبراهيم تنظر إليه وكان لايزال نائما ، ولكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره فى منامه حلم ، فنازعتها نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد مخافة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل فى وساوس وهواجس ، تتخللها اغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تذق طعاما ، ولا نوما هنيا .

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وإن كان إبراهيم قد أصبح أسوأ حالا مما بات على أنه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته وكف عن المكابرة من غير أن يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعا شاقا والسعال قد صار أسوأ والألم فى جنبه أحد ، ولكنه

مع ذلك كان يبتسم للطبيب الذى دعته ليلى ويسأل وكأن الأمر يعنى إنسانا غيره :

— والآن يا دكتور ألا تحدثنى عن هذه البنيمونيا ؟ إن اسمها لاينقل لى أى معنى ولايحدث فى ذهنى أى صورة . وأحسب أن من حقى أن أعرف شيئا عن عدوى الذى يهاجمنى إذا كان يراد منى أن أقاومه .

وكان صوته غير ضعيف ، ولكن الألفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب :

— لا صعوبة فى إفهامك ما هى ، الرئتان مكتظان بالدم — على الأقل واحدة منهما عندك ، والهواء مضطر أن يخلى المكان للدم ، فالرئة لذلك لاتكاد تعمل ومعنى هذا أن واجب الرئة الأخرى مضاعف ، وعلى القلب عبء هذا الإجهاد أظن هذا كل ماهنالك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورئتيه اللتين تهيب أحداهما بالأخرى أن تبذل أقصى مافى طوقها لإمداد صاحبهما بما يحتاج إليه من الأوكسجين وقال :

— إن هذا ممتع جدا ولا شك .

فسأله الطبيب وهو لايكاد يفهم :

— ممتع ؟ كيف ؟

وقال لنفسه : « إن البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شىء فيها إلا الامتاع » فسأله إبراهيم :

— وماهو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فإنك كلما زدتنى بيانا كان ذلك أعون لى على مساعدتك . ألا تريد أن أساعدك على العلاج ؟ » .

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليلها وقال الدكتور :

— ليس شيئا كثيرا ، مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب ، وقليل من الكونياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف الالتهاب وتهوين الألم

الذى فى جنبك . وأهم من هذا كله أن تكف عن الكلام فإن الحرارة عالية والكلام يضرك ولا ينفعك .

فقال إبراهيم :

— لا تخف . ولكن الأمر فيما أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل إلى واحدة فى الأقصر ؟ .

فتدخلت ليلى وقالت للطبيب :

— لا داعى لهذا — اليوم على الأقل ، وعسى أن لا نحتاج غدا إلى شىء ، فإنه كما ترى مريض لا يتعب .

فابتسم إبراهيم وقال :

— مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكونى واثقة جدا .

وأحس إبراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبالى فيه المرأة إلى أن تضيف إلى ليلتها الساهرة ، ثانية وثالثة إذا احتاج الأمر ، غير عابثة بأنها تقضى نهارها وليلها مع مريض مقضى عليه بالصمت . أهو الحب الذى يقويها ويشد أعصابها ، وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى جانبه ترعاه وتحنو عليه وتغمره بطهارة نفسها — وابنه ؟ ابنه ؟ هل كتب عليه . . ؟ وكبح نفسه مشجعا متصبرا ، وأراد أن يتكلف البشر ويتصنع الاطمئنان كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه متأففا ومط فمه مستنكفا ، فإن التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يخدع ؟ إنه مريض طريح وليس فى بدنه ذرة من الصحة . كل من حوله أصحاء إلا هو فإنه أسير المرض . . وهو وحده الذى يحمل عار هذا . . وسيقول كل من يسمع بمرضه « مسكين مسكين ! » حتى نجية اذا اتصل بها الخبر ستقول أنه مسكين . وسيدركها العطف عليه ، لقد أرادت أن تحطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تعبأ بذلك ولم تبال ما تهدى اليه من آلام العمر كله . ولم تخش أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءا ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بزكام ! أليس هذا

عجيبا ؟ ؟ بل سميحة أيضا ! سميحة التي لاشك أنها تبغضه ستتألم مخلصة . نعم مخلصة . مافي هذا ريب .. وإن كانت هي التي جنت عليه وعلى شوشو إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا إنه لمسكين حقا ! وعز عليه أن يكون موضع عطف أحد من الناس — قريبا كان أو غير قريب — وأنف أن يرثى له أحد . واستكبر أن يكون ذكره مقرونا بالشفقة عليه فإن العطف يضع المرء في منزلة دون الناس فبأي حق يعطفون عليه ؟ ماشأنهم هم ؟ ليكن مريضا وليكن مشفيا على الموت أيضا فإن هذا الأمر لا يعني أحد سواه ! وأقسم في سره لئن كان لابد من الموت ليفعلن ....

ولكن ما الداعي إلى التفكير في الموت ؟ ألم يقل له الطبيب :

« إني أهنئك مع ذلك ، فإنك مصاب بأهون أنواع النيمونيا لابذلك الطراز الحديث منها الذي نسميه « برونكو — بنيمونيا » ، وهو ضرب لانعرف أين نحن منه لأن الحالة لاتكاد تتحسن في موضع حتى تسوء في موضع آخر أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط ، تبدأ بسرعة ويطرد الأمر فيها إلى الأزمة بغير تقلب وبدون مناورة ، وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة ، والمهم هو الأوكسجين والنشاط ، الحيوية على الخصوص . الإرادة . فلاتنفق حيويتك في شيء آخر ولاتبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . وسنعطيك كل مامن شأنه أن يزيد حيويتك أو على الأصح يحفظها ويدخرها . ولكنك أنت العامل الأكبر في الشفاء فلا تقلق ولاتنزعج لأن الانزعاج يضعف الحيوية » .

ولم يعجب إبراهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الأكبر في الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر أجنبي عن نفس المريض ، عنصر لايتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تجيش به من الذكر والآمال ، وجعل وهو ينظر إلى السقف ينحي على الطبيب ويتهمه ، وكان واثقا وهو يفعل ذلك أنه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه أن هذا الطبيب قوي صحيح فني وسعه أن يحتمل مقدارا عظيما من الظلم من غير أن يضيره ذلك .

وقال لليلى، وهو ينظر إلى السقف، كأنما يخجل أن ينظر إليها وهو مريض:

— ألا تظنين أن الأوفق أن تطلبي ممرضة لتساعدك؟

وقالت وهي تدنو منه وتمسح فمه بالمنديل:

— غداً نرى. لاداعي لذلك اليوم. وقد وافقني الدكتور. وفي هذا مايطمئن. ولذلك أصر على الإرجاء.

فسره تعلقها بما يطمئن، ولكن الحاجة إلى الاطمئنان معناها أن هناك داعياً إلى القلق، فلم يرتح إلى هذا الخاطر. وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول:

— أنا أرى أنه لابد من ممرضة، ان المريض يجعل الغرفة كالسفينة الجارية أعني أن آلاتها لابد أن تظل دائرة ليلاً ونهاراً: بلاتوقف. والليل والنهار ليساقي البحر سوى اسمين.

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه، وخيل إليه أن تشبيهه هذا جعل مرضه يبدو طبيعياً. وذهب يفكر في غرفته كأنها سفينة، ولكن ليلى أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر ضعفاً بإلحاحه على ليلى أن تدعو ممرضة. ونسي أنه تعهد للطبيب أن يساعد نفسه، وهاهو الآن يبدو لليلى جباناً خواراً ويفضح نفسه أمامها! ولماذا؟ هل كل مايصاب بهذا المرض يموت؟ كلا! فلماذا يخشى هو أن يموت؟ وهبه مات فماذا إذن؟ انه سيلقى أجله على كل حال، فما الداعي إلى هذا الوجل السخيف؟ أي معنى لهذا القلق المزرى؟ وعلى أنه سيشفى لا محالة. نعم فإن أكبر عامل في الشفاء هو المريض نفسه. ولو أن الشيخ على مكانه لتغلب على المرض بقوة الإرادة — إرادة الفوز. ولو أن أمه هو كانت هي المريضة لغلبت المرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به، أو إذا شئت فقل بعجزها عن إدراك حقيقته ومدى خطورته — لابل بقوة الاستخفاف، بالاستهانة، بالإيمان القوى الذى يجعل النفس تتلقى كل مايصيبها باطمئنان وابتسام وقلة مبالاة بما يكون، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق، وأنه لاموجب للاكتراث.

وسكنت نفسه وهو يتصور أمه تبتسم للموت وتهش لاستقباله وتهز كتفها استخفافا به وفرحا بما بعده من جنة الله ورضوانه . وأحس بأنه قد صار أهلا لأن يكون ابنها ، وخلصت أنفاسه ، وخف الألم الذى فى جنبه ، وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الإرادة وبنجاحه فى تغليب العقل على الجسم وتحكيم الروح فى البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير فى أنسجته بل فى عضلات قلبه .

وقال وهو يبتسم :

— إنى الآن أحسن . . لقد أفادتنى !

فقالت ليلى وهى تحنو عليه :

— ماذا ؟ ما الذى أفادك ؟

فقال من غير أن يحول عينه عن السقف :

— أمى ! .

— ٣ —

من الممكن أن يغتفر القارىء لليلى أنها فتحت عدة خطابات باسم إبراهيم واطلعت على مافيها . ولاشك أن هذا غير جائز ولكنه لاشك أيضا أنها ألفت نفسها مرغمة على ذلك ، فقد كان إبراهيم لانائما ولا مستيقظا ، ولم يكن فى وسع أحد وهو ينظر إليه أن يعلم أيهما هو ، أما الواقع فذاك أنه كان بين اليقظة والمنام — يهذى ، وكان يحلم بشوشو ويرى نفسه فى بيته مع أمه وابنه وكانت شوشو تتراءى له فى حلمه كأنها سيدة البيت ، وسره هذا الحلم فراح يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوشو تبدو له رائعة بينة العطف بارعة فى إدارة البيت كفؤا لمطالبه ، وكان هو يحس أن مجرد وجودها شفاء ، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفتر أعضاءه وترخى جفونه وتشعره السعادة ، وأن كل امرىء يعبدها ويستوحيها ويستمد منها الهدايا والإرشاد .

وتعلق إبراهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصوره ويسحر نفسه بمناظره وكانت أنفاسه كأنما تعالج الخلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم تروح وتجيء بين خيوط هذا الشرك فالأمر مختلط ولكنه على هذا المديد .

ولم يكن يدرى أن ليلى واقفة إلى جانبه تنظر إلى وجهه وتلاحظه وهو يربد ثم يصفو ، وتسمعه وهو يناجي شوشو ، ولا كانت هي تدرى من عسى أن تكون شوشو هذه التي يذكرها في منامه . وقد حسبتها — ولها العذر أختا له وان كانت النبرة قد همست في أذنها لعلها زوجة أو حبيبة . ولكنها لم تسمع إبراهيم قط يذكر أحدا من أهله أو أقربائه . وأغرب من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر إلى الظروف ثم يدسها في جيبه من غير أن يفتحها ، وكان هذا يسر ليلى منه لأنها اتخذته دليلا على أنه لا يريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب ، فلو أن له زوجة أو حبيبة لدعاه الشعور بالواجب أو الحب الى قراءة هذه الكتب ولما وسعه في كل مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه ، وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟ ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أكان من المستطاع أن لا يزل لسانه أو تشي حركة واحدة بأن له سواها ؟ كلا !

وصرفها طول هذياته ، وهي إلى جانبه ، عن هذه الخواطر الشخصية فعادت تفكر فيه هو وفي واجبها حياله ، فلم يبق عندها شك في أن واجبها الأول أن تتصل بأهله إذا كان له أهل ، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها قليلا ولكنه لم يستطع أن ينفي مخاوفها كلها . وقد علمت منه أنه لا يزال أمامه بضعة أيام قد تكون خمسة وقد تزيد ، قبل الأزمة ، ولا سبيل إلى الجزم بشيء قبل ذلك ، وإن كانت الحالة العامة ، وحالة القلب على الخصوص ، لا تدعو الى القلق .

ومن غير المعقول أن تسأل إبراهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا المرض . فإن مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع في روعه أن صحته ساءت وانه في خطر ، فالطريقة للعلم بما تجهل أن تبحث بين أوراقه لعلها تهتدى إلى شيء .

ولم يكن أسهل من ذلك لأنها تتولى كل ماتقوم به الممرضة والأهل تعاونها فى ذلك إحدى خادمات الفندق كلما هد السهر قوتها ، فهى التى تسقيه الدواء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه ، وتفعل غير ذلك كل مايحتاج إليه ولا تكل أمره للخادمة الا بضع ساعات فى الليل تنامها فى غرفتها المجاورة له ، وقد استغربت وهى تبحث فى حقائبه أن ترى كل الرسائل غير مفضوضة ، وزاد عجبها أنها جميعا موضوعة فى ظرف كبير أصفر فليس عدم قراءتها يراجع إلى نسيان ، فان آية العمد هنا لاخفاء بها . ولابد أن يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهى تقول لنفسها وفى يدها الرسائل . أترى لشوشو التى يهذى بها علاقة بهذا السر ؟

ولنصف ليلى فنقول إنها طردت هـذا الخاطر وهى تمضى إلى غرفتها بالرسائل وآلت أن لاتقرأ منها إلا بقدر ماتتطلب الضرورة ، ولكنها لم تكد تفض واحدة حتى ألفت نفسها تسترسل فى القراءة وقد ذهلت عن كل شىء حتى عن مريضها — إلا سطور الشكوى المرة والفجيعة القاسية التى ينطق بها كل حرف مما كتبت شوشو فى رسائلها التى لم تلق عليها ردا ، وننصف ليلى مرة أخرى فنقول إنها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا . ولا بشىء من الشماتة أو السرور الذى كان خليقا أن يفيدها إياه علمها — الناقص — ان إبراهيم لا يجازى شوشو حبا بحب ، بل لايعنى لسبب ما حتى بقراءة رسائلها ، ومن أين لها أن تعلم أن حب إبراهيم لشوشو دفين فى صدره وأن البركان كأحر ما يكون وإن كانت فوهته لاتقذف بالحمم ؟ وإنما الذى شاع فى نفس ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من الشماتة المتنكره حتى لقد بكت عيناها وهى تتصور الهول الذى تقاسيه شوشو والذى تنم عليه رسائلها

وأضحكتها رسالة الشيخ على — أضحكتها عبارتها وان كانت مع ذلك قد كشفت لها عن جانب العناد والصلابة من نفس إبراهيم وأرتها مبلغ مافطرت عليه هذه النفس من الوعورة ، فلم يلبث ابتسامها أن غاض ، فلعبت

تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة . ولم يخالجها شك فى أن إبراهيم يطوى بين أضلاعه حكاية غريبة الأطوار .

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئا ولم يدنها من حل المشكل وكل ماعرفته أن هناك فتاة او امرأة — فتاة على الأرجح فإن الجرح جديد — تحب إبراهيم — وأن اهلها واقفون فى سبيلها ، وأنها فى جحيم من العذاب والمكايدة ، وأن هناك رجلا اسمه « على » ظاهر بين السطور أن له دالة على إبراهيم وأنه يحاول أن يتألفه من نفرته ، ورسائل شوشو من الاسكندرية ورسالة « على » من بلدة اسمها « م . . . » وقد تكون أو لاتكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « إبراهيم ، وعلى ، وشوشو »

وطوت الرسائل وهمت بإعادتها إلى حيث كانت وإذا بالخادم ينبئها أن ابراهيم مطلوب إلى التليفون ، فماذا يجيب ؟

فسألته : « من الذى يطلبه ؟ » .

قال : « أبى أن يذكر لى اسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م. . . » .

فنهضت وقد طاف برأسها أن لعله « على » صاحب الرسالة وقالت :

— حسنا . سأخاطبه بالنيابة عنه .

ومضت تعدو إلى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ على ، فعلم منها أن إبراهيم مريض وأنه مصاب بالبنيمونيا وأن له ثلاثة أيام ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ماتستطيع ، ولم تستطع هى — من ناحيتها — أن تعرف أكثر من انه الدكتور محمود ، وانه سيكون فى الأقصر بعد غد .

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحا من لهجته ولهفته ومن إعلانه إليها انتواءه الحضور إلى الأقصر أن له بابراهيم صلة وثيقة ، ورجحت أن يكون من ذوى قرابته الادنين ، فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت ، وان لها الآن أن تطمئن من ناحية الاتصال بأهله .

الفصل التاسع

(من هو جاهل فليمل الى هنا)

نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافى الدكتور محمود فى حجرة المطالعة ، وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة ، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط ، وكانا قد وصلا إلى الأقصر قبيل منتصف الليل ، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينبىء « السيدة » التى تتولى أمر ابراهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شىء فى الصباح .

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحدا ، وكان جائعا وقلقا فلم يستطع أن يستقر فى مكان ، وجعل يروح ويجىء وهو يغمغم ويتمتم ، وأنه لفى إحدى هذه الروحات والغدوات وظهره إلى الباب ، إذا بصوت ناعم حلو يقول :

— بونجور يا دكتور .

وذكر بالصوت صوتا آخر يشبهه . فهم أن يلتفت إلى مصدره ولكنه تردد فإن الخطاب ليس موجها إليه وان كان يعلم أن ليس فى الغرفة سواه ، فهل دخل غيره وهو لا يشعر؟ وخطا خطوة وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحية ، ولكنه لم يسمع شيئا فعجب وتوقف ودار على عقبيه وإذا به يرى الفتاة التى أسمعته ما يكره فى عيادة طبيب الأسنان فى الإسكندرية ، وكانت مقبلة عليه وعلى ثغرها ابتسامة وضيئة ، ويدها كأنها تتهيأ للمصافحة ، ولم يكد يراها حتى جمد فى مكانه وند عن صدره صوت لا يحسن وقعه فى اذن فتاة ولو كانت دميمة بغيضة . ولم تكد هى تراه حتى كأنما صدمها جدار ، وغاضت الابتسامة ، وامتقع وجهها وارتفعت يدها إلى خدها .

ولكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

ـ معذرة فانى لم أنس العلقة ، ولم اتوقع أن نلتقى بهذه السرعة .

فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يميناً وشمالا ، وفى عينيها كل امارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده إلى ما كان بينهما من التنابذ ، وسره ارتباكها وما توهمه من خجلها لما كان من تطاولها عليه ، وأراد أن يسرى عنها فقال وهو يدنو منها :

ـ لاتخاف فإنى وديع كالهرة وان كنت ضخما كالفيل . وما تحملت مشقة السفر لآخذ بثأرى بل لأعود مريضاً . وقد كانت بيننا حرب فليكن بيننا صلح .

ولم يصدق الشيخ على أنه هو الذى قال ذلك . ورضى عن نفسه لما قاله، فلج فى الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة .

ولم يخالج ليلى شك حين سمعت هذا الكلام منه انه هو الدكتور قريب إبراهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تفىء إلى المحاسنة وأن ترد نفسها عما همت به من المخاشنة ، وأحست أن كونه قريب ابراهيم من شأنه أن يرفع الكلفة فناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف .

ـ انى مسرورة بلقائك . وأؤكد لك أن وجودك هنا من أكبر دواعى ارتياحى واطمئنانى .

وضحكت وهى تضيف إلى ذلك :

ـ لقد صدق المثل مرة أخرى : اللى أوله خصام آخره صلح . . أليس كذلك ؟

فدارت الأرض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه أم على قدميه ، وشاعت السعادة فى جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضا ، واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها الدقيقة اللينة ويرفعها إلى شفتيه وينحنى عليها ويطبع فوقها قبلة صامتة طويلة .

فاضطرم وجه ليلى واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد رانج عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول ، وأذهلها هذا السلوك الجرىء وتنازعتها عوامل شتى متضاربة ، وكبر فى ظنها أن هذا رجل

مستهتر . وأرعبتها نظرته الناطقة باشتهاء المطمئن إلى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على يميل كالجبل ليلثم كف ليلى ، وعينه معلقة بعينيها ، وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا ، فلما هم أن يدخل أخذت عينيه هذا المنظر فكاد يجمد فى مكانه ، فما رأى قريبه قط فى مثل هذا الموقف ولا كان . يجرى له فى وهم أن للشيخ على عهداً بذلك ، ومنعه احترامه لقريبه أن يقدم على مفاجأته أو يجترىء على مقاطعته ، فارتد على عقبيه وذهب من حيث جاء وقد نسى ابراهيم لحظة وانصرف تفكيره إلى تصابى الشيخ على ومنظره وهو كالفيل يحنو على غزال ، فضحك وقال :

— ولكن من عسى تكون الفتاة ؟

وخطر له أن لعلها ممرضة ابراهيم ، فما كان يظن أن التى كلمته فى التليفون إلا ممرضة ، وله العذر ، ومن أين يعرف حقيقة الصلة التى بينها وبين إبراهيم ؟

وقال لنفسه أن هذه الفتاة لابد أن تكون الممرضه ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هذه السرعة إلى لثم الأكف إذا كانت الفتاة أجنبية أى إحدى النازلات فى الفندق ، ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها مصادفة ؟ وما دام الشيخ على يعرف كيف ينحنى ويقبل أيدى الغوانى فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء أخريات ؟

وحار الدكتور ماذا يصنع ، وليتصاب الشيخ على كما يشاء وليغازل من يحب فان هذا لا يكاد يعنيه ، وفى وسعه — أى الدكتور — أن يدعه وما يختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن يقابل الممرضة ليعود إبراهيم من غير أن يزعجه أو يحدث اضطرابا أو يثير فى نفسه المخاوف من جراء مرضه ، لابد من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد فكيف يلقاها ؟ ان موعده معها — ونظر إلى ساعته فألفاها قد جاوزت الوقت الذى عينته — فى حجرة المطالعة ، وحجرة المطالعة يشغلها هذا الدون جوان وصاحبته ، فما العمل ؟ أيبعث إليها

بالخادم يدعوها ؟ إن معنى هذا يكون أنه سينيب عنه الخادم فى مفاجأة قريبه ومقاطعته إذا كانت الفتاة هى الممرضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرامى لن يسوء وقعها فى نفس قريبه أولا ، لأن الشيخ على لن يخجل على الأرجح من خادم غريب ، وثانيا لأن الخدم — على الأرجح أيضاً — أقدر على انقاذ الموقف .

واستقر رأيه على ذلك .

ولم تكن ليلى أقل اضطرابا وحيرة ، فإن عليها أن تحتمل — من أجل إبراهيم — جرأة من توهمته طبيبا وقريبا لإبراهيم ، ثم لابد لها من صده وإلزامه حدود الأدب فملكت نفسها بجهد وقالت :

ألا تجلس ؟

فال الشيخ على إلى الكرسى وانحط عليه ، وقد نسى أنه على موعد مع الدكتور محمود فى هذه الحجرة بعينها ، وأنه قد يدخل عليهما فى أية لحظة ، ودار فى نفسه أنما تحدث عنه وهو يمزح من خطف هذه الفتاة التى أوجعته فى عيادة طبيب الأسنان ، يوشك أن يتحقق فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— قلما تصدق الأحلام ، ولكن حلمى فى هذه المرة صادق . ولعل هذا لأنه من أحلام اليقظة .

فلم تفهم ليلى ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لما تكره فقالت :

— أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلا ..

فنهض وهو يقول بلهفة :

— ولكن لماذا تذهبين وتتركينى بهذه السرعة ؟

فعجبت لسؤاله ولكنها لم تر بأسا من الشرح فقالت :

دقائق ، فإن الواجب يقضى باتخاذ الحيطة إتقاء لعواقب المفاجأة . أليس كذلك ؟

– يا عصفورى البديع ! .

ولما اختفت زاد على ذلك :

– لقد كدت والله آكلك !

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الإنسانية أن الحالة التى تكون مسئولية عليها هى التى تكسب المعانى ألوانها . بل هى التى تعين للألفاظ معانيها .

ولم تكد ليلى تسير بخطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام :

– إن الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون .

فوقفت وسألته مستغربة :

– الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟

فقال الخادم :

– الذى وصل أمس يا سيدتى :

فدهشت ليلى وقالت :

– ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثانية ، وقد تركته هنا .

وأشارت إلى غرفة المطالعة . فقال الخادم مصرا :

– كلا ياسيدتى . ان الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده الآن . .

فتلفتت ليلى كالحائرة ثم قالت :

– إذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ .

فقال الخادم : « لا أدرى يا سيدتى » .

فأيقنت ليلى أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى

كانت معه هو الدكتور ، وثارت نفسها سخطاعليه لانه تركها تظنه طبيبا ، وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لا ذنب له فى هذا الخطأ ، ومع أنها هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتتهمه وتلعنه وأحست أن كفها التى قبلها قد اتقدت فيها نار ، وقفلت راجعة وهى لا تعى ما تفعل ، واندفعت داخلة إلى غرفة المطالعة : وما كادت عينها تقع عليه حتى صاحت به :

ـــ أيها الوحش ! كيف تجرؤ ؟

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه فأحس حين سمعها كأنما وقع على نافوخه جبل . وتنكرت الابتسامة على ثغره فصار وجهه مشوها ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « ايه ؟ » بصوت مبحوح متهدج .

فصاحت به مرة أخرى .

ـــ وحش . نعم . وثور ايضا . هذا أنت ويجب أن تعلمه .

ودارت خارجة وخلفته واقفا كالتمثال .

* * *

سلم الدكتور محمود على ليلى سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وبابتسامة المتواضع ، وأشار إلى كرسى وقال بلا تمهيد :

ـــ كيف مريضك الآن ؟

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزال متوترة مما وقع بينها وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية :

ـــ لقد انتظرتك فى غرفة المطالعة . هناك كان موعدنا .

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان ، وقال وفى ظنه أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه :

ـــ معذرة . ذهبت ثم تراجعت .

وكان يحسب أن هذه الإشارة كافية ، فقالت ليلى بالحاح ولكن بفتور
— لماذا تراجعت ؟

فزاد عجب الدكتور واعتدل فى كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له
أنه ربما كان مخطئا ، ولعل الفتاة التى رآها مع قريبه غير هذه .

— رأيت فى الحجرة ناسا .

واقتصر متردداً . فتجهم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب :

— أتستطيع أن تفسر لى هذا الكلام ؟

فلفت وجهه إليها بسرعة وسألها :

أى كلام ؟

فقالت وهى تسدد إليه نظرها :

— كون وجود الناس يردك عن مقابلتى ؟

ومع اعتقاده أنها ممرضة وان كانت فى ثياب غالية ، كان فى لهجتها
من العنف وفى نظرتها من القوة وفى هيئتها من السمت ما أكرهه على احترامها.
ففرك كفيه وطأطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال :

— أرجو المعذرة إذا كنت لا أفهم ما تقصيدين إليه .

فقالت بلهجة الإصرار :

— هل كان موعدنا على خلوة ؟

فرفع رأسه فجأة وقال : « سيدتى ! » .
ولكنها لم تهتز وألحت عليه :

أجب من فضلك !

فدار حتى واجهها وقال :

— أرجو المعذرة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شىء تتكلمين
فظلت ثابتة الحملاق لا تحول نظرها وهى تقول :

— اريد ان افهم لماذا منعك وجود الناس ان تقابلني هناك بدلا من ان تدعوني إلى هنا ؟

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهربا :

— هل كنت هناك ؟

فلم تدعه يتحول بها عن الميدان الذى اختارته للمنازلة وقالت :

— أجبني أولا من فضلك .

فأطاعها وهو لا يدرى لماذا يطيعها وقال :

— اعتذر للمرة الثالثة ولكني حين هممت بالدخول احسست أن وجودى غير مناسب . . أعني . .

فزادت شدآ عليه وسألته مقاطعة :

— ماذا تعني ؟ لماذا أحسست بهذا !

فتلعثم وقال :

— ألا تعفيني ياسيدتي ؟

فقالت : « بل يجب ان تقول فإن الأمر يعنيني » .

فرأى الدكتور فرصة سانحة للتخلص وسألها :

— هل كنت أنت الواقفة مع الشيخ على ؟

فقالت لا أدرى مع من كنت واقفة ، ولكن الذى أدرى به أنه وحش قليل الأدب » .

فكأنما شكته بسيخ محمى فوثب إلى قدميه وهو يقول :

— سيدتي !

فقالت : « أيعنيك أمره ؟ » .

فقال ، وهو يعود إلى الجلوس :

— انه قريبي يا سيدتي .

فلم تنهزم وقالت :

— ان كونه قريبك لا يمنع ان يكون كما اصفه : وحشاً قليل الأدب .

فتمتم : « ولكن .. و لكن » .

فقالت : « قد عرفت ماذا هو في رأيي ، واظنك رأيت منه معي مايكفي لاقتناعك بأني لا اظامه . ألست تقول انك ارتددت فلماذا ؟ لقد تركني اتوهم انه هو الدكتور وارفع الكلفة بيني وبينه من اجل إبراهيم فجرأه الخطأ الذي اوقعني فيه على تقبيل يدى ومغازلتي . . والآن دعني منه ، وقل لي بماذا تشير قبل ان تعود إبراهيم ؟

ولكن الدكتور لم يستطع ان يتابعها على نقل الموضوع بهذه السرعة واستغرب ان تذكر ابراهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة في انها ممرضة ، بل أيقن انها ليست كذلك ، فمن عساها .. تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب اتقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال :

— فهل تسمحين لي بتعريفي بنفسك ؟

فقالت بفتور : « اوه ! يمكنك ان تدعوني ليلى ، لا بأس .

« لا بأس ؟ ماذا تراها تعني ؟ وبدأ يقول :

— هل افهم انك . . . .

فقاطعته قائلة : « لا تفهم شيئاً من فضلك . ان مافعله معي قريبك يكفيني في يومي هذا .

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم واتفقا على ان ليلى تتولى مصارحة ابراهيم بحقيقة السبب في حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلى إصرت على أن الحقيقة اولى واخف ضرراً ، وقامت ليلى لتمضي ما اتفقا عليه .

ولم تكد تمضى حتى خف الدكتور إلى الشيخ على فى غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل ويبحث حتى وجده يتناول طعام الأفطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة :

— ماهذا الذى فعلته ؟

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب :

— أهى مطاردة؟ أم مؤامرة ؟كل وأنت ساكت والا فلست والله مسئولا عما يصيبك .

.. فابتسم الدكتور وقال :

— سمعا وطاعة . ولكنى أردت أن انبهك إلى أنها ليست ممرضة .

فصاح به الشيخ على .

— أتريد ان أقطع لسانك بهذه السكين ؟

فضحك الدكتور وقال :

— وتأكله مسلوقاً أم محمراً ؟

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه ما لا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع على كرسيه وقال :

— هل عند هؤلاء الناس قهوة ؟اعنى الكفاية من القهوة ؟

فأمر بها الدكتور ، ثم قال وهو ينظر إلى الساعة :

— سأدعك لأرى ماذا صنعت ليلى . .

فاعتدل الشيخ على وسأله :

— ليلى ؟ من تكون هذه ايضاً ؟

فقال الدكتور وهو يرد الكرسى إلى الوراء وينهض :

— ليس المسئول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه انها ليست

ممرضة وحتى هذا عرفته استنتاجاً .

فعاد الشيخ على إلى الاضطجاع وقال :

— قد عرفت على الأقل اسمها . وسنرى .

فقال الدكتور وهو يبتسم :

— ارجو ان تحذر فإنها ليست فتاة عادية . ثم اننا لا نعرف من امرها شيئا ، اعنى علاقتها بإبراهيم . ان فى المسألة على ما يبدو لى لغزاً .

فقال الشيخ على متهكما :

— وانت الذى ستحله ؟ هيه ؟ اهنئك مقدما !

ثم قال بلهجة الجد :

— متى ارى إبراهيم ؟ انى لم اجىء لأحل الغازاً بل لأراه ، ومتى رايته واطمانت نفسى فإن الوقت يتسع لحل ألغازك .

فقال الدكتور : « ساخبرك بعد ان اقابل ليلى » .

فقال الشيخ على : « ما أسرع ما صرت تتكلم عنها كانها اختك ! لا بأس ، وأنا ماذا اصنع بنفسى بين هؤلاء الناس إلى أن يجيئنى الاذن ؟ »

فقال الدكتور : « يمكنك ان تتمشى فى الحديقة قليلا ، او تنتظر فى الصالون ، انها مسالة دقائق او نصف ساعة » .

فنهض الشيخ على وهو يدمدم ويقول :

— أتمشى . انتظر . انفلق . ماذا بهم ، ألست وحشا ؟ ثورا ؟ أليس كذلك ؟ ولى خوار أيضا ؟ هيه ؟

وخرج يدب ويرج الأرض .

الفصل العاشر

« ولا يعلم ان الاخيلة هناك وان فى اعماق الهاوية ضيوفها »

— ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟

وابتسم ، وبوده لو يستطيع ان يضحك ، ولكنه كان اضعف من ان يحاول ذلك او ينجح لو انه حاوله ، وكان — وهو ينظر إلى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلى ويرفع كفها الرخصة ليقبلها فيهتز كيانه كله من فرط السرور بهذا المنظر ، وقال وهو يحول وجهه إلى ليلى :

— لو التف عليك خرطومه ياليلى لما أفلت ابدا . اتعرفين انه بعد أن قص علينا مافعلت به فى الاسكندرية ، انذرنا جميعا — ولا سيما زوجته — ان يخطفك ؟

فضحكت ليلى ، ووسعها الآن ان تضحك بعد ان روت لإبراهيم ماحدث بينها وبين الشيخ على فى الأقصر والاسكندرية جميعا وعرفت ماحفل به الموقف من عناصر الخطأ المضحك وقالت :

— لقد غفرت له ، فاغفر له انت ايضا ..

فقال إبراهيم مقاطعا : « ماذا ؟ »

قالت : « تقبيله يدى .. اتغفر هذا ؟ »

فابتسم إبراهيم وقال وكأنه لم يسمع :

— ولا يزال فيلنا هائجا ، يجهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبه على رأس الدكتور محمود المسكين ، انى اعرف الشيخ على وأكاد أكون على يقين ما يفعله بالدكتور الآن ..

فقالت ليلى وهى تنهض وتمسح لإبراهيم جبينه :

— يحسن إذن أن أدعوهما الآن فقد بدأت أخشى أن يحيق بالدكتور سوء . .

فقال إبراهيم : لالالا ، إن غضبه لايضر أحدا ، ألم أقل لك إنه فيل طيب القلب ؟ » .

* * *

وقال إبراهيم وهو يمد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ على ، وعلى فمه طيف ابتسامة :

— أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتى قد اخبرتكما بكل شيء تفضل هنا يا دكتور . إلى جانبى .

قال ذلك بصوت عادى متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب .. وإن كان ضعيفا خافتا بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر إلى ليلى أو الشيخ على فأما الدكتور فاستغرب أن يكون إبراهيم قد تزوج فى هذه الفترة القصيرة ولكن الخبر لم يصدمه ، لأنه لم يكن يعرف شيئا يجعل زواج إبراهيم من أية فتاة أمرا موجبا للدهشة وشعر بأن عليه أن يعتذر لليلى من توهمه أنها ممرضة وما أدى إليه ذلك من استخفافه بها حين التقى بها فى الصالون ، فالتفت إلى ليلى وقال قبل أن يجلس :

— لقد كنت سيء الأدب فالتمس الصفح .

وعجب لليلى التى كانت تطفر إلى جانبهما وهى تدعوهما إلى غرفة إبراهيم ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها ممتقعا وجبينها مقطبا وفى نظرتها سهوم وشرود ، ولاحظ أن ابتسامها له وهى تقبل اعتذاره ، متكلف ، فعجب ، وقال لنفسه : لم أعد أفهم شيئا ، فإن هذه الألغاز أكثر وأشد تعقيدا من أن أقوى على حلها . حسن ! إن واجبى الأول هو نحو هذا المريض . وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الألغاز ان كان لحلها سبيل . وجلس .

وأما الشيخ على فقد وجم ، ودارت به الأرض ، وكاد يعثر وهو يقعد

على الكرسي . وكان كرسيا من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاه لايتسع له ، فنهض ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد إنحشر فيه فظل عالقا به ومرتفعا عن الأرض وراءه ، فثارت ثائرته ونسى أنه فى حجرة مريض وانتزعه بعنف ثم تناوله ورماه بقوة ، وصاح بهم جميعا :

— إن لم تحطموا هذا الكرسي حالا . .

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار إلى الكنبة وانحط عليها فأنت متوجعة وأغمض عينيه وراح يفكر فى إبراهيم وعناده وكبره ، وفى هذا الخلق الوعر الذى دفعه إلى الزواج من فتاة غير شوشو التى يحبها وتحبه . نعم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على فى أن إبراهيم لايزال وسيظل يحب شوشو كأحر ما أحبها ، بل كان الشيخ على واثقا أن مرض إبراهيم ليس البنيمونيا فإن هذا هراء أطباء سخفاء ، وإنما الذى به هو من أثر الصراع الهائل بينه وبين نفسه ، وليس هو بالشيخ على إذا لم يكن ظنه صائبا ، بل هو لا يعرف إبراهيم إذا لم يكن الأمر كما يتصوره . وكر الفكر به إلى شوشو المسكينة التى لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة ، شوشو التى اضطره سفره أن يعيدها إلى الاسكندرية .. إلى مكايدة سميحة وغباء نجية وكثافتها ، ولقد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أقسى وأفدح فماذا يصنع ؟ أليس الأولى به أن يطير راجعا إلى الاسكندرية ؟ ماذا يصنع هنا فى الأقصر ؟ إنه ليس بطبيب ، وقد خرج الأمر من يديه فيما يتعلق بإبراهيم ، وهو هنا لاتنقصه العناية . له طبيب يعالجه وهذا طبيب آخر معه . وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فليس إبراهيم هو الذى يحتاج إلى العناية بل شوشو .

وتوجع الشيخ على وهو قاعد على الكنبة وجعل ينفخ ويتلوى غير شاعر بمن حوله أوعابىء بهم . وكانت عيونهم لم تتحول عنه منذ رمى الكرسي وأضحكهم بثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجومه وتململه فغاض الابتسام ،

وإن كان لم يفطن أحد إلى ماف رأس الشيخ على غير إبراهيم ، ولم يفقد الموقف غير الدكتور ، فقد التفت إلى ليلى وقال :

— هل تسمحين بأخذ الشيخ إلى مكان آخر ريثما أفحص الأستاذ ؟

فقالت ليلى وهي تدنو من الشيخ على :

— تفضل معي .. دقائق ثم نعود .

فانتبه الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصيح على الأصح :

— معلش ؟

فلم يسعها إلا أن تبتسم وقالت :

— نعم . وثق أنى سأكون وديعة جدا .

— ٢ —

وتقدمته ليلى إلى غرفتها ، وأوصدت الباب وراءه وقالت وهي تسير إلى الكتبة :

— هل أدهشك أنى زوجة إبراهيم ؟

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيدا لهجوم جديد فعلقة ثالثة ، غير أن ليلى كانت تبتسم ، ولابتسامتها سحرها فقال :

— لاتؤاخذيني ، إني لم أفق بعد . ماذا كنت تقولين ؟

فقالت ليلى ، ممضية عزمها على الوصول إلى غرضها من أوجز طريق :

— أقول إنه في وسعي أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تعتمد على .

فتذكر العلقتين ، وقال :

— لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدي بك ؟

فجلست إلى جانبه وهي تكتم الضحك وقالت :

— دع هذا الآن ، وقل لي هل تعرف شوشو ؟

فنام وجهه بل أربد ، ونسي التي بجانبه وهو يقول :

— أعرفها ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ! مسكينة . مسكينة .

فقالت ليلى :

— أعرف ذلك . أعني أنها مسكينة . ولكن هذا كل ما أعرفه فزدني بها علما ، حدثني عنها .

وكان في لهجتها من الحنو ، وفي وجهها من آيات العطف ما بهت له ، وطاف برأسه كخطف البرق أن لعل إبراهيم — إيثارا منه للصراحة والاستقامة — قد ذكر لها طرفا من علاقته بها ، وخاف إذا هو أجابها إلى ماتطلب وحدثها عن شوشو ، أن يجاوز القدر الذي رأى إبراهيم أن الحزم يقضي بالاكتفاء به ، والصراحة لا تستوجب أكثر منه ، فقال وهو يحاورها :

— إذا كنت تعرفين أنها مسكينة فقد عرفت كل شيء . . فماذا تبغين ؟

وأدركت ليلى أنه متردد ، وفطنت إلى الباعث له على ذلك ، وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بأنه معذور مادام يعتقد أنها زوجة إبراهيم وايقنت أن من الإحراج القاسي أن تطالبه بالصراحة أو تدفعه أو تستدرجه إليها مادام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الحاسمة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقالت :

— إذا كان مايدعوك إلى التردد هو ظنك أني زوجة إبراهيم . .

فوثب إلى قدميه وقال :

— ظني ، ظني ؟ لست إذن . .

فجذبته إلى الكنبه ورفعت اصبعها إلى فمها محذرة وقالت :

— لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . است زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمني إليكما على أني زوجته . لقد فاجأني بذلك كما فاجأك تماما .. ولا شك أنه فعل ذلك مدفوعا بمروءة نفسه .. الشهامة هي التي ألجأته إلى وضعني في هذا المركز .. الى رفعي هذا المقام . أراد أن ينقذني .. أتفهم ؟ . أيمنعك الآن مانع أن تحدثني عن شوشو ؟ لقد قرأت رسائلها

إلى إبراهيم .. رسائلها التي لم يفتحها هو ولم يقرأها .. فتحتها أنا . وجدت نفسي مضطرة إلى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم أنه مريض . لاشك أني ارتكبت ذنباً فظيعاً .. ولكنه كان ذنباً لامفر من ارتكابه ، ولو كان أي إنسان آخر مكاني .. أو أن مدير الفندق الذي لايعنيه من أمر إبراهيم شيء . كان مكاني لما اجترأ أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض المخيف . ولكني مع الأسف لم أتبين من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى شوشو تقاسي مثل أهوال الجحيم ؟

فقال الشيخ علي ، والدمع يترقرق في جفنيه :

— هل قلت إن إبراهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟

فقالت : « نعم . وجدتها محفوظة في ظرف كبير وليس بينها واحدة مفضوضة حتى ولارسائلك أنت » .

فهز الشيخ رأسه وقال :

— لم يكذب ظني . ما أعمق الجرح الذي في صدره ! ..

ووضع يده على كتف ليلى وقال بصوت يفيض عطفاً ورقة :

— لقد كدت أصعق حين سمعت أن إبراهيم يقول إنك زوجته . . معذرة . فليس لشوشو من يحنو عليها غيري . لست أباها ولا أخاها — ولا هي لها أب أو أخ ولكني ابن عمها ، وزوج أختها . غير أنها مع هذا أقرب إلى قلبي من زوزو — زوزو بنتي . أتفهمين ؟ أحب إلي من بنتي فهل تعذرينني ؟

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو في كلامه فقال :

— ولكني لم أفقد ثقتي بالله . كان شيء يهمس في أذني أن الله أكرم وأعدل من أن يرى شوشو بقاصمة الظهر إنهما حبيبان ، صدقيني . لاتصدق إبراهيم . لايخدعك ظاهره الساكن ، إنه بئر لاقرار لها . لا أعني أنه كاذب أو غاش . ولكنا أعني أن مايدفنه في صدره لاينشر . وهو

قاس جداً . . على نفسه . . مجنون إذا شئت ولكنه جنون رائع لأنه جنون الإرادة القوية .

وقص عليها الحكاية ثم حدق في وجهها وهو يسألها :

— فهل لك في حلي ؟ إني اتوسم فيك القدرة على ما عجزنا جميعا عنه ، وإن كنت لا أعرف مكانك من نفس إبراهيم على التحقيق ، ولكن حسب أي امرىء ماسمعنا منه الآن .

فقالت ليلى مقاطعة :

— لقد كنا — أنا وإبراهيم — حبيبين أيضا ...

فقال الشيخ علي : « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ » .

قالت : نعم كنا . أما الآن فإني أخلي مكاني لشوشو »

ولم يكن يبدو عليها شيء من التمزيق الذي احتملته في صدرها حتى استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ على ظاهرها الساكن الذي تكذبه نظرتها الميتة ، فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على رأسها قبلة أبوية وقال :

— لست امرأة ، إنك ملك . لم أكن أعرف أنكما .. تالله ما أغباني ! كلا ! لست أقوى أن اسلبك إبراهيم . إنه لك . وأنت أيضا أهل لذلك .

وفي هذه اللحظة سمعا نقرا فنهضت ليلى خفيفة لتفتح الباب .

الفصل الحادى عشر

« مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون »

وضعت ليلى يدهـــا على أكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لاتنظر ، فقد كان السكون المخيم فى غرفة إبراهيم رائعا ، ولعل القارىء يعرف ذلك السكون الذى يسود النفس فكأنه يتخـــلل الجسم وينفذ إلى القلب ثم يذهب يغرد ويشدو بمدح لاشيء . أو لعله جرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجأة ويشيع فيها ويفشو . . والذى لا سبيل إلى العبارة عنه — ذلك الإحساس الذى يخيل للإنسان أنه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو أنه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى أعماق سريرته : « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب الخشن ؟ وما هو معنى أن يكون الإنسان حيا ؟ » وما أظن إلا أن كل إنسان قد جرب ذلك السكون الذى يجعله يتوهم أنه يحلم بنفسه وأن حياته وجسمه وكل شيء — كل أولئك ليس سوى حلم يتراءى له ، وإن كل ما يبدو لعينه ويجده قلبه ويجنه صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا . .

ومضت ليلى خفيفة إلى السرير ففتح إبراهيم عينه ببطء على سواد الليل — فقد كان النوم لايؤاتيه فى النور — وقال :

— من أين جاء هذا العرق كله ، لكأنى فى مغطس .

ولم يكن الكلام موجها إلى أحد بعينه ، ولعله لم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلى حنت عليه ودست يدها تحت المـــلاءة البيضاء ثم قالت وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وأن كانت الظلمة قد حالت بين إبراهيم وبين الرؤية :

— مبروك . مبروك .

فرفع إليها عينا فيها من الدهشة والسرور الغامض معان وقال :

— مبروك ؟ ماذا تعنين ؟

— إنها آية الشفاء ، ألم تكن تعلم ؟

فقال : كلا . .

فقالت وهي تضحك :

— نعم ، وقد كنت جالسة انتظر . فقد أنبأني الدكتور محمود — ما أصدق فراسته — أنه يتوقع أن تكون الليلة هي الفاصلة ، فإما أن يشتد المرض ويتفاقم الحال ، وإما أن تهبط درجة الحرارة ويكثر العرق ويبدأ التماثل للشفاء ، وهذا هو الأرجح فيما رأى ، وقد حقق الله ظنه ، ألا تحس أن الحمى قد خفت كثيرا ؟

فلم يجبها ابراهيم ، ولم تلح ليلى في الاجابة ، لأنها كانت أعرف به من أن تثقل عليه ، ثم لأنه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى جافة . وذهب هو يفكر في العرق الشافي الذى أنبأته ليلى أنه بشير التعافي . وقال لنفسه اذا كان هذا كذلك فان أول ما يجب عليه هو أن يعصر نفسه حتى لا تبقى في بدنه قطرة من الماء كأنما كان هذا شيئا تنفع فيه الارادة .

والتفت إبراهيم لليلى — على نور الكهرباء — وقال :

— والآن ماذا يجب على أن أصنع ؟

وقالت : « تنام وتعرق ولا تجهد نفسك بالتفكير . وبرغمي أقول ذلك فإني فرحة . . »

قال : « سمعا وطاعة . اطفئي الأنوار إذن واذهبي إلى غرفتك فما أظنك اغتمض لك جفن في ليلتك هذه — ليلة الفصل . هه ؟

فابتسم له قلبها في عينيها ، والثمته ومضت عنه في صمت .

❋ ❋ ❋

ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لها شوشو — لا على حقيقتها بل في

صورة أفتن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف — وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمد لم تطق معها الاستقرار وودت لو أن عندها منها صورة ، وتذكرت مادار بينها وبين الشيخ على وعجبت له ولنفسها كيف تصارحا بسرعة على ماكان بينهما من الجفوة وفساد الحال ، وأحست أن قلبها يغمره الإكبار للشيخ على الذى وسع قلبه كل هذا العطف والاخلاص حتى لقد أفاض عليها من مروءته وأعداها بكرم النفس فبذلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو ، وإن كان حبها لإبراهيم واسعا عظيما ، وجرها ذلك إلى التفكير فى إبراهيم . أتراه يحبها ويحب شوشو فى آن معا : أما أنه يحب شوشو فهذا مالا مجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على وإن فى صمت إبراهيم فى الأحيان الكثيرة وشرود ذهنه واكتئابه وتلقيه ماتجىء به الأيام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غد — لدليلا على أنه يطوى أضالعه على هم مخامر ، وأى هم هناك غير حبه الخائب ! ولكن لماذا خاب هذا الحب ولم يؤت ثمرته ؟ إنه متبادل إذا صح ماسمعته من الشيخ على ، ومع ذلك يأبى إبراهيم ان يفض كتب شوشو إليه وإن كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار أو يمزقها . فكأن إبراهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما . ولكن بقية من الرقة أو الضعف أو الحنين الذى لم يغلب تغريه بالتحفظ بهذه الكتب فما أقواه وأضعفه . وأقساه وأرقه . ومن أولى من ليلى أن تستخلص من هذا كله مايحفل به من دلائل الحب المكتوم والوجد المغالب والكبرياء العصية ؟

وأما أنه يحبها — أى ليلى — فهذا أيضاً لا يرتقى اليه الشك فما تخفى آيات الحب . وليست ليلى بالتى يلتبس عليها التصنيع بالاخلاص فقد جربت الدنيا وخبرت الناس وطوفت فى الأرض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنها .. ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وإبراهيم ، ألم يقل لها إنها ستشقى بسببه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . وإذا كانت قد وطنت نفسها على الحرمان وآلت أن تحقق

حبها له من أجل شوشو فإن في ذلك سعادة لاتعدلها سعادة الحب الرخى المطمئن . وهي التي قاست وتعذبت حقيقة ان يدركها العطف على أمثالها . وسيبقى لها حب إبراهيم تتعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل إذا اتصلت أسبابه بأسباب شوشو يظل تصبو إليها نفسه ؟ .

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الأنانية مخافة ان تطغى فتعفى على استعدادها للإيثار والتضحية ، وتعصف بعزمها على إنكار ذاتها . وأرعبها أنها بدأت تحس أن هذه ليست أنانية وأن الإخلاص للنفس راجب مقدم على الاخلاص للغير . وان الانسان لا يطالب بالايثار إذا تقاضاه حق النفس . وأن هناك حدا معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وان الدنيا لاتزيد بذلك فردا سعيدا ولا تنقص واحدا شقيا ثم إنها لم تكن لها يد فيا كان فليست عليها تبعة ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع بالعيش بعد رد إبراهيم إلى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغى أن يكون لإبراهيم رأى فى الموضوع ؟ أهى كل شىء وليس لإبراهيم وزن ؟ لماذا أعلن إبراهيم إلى قريبه أن ليلى زوجته إذا كان يشتهى أن يرتد إلى شوشو ؟ أليس فى هذا دليل قاطع على أنه اراد ان يحسم الموضوع ومثل إبراهيم لايرد خطأه ولا ينكص على عقبه ، وإنه لمن الطراز الذى يهون عليه أن يمشى إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى الناس فيه ضعفا او يحسوا منه الحنين إلى ماصرف نفسه عنه .

والشيخ على لاشك يعلم ذلك ، فإنها ابرز صفات إبراهيم ، وإن كان لا يتوقع بها بل لعله لايفطن إليها او يقدرها قدرها ، كالشلال الذى ينحدر بقوته الراغبة غير المحسة ، واستراحت ليلى إلى هذا التشبيه وإن لم تخف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها إذا كان فى وسع الشلال ان ينثنى راجعا فى تدفقه ، فإن فى مقدور إبراهيم أن يكر إلى شوشو ، وقد يتلهف على هذه الكرة ، ولكنه لايستطيع ، لا لأنه لايريد بل

لأن الكر ينافي طبيعته ، ولم يسر ليلى أن إبراهيم قد يشتاق ويتلهف إليها قلبه ولكنه لايقدر أن يرجع . وأحست أن هذا لايكون فوزا لها بل امتهانا لوجودها ، وأنكرت من نفسها أن يخطر لها أنها تقبل هذا الموقف ثم جعلت تسائل نفسها : ألا يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟

وراحت تتصور أن إبراهيم لايحبها ولكنه يتسلى بها ويتعزى ! وأن مزيتها عنده أنه كان حتيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو ، وحز في نفسها هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض أن تصدقه ، وأبى لها احترامها لنفسها إلا أن تكر إلى الثقة بإخلاص إبراهيم وصدق سريرته في حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنفي كان من فضله مع ذلك أن شحذ عزمها على الوفاء بعهدها للشيخ على :

الفصل الثانى

« وقالت سارة : قد صنع الله لى ضحكا »

حارت ليلى ماذا تصنع ، وكيف تفى بعهدها للشيخ على أن تكون عونا له فى سبيل شوشو ، وكثيرا ما كانت الوساوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها إن هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل وإنه ما من امرأة يجوز أن تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع أن ليلى اندفعت وهى مضطربة إلى بذل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروءة القلب ، وقد وسعها — وإبراهيم مريض — أن تحتفظ بهذا المستوى ، فلما عوفى إبراهيم وعادت إليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى ، بدأت الشكوك تخالجها والشبه تدور بنفسها . وساعدها على ذلك أن إبراهيم صار أكثر صمتا وأقل كلاما وأشد شروداً ، وأنها تحس ، وهى معه كأنه يذودها عن نفسه ، ويمنعها أن تطلع على مايطرف برأسه . ويشرع — بصمته وبجهامته — مثل شوك القنفذ ، فكانت تقول لنفسها « مالى أنا والشوشو ؟ لست أعرفها ولا انا رأيت وجهها ، فليس لها فى حياتى وجود ، ولا لها فى ذاكرتى محل ، إن هى إلا اسم — لم تبلغ حتى أن تكون خيالا — أربعة حروف لا أكثر — أربعة حروف لا ترسم فى نفسى صورة ولا أجد لها فى ذهنى تخطيطاً . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد فى وجهى فجاج الحياة وتسود فى عينى نور الضحى فلماذا ؟ من وهم أنا خالقته ؟ أترانى أخشى أن يتلفت قلب إبراهيم ، وأن ترده الصبوة إلى شوشو ؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وأنه ليحبها مافى ذلك شك — ولكن من أين جاءنى هذا اليقين ؟ أمن أجل أن الشيخ على يزعم ذلك يكون هو الحق ؟ وأن إبراهيم ليحبنى أيضا — أيضا ؟ أقول أيضا ؟

واضيعتاه إذن ! بل هو يحبني وحدي ولى قلبه كله — كل لفتة وكل صبوة وكل حنة وخفقة . لى أنا وحدى وكيف يمكن أن يشرك بى غيرى ؟ لست مغرورة . ولقد فتحت الدنيا عينى جيدا — فتحتها حتى لا غمض لهما — فلو أن فى قلبه حبا لها — لشوشو — لأحسست التفاتة قلبه . . للمحت طيف هذا الحب فى عينيه . كلا . ليس على هذا العرش سواى .

ومن متناقضات النفس الإنسانية أن ليلى ربما ساءها وكربها أنها وحدها التى تستوى على هذا العرش وأنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن ليس لها مزاحم ، فتعمد إلى غزلها فتنقضه لتثبت لنفسها ان لها شريكا ، بل إنها هى التى تجاهد لتزحزح شوشو وتخلى لنفسها مكانا إلى جانبها . وتحس أن هذه القدرة على الغزل ثم النقض ، وعلى الإثبات ثم النفى ، قد أفادتها سرورا وإن لم تفدها راحة وسعادة .

ثم حدث ماقوى عزمها على مايوافق طبيعتها ويلائم مزاجها .

ذلك أنها كانت عصر يوم فى غرفتها تفكر فى ثوب تلبسه . فلما أعياها الاختيار نادت إبراهيم ليعاونها . وكان الباب بينهما مواربا كالعادة . فأقبل عليها يسألها ما الخبر ، وفى هذه اللحظة نقر الخادم على الباب فمضت إليه تفتحه فناولها خطابا فمدت يدها ، ولكن يدها ظلت تدور حول الخطاب لا تقع عليه . وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذى يكسو الحائط وأحست كأن الغرفة تدور بها وتترجح أيضا . ولمحت إبراهيم وهو مقبل عليها يسألها وفى وجه آية الفزع :

— ماذا جرى يا ليلى ؟ اجلسى .

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونته :

— إن لونها ممتقع جدا ياسيدى .

وقعدت ليلى على الكرسى ثم تنهدت وقالت : « كلا . لاشىء إن رسم الورق هو الذى أدار رأسى .

قالت ذلك كأنها تعتقد بإخلاص أن الرسم هو الذى أحدث لها هذا

الدوار لسبب غير مفهوم وعلة ليست بالواضحة . وذهب الدوار بأسرع مما جاء فقالت باسمة :

— لقد انتهى كل شيء . أفقت تماما .

فقال إبراهيم : « ما أغرب هذا » وضحك .

وفتحت ليلى الخطاب فى سكون ، وكان من الشيخ على ، الذى واظب على الكتابة إليها كل بضعة أيام وأحيانا كل يوم بأسلوبه الموجز المضحك ، ثم مدت به أصبعين إلى إبراهيم فى صمت فقرأ فيه :

« متى أراك ؟ لا للشوق إليك فلا تغترى ! أما إبراهيم فلا أدرى لماذا جهد أن يشفى ؟ أو بعبارة أخرى لماذا تكلف أن عرض مادام أنه لم يكن ينوى أن يموت ؟ سليه بالله لماذا يعيش ؟ وأجيبى أو لا تجيبى فانك مثله أو شر منه » .

وفى ذيل هذه الأسئلة التى لا تستحق طابع البريد ، امضاؤه ، وهى أغرب من الأسئلة ، فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجردا بل بهاتين الكلمتين « الشيخ على » وإن كان كما عرف القارىء لم يحرص على زى الشيوخ .

ولم تقل لإبراهيم أن هذا ليس بأول كتاب منه ، ولعلها لم تطلعه عليه إلا لخلوه من كل إشارة إلى ما تآمرا عليه ، ولم يجر لإبراهيم فى بال أن هذا الكتاب حلقة فى سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ على إلى بلدته ثم إلى الإسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف الأمر عند هذا الحد .

وشاءت المقادير أن تتلقى ليلى بعد بضعة أيام كتابا آخر من الشيخ على .

وكانت جالسة مع إبراهيم فى الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية وكانا قد طلبا الشاى وذهبا فى انتظاره يتحدثان ، فتناولته بكف غير ثابتة

وجعلت تنظر إلى الخط الواضح على الظرف وتتأمل اسمها مكتوبا بالخط الجليل على خلاف بقية العنوان . فخيل إليها أنه ليس اسمها بل اسم امرأة غيرها ولعله اسم فتاة غريرة حديثة عهد بالدنيا والحياة والحب والأنوثة الناضجة على الخصوص . وأحست أن رأسها يدور ويدور . ونظر إليها إبراهيم فأزعجه اصفرار وجهها واتساع عينيها وثبات حملاقها وأن حول جفونها مثل مدار الكهف .

واضطرب رأسها واختل توازنها وقالت : « هذا هو الدوار مرة أخرى ! أترى سيغمى على هذه المرة ؟ » .

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس إبراهيم إلى جانبها ، وتراه وهو يميل إليها وكأنه يتهيأ للوقوف ! وتفلت الخطاب من أصابعها إلى الأرض فصوبت عينيها إليه واتبعته نظارتها ! وهي تظن أنها تفعل ذلك عامدة وبإرادتها وكانت الأرض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها « سيغمى على هذه المرة . ولكن ينبغي ألا يحدث ذلك وعلى وجه الخصوص أمام كل هؤلاء الناس . وإبراهيم لا يزال ضعيفا فهل تره يقوى على حملي ؟ » .

واضطربت رجلاها وإن كانت جالسة . وشاع في نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وبانتفاء كل اتزان فتمتمت في ضعف « أوه ! » .

— ٣ —

قال الطبيب بصوت رقيق : « لقد أغمي عليك . هذا كل ما حدث » .

وتبين لها شيئا فشيئا أنها راقدة في سريرها في غرفتها . وأن ليس معها سوى الطبيب — على كرسي إلى جانب السرير — فرفعت عينيها إلى وجهه فألفته مشرقا وضاحا ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها .

فقالت : « ماذا ؟ » .

فقال : « ينبغي أن تكوني أشد عناية بنفسك . ولعله أولى بك أن تستريحي الليلة في فراشك »

فقالت وهي تحس أن كل مقـــــاومة من جانبها قد زالت ، وأن استسلامها تام :

ـ أظن أني حامل . . و . . يجب . .

فقال الطبيب : « أوه ! هذه هي المسألة إذن ؟ » .

وعجبت لنفسها كيف وسعها أن تنطق بهذه العبارة في بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب أهي زوجة إبراهيم أم خليلته بل لم تعبأ به ماذا عسى أن يظن . على أن الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئا ولم يعن إلا بالحالة التي أمامه ، فقال :

ـ حسن ، سنرى . أظنك تستطيعين أن تجلسي الآن ، هيه ؟

وبعد نحو ساعة كان معها إبراهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل بتلك الحقيقة الضخمة التي تنطوي عليها انطواء حقيقيا لا مجازيا . لأنها لم تفض إليه بشيء مؤثرة أن تكتم الأمر حتى تفكر على مهل .

الفصل الثالث عشر

« فى وقت المساء ، ذا رعب ، قبل الصبح ليسواهم »

ياجمال المرأة ! إنه فتنة الحياة كلها مختزنة فى ركيانها الدقيق فما أعجب ألا يراه الناس كما يجب رؤيته ويحسوه كما ينبغى أن يحسوا ! بل ما أغرب أن يكون فى الناس من يجنبه ! فهل يفعلون ذلك لفرط إحساسهم به ودقة إدراكهم له أو لعمى عنه وبلادة تقيهم وتحمى جلدهم أن يحترق ؟ وماذا ترى يعميهم ؟ أهى « العلوم » ؟ أم ترى الذى يضلهم هو « الفن » ؟ أم هى الفلسفة التى تغويهم وتميل بهم إلى الأرباب المزيفة ؟

لا ندرى ولا نظن أن هناك من يدرى ، وكل ما نعلمه أن ليلى كانت راقدة إلى جانب إبراهيم وأنها كانت ترامقه من خلال أهدابها الطويلة السوداء ، وأنه كان يجتلى فى صقال عينيها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التى لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الأرضية .

ولثمها ، غير أنه أحس أن اللثمات عبث وباطل ، وأنها فراشات تتساقط إلى نار الجوع التى يحسها طاغية ، ومع أن ليلى جهدت أن تسقيه حتى تغشيه ، وأن تعطيه حتى ترضيه . فقد كان يخيل إليه وهو مستلق إلى جانبها أنه يستطيع أن يرى الكون وأن يقدره ، مختزلا فى جسم جميل ، ولا يستطيع أن يستحوذ عليه ولا يدخل فى مقدوره أن يجعل استيلاءه عليه تاما كاملا ، وكان هذا الشعور يكاد يجنه وكان يعنى نفسه بأن يسألها : « لماذا يعجز الإنسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء ما يناله ، شيئا آخر يشتهى ويراغ ، شيئا أفتن وأمتع ؟ أهى طبيعة الحب الخبيثة الماكرة ؟ أم هذا سر المرأة وسحرها ؟ وتا الله

ما أضأل هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبة ! علوا وسفلا؟ وياليت من يمكن يدى من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ؟ »

واسودت نظرته ولمحت ذلك فسألته باسمة :

— قل ، قل حالا !

فقال بلهجة اليائس :

— ليس لى حيلة . بزغمى هذا .

فمدت ذراعها البضه العارية وجذبت إليه وجهه وقالت :

— بل يجب أن تكون لك حيلة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة فيها من الرضى والمرارة معا :

— كل ذلك حلم . لا أنت حقيقة ولا هذا . لبلى !

فضمته إليها وهى تهمس فى أذنه :

— أوه ! أهذا كل شىء ؟

واغرورقت عيناها بكرهها ، وإن كان ثغرها قد ظل يفتر ، وراءها ما تضمره لهذا القلب الذى يدق .

— ويلى ما أحقرنى ! سامحينى .

وحنا على عروس أهوائه يقبلها ويرد الدموع عن مقلتيها ، وهى تتنهد .

وهو يشعر أن بجوعه قد صعد إلى السماء وهبط إلى الظلال وحدث نفسه أن قد صدق من قال إن الحب قوامه التطلع .

ونظر إلى وجهها مرة أخرى فألفاه ساكنا : شعرها على الوسادة وعيناها مغمضتان وأهدابها مرسلة على خديها ، فأهوى على كتفها وجيدها يلثمهما فقالت :

— هل تعرف فيما كنت أفكر ؟

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

— فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبنى سأتزوجه يوما ما .

فقال بلهجة ساكنة :

— بل ستتزوجيني أنا يا فتاتي البلهاء .

وكان هذا ما تخشى أن تسمعه وإن كان مما تحب . فتكلفت البشر وقالت تعاتبه وفي مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع :

— صحيح ؟ بذمتك ؟

قال : بذمتي !

قالت ملحة : أتعني ما تقول ؟

قال : نعم .

قالت : وتتجشم متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟

قال : أعدك .

قالت مسترسلة في عبثها :

— يا للحبيب الطيب القلب ، السخي النفس ، العريض الأمل ! وقريبا ؟ جدا ؟

قال : ليلى ! هل تسخرين مني ؟

قالت : كلا ! لست أسخر .

قال : إن هذه اللحظة رهيبة في حياتي . فأنصتي من فضلك . هل توافقين على الزواج مني ؟

فرقص قلبها ولكنه هبط أيضا في صدرها . ثم هبطت نفسها وقالت :

— يا حبيبي المسكين هل جننت ؟

فقال : « إذن كنت تسخرين مني »

قالت وقد غيرت خطتها بسرعة :

— هل أتزوجك ؟ أنا ؟ إنه يسألني !

قال وهو حائر ماذا يفهم :

— ليلى !

فلم تمهله وقالت :

— هل تستطيع أن تتصور أن لا أتزوجك ؟

فابتسم وهو يقول :

— هل أستطيع ! ؟ كأني كففت عن أن أتصور ذلك ؟

قالت : يالغباء الحبيب ! وهو أديب أيضا !

قال : أعيدي على مسمعي .

فأسرعت تقاطعه :

— إني أحبك ؟ لا شك في ذلك ! هذا قرار لا رجوع فيه . فهل تحبني أنت ؟

فاتكأ على ذراعه وقال :

— ابقي عينك مفتوحة فإني أريد أن أنظر فيها

قالت وهي تهز رأسها :

— لا أستطيع .

ولمعت عيناها ورقص الضحك فيهما وهي تقول :

— إبراهيم ! شفتاك . . الأحمر !

فقبلها غير عابيء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت :

— هذه القبلة ناقصة . لم تبلغ كمالها .

فسألها ضاحكا : أتظنين هذا ، ولكن من أين علمت بكل هذا ؟

فشعرت أن سؤاله فتح لها بابا إلى إمضاء عزمها فقالت :

— لا تكن غبيا .

قال : أغبي أنا ؟

قالت : نعم يا حبيبي . هذا ما تعلمته في السيارات وأنا عائدة إلى بيتي بعد السهرات .

قال : ليلى !

قالت : نعم ولكنه علم لا خير فيه . ليس فيه حياة . إنها لثات لا تبعث الإحساس الجنسى .

فنأى عنها قليلا وهو يحدق فيها ليتبين أجادة أم هازلة . وأيقنت من وقع كلامها فمضت تقول :

— نعم لثمات فاترة ليس فيها حرارة أو قدرة على الأعداء . من رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار — من أقوياء وضعاف — من ظرفاء وثقلاء — من مؤمنين وملاحدة — من ضباط وو . .

فصاح بها وقد عيل صبره :

— ليلى ! لا أحتمل هذا !

فقالت بعناد : كذلك لم يكونوا يحتملون . أظن جمـــالى كان يتركهم مبهوتين .

قال : حسبك ! أمسكى !

قالت : يا ملاكى العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع بوجهك ؟ أدره إلى .

فقال متكلفا : أحاول أن أنسى ما ضيك هذا . ما أعطر شعرك !

فلم تدعه وقالت : الماضى لا ينسى . إنه أنا .

قال : لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .

فألقت إليه نظرة حافلة بالألغاز وقالت وقد اكتفت بإثارة شكوكه :

— يالك من غبى ، سأقبل جبينك .

ووثبت إلى الأرض وخلفته شارد الذهن موزع اللب ، يتصور هذا الماضى الذى أطلعته على فهرس كتابه ، ثم سمع صوت حرير فالتفت فرأى قميصا يزل عن جسمها إلى البساط وهى تتناول قميصا غيره بأقل ما يتصور من الاحتفال أو العجلة ، فصاح بها :

— ليلى ! اقسمى !

فأحست أنها تنتزع أحشاءها وهى تقول :

ـ ألم أقل لك انك غبى ؟ نعم اقسم بالله وكتابه .

ـ ٢ ـ

ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء ـ وهذا غريب ثم ذهب يفكر وهى تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدى ثيابها ، فخيل إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقابح ، وأن الحياة فنها ـ أقوى فنونها ـ التثبيط ـ وأن الإنسان يعيش فى سنين وسنين ، ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذى يسعك أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل . وانا نعلم ذلك ونحن نسعى فى الدنيا ونبغى الناس ، وإن خاتمة كل حياة الأسف والندم هما جبل ينمو معنا طالعا من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه فى صبانا ، وما أكثر ما نتوهمه جبلا رائعا جليلا ، وانه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ، ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لا نلبث على الأيام أن نتسهل ونذير عيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس وأودية السقوط ، ومع ذلك نظل نصعد فى جبل الندامة ، وماذا عسانا نصنع غير ذلك ؟ ويجىء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ونعيى بالاصعاد فنقعد على قمة مريحة وننظر إلى جداول الحياة المنحدرة ، الحياة التى تظل تترقرق ويظل واديها خصيبا وإن جففنا نحن ونشفنا واحدا بعد واحد ، فنتعلل بذكرياتنا وتبدو لنا هذه الذكريات أجمل وأسبى من الحوادث التى ولدتها .

والمصادفة أصل كل حادث فى هذه الدنيا التى يخيل إلى المرء أن والحياة ، حدثت فيها بالمصادفة فإذا لم تكن هى الاصل — أو إذا كان هناك من يشق عليه أن يعدها كذلك — فلا أقل من أن نعترف بأنه ما من حدث إلا لها فيه أصبع غليظة ، وإن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لايخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على كل حال أن المصادفة كان لها تأثير حاسم فى هذه الفترة من حياة إبراهيم فقدكان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلى . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ؛ ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له فى وهم أن بمركزها حاجة إلى التصحيح ولا كانت وهى أنبأته بالحياة الجديدة فى أحشائها ، وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكايدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلى بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الإضراب عن التفكير فى المستقبل مقيسا إلى الماضى ، ومع تردده وإشفاقه كاد حبه لها يطغى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير المادىء توسع فى عينيه ما ضيقه العرف ، لولا أن ليلى مدت يدها فجأة فأنقذته .

وكان من المتفق عليه فيما بينهما أن الرحيل قد آن جدا ، فقد غاب عن أمه وابنه شهورا ، وعن عمله كذلك وإن كانت صلته به لم تنقطع إلا فى فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلى — إلى الاسكندرية موطنها — على أن توافيه بعد ذلك فى القاهرة . وفيما عدا ذلك لم تكن هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لان ليلى كانت تتلفت وإبراهيم كان مضطربا .

وفى عصر اليوم الذى استعدت فيه ليلى للسفر فى مسائه دخل إبراهيم غرفته فلمح خطابا ملقى بغير عناية على مخدة السرير ، وكان الظرف مقلوبا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكد يقلبه ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما قرأ فيه :

— . . . نعم ياصاحبى . . هذا آخر كل حب . . الملال — الفتور . . ولست أكتمك أنى مللت وأنى أصبحت أشعر بالفتور حين يناديني قلبك المضطرم . المستقبل كما ترى لاأمل فيه ، وخير لى ولك أن نقصر من الآن وما زالت فى القلب صبوة . .

« . . . ولو أن حبك لم يحجب نظرك . . أو أنك لم تسلم نفسك لعاطفتك واثقا من استجابتى لها مطمئنا إلى ذلك لما استطعت أن أخدعك عن حقيقة ما أظهر ولكنت حقيقا أن تفطن إلى تكلفى . . نعم كنت أتكلف . . أتصنع الذوبان بين ذراعيك وأنت تضمنى وتعصرنى . . أتصنع أن أبدو لك كأن روحى كلها قد صارت على شفتى وأنت تمصها وتعضها ، وأطلت من عينى وأنت تحدق فيها وتمسح لى شعرى . . هى صناعة أتقنها ياصاحبى بالمرانة والتدريب فلا عجب أن خدعتك . . . »

ولم يستطع أن يقرأ أكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة وكان الاشمئزاز أقوى ما أحس ، ودار رأسه واسودت الدنيا فى عينيه وخيل إليه أن هذه ليست خيبة أمل فحسب ، بل أنها جنازة كل أمل وكل حلم وكل خير — بل جنازة النفس الإنسانية .

وبعد عراك عنيف استطاع أن يصد نفسه عن الاسترسال فى هذه الخواطر المقنطة ، فوضع الخطاب فى ظرفه وألقى به على المخدة . وشاءت المقادير أن يرتمى الظرف مقلوبا كما كان — أى أن تكون الكتابة الى أسفل ، وان يكون

طرفه المفتوح إلى أعلى ، ونهض وفتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظة إلى قاع هاوية ، ولبث كذلك لايدرى كم ، وإذا بالباب يفتح فى خفة وهو لاه بخواطره لايشعر بما حوله ، ودخلت ليلى على أطراف أصابعها ، ورمت إلى السرير نظرة وإلى إبراهيم أخرى فوقع من نفسها جموده وذهوله ومضت خفيفة الى السرير فتناولت خطابها ودسته فى صدرها وهى تحسب — لأنها وجدته كما تركته — أن إبراهيم لم يلتفت إليه .

ودنت منه وسألته فى رقة « مالك ؟ » .

فسرت فى بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

— لا شىء ! صداع بسيط .

ثم ابتسم سخرا من نفسه واحتقارا للدنيا كلها ، فلولا عمق شعوره فى هذه اللحظة بهوان الحياة ، لصفعها أوركلها أو بصق فى وجهها .

— ٤ —

لما صارت ليلى فى بيتها على شاطىء البحر فى الرمل قالت للشيخ على فى أولى زياراته لها :

— لقد نجوت ولما أكد ، كان هذا الخطاب قسوة شنيعة — عليه وعلى أيضا ، فلما رأيته حيث وضعته لم تمسسه يد حمدت الله وتشهدت .

فقال الشيخ على :

— وماذا كتبت فى خطابك هذا ؟

فقرأت منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك لم يحجب نظرك الخ » فاندلعت النار فى وجهها الأسمر وطوت الخطاب وهى تقول :

— كلا . لاأستطيع .. ولست أدرى كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام؟

فزام الشيخ على ولم يقل شيئا واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك

جبينه العريض بأطراف أصابعه ثم التفت إليها فجاة وسألها :

ــ أواثقة أنت أنه لم يقرأ هذا الخطاب ؟

فأزعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تطمئن نفسها :

ــ كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؟ ثم أنه لم يشر إليه قط !

فهز الشيخ على رأسه وقال :

ــ لاأدرى فما كنت معه . ولكنى واثق أنه اطلع عليه .

فأقبلت عليه تسأله : « هل كتب إليك ؟ هل فى خطاباته إشارة ولو خفية ؟ » .

فقهقه الشيخ على ثم قال :

ــ يافتاتى البلهاء لقد عاشرت إبراهيم كم شهرا ؟ ومع ذلك لاتعرفينه كتب إلى حقا ؟ هو يكتب ؟؟ بل أجزم أنه قرأه . . وأن صداعه كان تعمية .

ثم نهض وهو يقول :

ــ أخشى . . .

فسألته بلهفة « ماذا ؟ »

قال : « أخشى أن أكون قد جلبت عليك احتقار ابراهيم ، لا أبالى أن يكرهك ولكن الاحتقار ! الاحتقار ! »

القسم الرابع

« فعدت ورأيت تحت الشمس
ان السعي ليس للخفيف ، ولا
الحرب للاقوياء ، ولا الخبز للحكماء
ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة
لذوي المعرفة ، لانه الوقت
والعرض يلاقيانهم كافة » .

الفصل الأول

لأنه فى الباطل يجىء ، وفى الظلام يذهب ، واسمه يغطى بالظلام

— ١ —

الأيام فيما يزعم الناس ، كفيلة بأن تعفى على كل شىء ، ولكن إبراهيم يقول — مغرباً ملغزاً — إنها قلما تستطيع أن تعفى على كل شىء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة . ولا ندرى ماذا يعنى على التحقيق ، ولكن الذى ندريه أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الأقصر ، تلقى كتاباً طويلا من ليلى — هو الأول والآخر فيما نعلم — ولم يتلقه ، بل وجده على مكتبه فى منتصف ليلة من ليالى أكتوبر ، وكان قد عاد متأخراً . فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى إلى مكتبته على عادته قبل النوم ، فقضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للخط — خط من يكون ؟ فإن الخط السورى على العموم أشبه بالفارسى — ولعل ذلك أثر من حكم الأتراك — وهذا أشبه بأن يكون خط امرأة ، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وإن كانت ذاكرته الخوانة لا تسعفه فمن عساها تكون هذه الكاتبة ؟

ولم يشأ أن يسترسل فى الحدس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة إلى الحسم ، فقعد وفض الكتاب فإذا هو ورقات عديدة مذيلة باسم « ليلى » .

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع :

— نعم هو خط ليلى . فما أسرع مانسيناه ! فماذا عساها تصنع فى سورية وماذا تراها تقول ؟ ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يبتسم فقرأ فيه :

« . . . ولا تكتب إلى من فضلك . فإنى أستطيع أن أتصورك على أوضح مما تصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذى يتلقف الناس آثاره ! على أنى أظنك مشغولا بالتأليف — أو هذا ما أرجوه ، فإنه أحلى فى نفسى من أن أعرف أنك لا تصنع شيئاً . وهذا محتمل وإن لم يكن مرجحاً .

« . . . لقد كان فهمى للحياة مغلوطاً وسلوكى فيها مضطرباً . وإنى الآن لا أدرك أن ضبط النفس — كبح القلب — هذا بمجرده أتم وأكمل مايبلغه الإنسان ويقوى عليه .. » .

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء الجدبة التى أقام بيته فوق رمالها الخائنة . وأحس بالبرد فزرر المعطف وقال لنفسه وهو يعود إلى الجلوس :

لقد سرقت ليلى النوم من جفونى لأول مرة فلنقرأ كتابها من أوله » . فقرأ بعد سطور :

« إن ذلك الفزع الشريد قد وجد مغرسه واهتدى إلى منبته — نعم وجدت ليلى التى ينبغى أن يتقرر عودها فى ثراها . وإنه لحلم ولا كالأحلام . وإن الأحلام فى عينى لجميلة ساحرة . بل أجمل من أن أظن أنى أقدر على احتمالها وأنت بعيد عنى لا تشاطرنى التنعم بها ، فأنت ترى أنك مازلت حيث أحللتك من نفسى فى الأقصر . ولكنك لا تستطيع أن تقدر سعادتى أو تجاربى مخلصاً فى أحلامها ، فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك . ثم أنك طماح ! وأظنك توافقنى على أن الطماح مضن للنفس متعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد فإنى أشعر أن الطماح لا محل له فى هذه البلاد الجميلة . فأرجو أن تكتب فى مذكرتك — إن كنت تفعل شيئاً من ذلك فى العادة — إنى أمنعك ، أحرم عليك ، أن تلحق بى هنا ! فيا للغرور ! كأنك لم تنسنى ! كأنى لا أخشى — بل لا أعلم — أن سخطك على قد محا صورتى من صدرك .. » .

وهنا هز إبراهيم رأسه وقال لنفسه :

« كلا ! لن تبرح ذهنى صورتك ، فإنك أقدر من خدعنى وغشنى .

لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟ ؟ أما لو أنى عرفت خطها قبل أن أفتحه ! ولماذا تكتب إلى ؟ ألتقول إنها سعيدة منعمة ؟ ومالى أنا ؟ لا أرانى أشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى أن تكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق به .. أين .. ؟ أوه ! هنا فى الدرج — فى أى مكان .

وطوى الكتاب ورمى به فى الدرج ، ولكنه لم ينم بل قعد يدخن سيجارة بعد أخرى وقد أحس أنه هرم جداً كالجبال . وجعل يقول لنفسه فى تحليل هذا الشعور ، إن كتاب ليلى ليس سوى صدى فاتر لتجربة قديمة — تجربة ميتة . والتجارب القديمة الميتة هى ذخر الشيخوخة وإحدى خصائصها .

ثم قال لنفسه : « إن كتاب ليلى هذا لا يحرك نفسى لأنى ماعرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقى من نفسى . وإنما كانت دائماً فى نظرى رمزاً للذوق الظرف والرقة الشيطانية — وغير ذلك مما يزيد الصقل الغربى ، وما أظنها كما تصف نفسها سعيدة أو راضية ، فإن رضاها الذى تحدثنى عنه أشبه بأن يكون عاطفة فهو زائل » .

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك فى حقيقة ماحوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض مايتراءى له فى حلم سينسخه النهار ثم أخذه النوم وهو قاعد وجاءت الخادمة فى الصباح تكنس الحجرة ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب ، لأنها رأته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيثما اتفق .

— ٢ —

بعد أن عادت ليلى من الأقصر إلى الاسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة فى الشهور الأولى فكربها ذلك وأزعجها مشكله ، وأفزعتها فضيحته ولم تجرؤ أن تستشير أحداً من أهلها حتى ولا أختها وهى أصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فإن القىء وحده كفيل بأن يفضح سرها ، وهبه لم يفضحه لأنه شىء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهى بعيدة عن

أعين الرقباء فإن السر سيظل يبرز على الأيام حتى لايبقى سبيل إلى إخفائه ، وحدثتها نفسها فى بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها أن تكتب إلى إبراهيم بالحقيقة فإنه أولى من تكاشفه بها وأحق الناس بالحرص على مستواها ولكنها خجلت وأحست أن هذه خليقة أن تعد إكراهاً أدبياً منها له على الزواج منها ، وهى قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطر لها أن تستشير الشيخ على فإنه أمين ناصح ، وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها إلى الاسكندرية ، ولكنها قدرت أن الشيخ على سيرى من واجبه — ومن حقها هى — أن يبلغ إبراهيم وأن يدعوه إلى واجبه — وهذا ماتكره وتأنف نفسه .

ولما أعيتها الحيل وسدت فى وجهها المسالك مضت إلى طبيب تعرفه وكانت تذهب إليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد أوشك أن ينتهى . فلم يطل انتظارها . وكان رجلا كيساً ظريفاً يشعرك مظهره أن فى وسعك أن تعتمد عليه ففاجأته بقولها :

— إنى حامل ولابد من الإجهاض .

فلم يبد عليه أنه دهش . وعجبت هى من اجترائها ، فأشار إليها أن تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو .

— هل لك أن تخبرينى لماذا ترين الإجهاض أمرا لا بد منه إذا كنت حاملا ؟ .

فقالت : « هذا سهل . لأن أباه ليس زوجا لى ولا يمكن أن يكون زوجا لى » .

فقال : « إنى آسف جدا . فلست أستطيع أن أجرى هذه العملية . لم أحاولها قط فى السنوات التسع التى اشتغلت فيها طبيبا . ثم إن أصول المهنة المرعية ... » .

فقاطعته قائلة : « إنى أعرف أصول هذه المهنة فقد كان أبى طبيبا كما تعلم . لا بأس . إذن دلنى على رجل آخر موثوق به يستطيع أن يفعل ذلك ، واذكر أني لا أريد أن أقضى نحبى الآن وفى خلال هذا العلاج أو العملية » .

فقال باسما :

— اهدئى . فما أظن من المحتمل أن تموتى بذلك . إن الخطر إنما يكون من العدوى أو من الطبيب إذا كان من ذلك الطراز الذى يعيش من هذه العمليات ، وهذا الطراز يتفق غالبا أن يكون سكيرا وأن تكون يده غير متزنة على كل حال لا تفزعى . كم عمرك الآن ؟

قالت : « ستة وعشرون عاما » .

قال : « إنك تبدين أصغر بكثير . على كل حال أظن الأطباء الذين يجرون أمثال هذه العمليات يقولون فى العادة أنها ضرورية سواء أكانت كذلك أم لم تكن . فهل تسمحين لى بالكشف ؟ » .

ثم قال «لا أرى أن تتلكأى . إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الأرجح . وأعرف رجلا كان زميلا لى فى الدراسة ، وقد سمعت أن طريقته علمية مضبوطة وقذلا يعجبك ولكنك تستطيعين أن تتصورى حال رجل لا يعالج إلا كل امرأة هستيرية — وهذا طبيعى فى مثل هذه الأحوال ، فإذا شئت فإنى مستعد أن أصحبك . موافقة ؟ حسن إذن دق لى التليفون غدا مساء لعلى أكون تمكنت من الاتفاق معه » .

وكان يوم العملية السبت — صباحاً . فعنيت بارتداء أبهى ثيابها وكانت تقول لنفسها :

— من يدرى ؟ ربما صرت جثة بعد الظهر . فلأكن فى أحسن حالة . وتعطرت وانتقت من المناديل ما يوائم ثوبها فلما دخل عليها الطبيب قال :

— إنك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة .

وكانت تحس أنها ميتة ولكنها قالت :

— كلا يادكتور هل نمضى ؟

وقال لها وهما فى سيارته :

— لا تخشى أن تموتى فلن تموتى . فإنك من ذلك الطراز السليم الذى يحتمل أكثر من هذا بلا تأثير سىء . وسأكون قريبا منك ألاحظك وأعنى بك — وليس هذا من أصول المهنة فى شىء ولكنى فى سبيلك أصنعه .

فشكرته وقالت :

— قل لى يا دكتور هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسألة زمنا طويلا ؟

فقال : « على الأكثر عشرين دقيقة . وأنصح كطبيب بعدم التخدير إذا كنت تعرفين أنك تحتملين » .

فقالت : « كما تشاء يا دكتور » .

ثم قال : « لقد وصلنا . والآن فاذكرى أنى بجانبك . وأن المسألة كلها ستنتهى بعد نصف ساعة .

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسى شىء يصرف المرء عن خواطره . وكان الطبيب ممسكا يدها فى حنو ليشجعها ، ودخل فتى وفتاة كلاهما صغير جميل لا يتجاوز أحدهما السادسة عشرة فنظرت إلى الفتى كأنه منقذها وكان يهوديا مشرق صفحة الوجه أزرق العينين وقالت للدكتور :

— يا دكتور . إن هذه الفتاة طفلة !

فقال : « نعم . لا حظت ذلك . آه هذا هو الدكتور افرايم — الانسة ليلى » .

ولم يرقها جمود وجه الدكتور افرايم ، ولكنها اطمأنت إلى يديه النظيفتين وقال الدكتور افرايم :

— تفضلى .

وبدأ كل شيء يعوم فى نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تذكر أن غرفة العملية نظيفة وأن الممرضة جميلة ، وأنها أعطتها جنيها وأن وجهها نضح بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور أفرايم :

— لا تخافى يا سيدتى ، لقد نصح طبيبك بعدم التبنيج وله الحق .

فقالت ليلى للممرضة : « أتسمحين لى أن أمسك يدك » .

فقالت الممرضة : « بكل تأكيد ، وهل أنا هنا إلا فى خدمتك ؟ »

وقالت لنفسها إن هذه الفتاة طيبة فسأنفحها بعطية أخرى .

* * *

وقال الدكتور نبيه : «هذا أنت ، قد انتهى كل شيء على مايرام وسأحقنك الآن ، فنامى واستريحى ، وسأعود إليك بعد بضع ساعات لأرجعك إلى بيتك لقد كنت شجاعة . فأهنئك » .

فابتسمت له ليلى شاكرة ، وقالت لنفسها « ليس بى ذرة من الشجاعة وإنما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذى لم يترفع عن سماجة التنكيت على ثمن اللذة ! » .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة الممرضة — بوجهها الصابح وقالت :

— أتحسين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا .

وشرعت تخلع المريلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، وليلى تنظر إليها وتعجب بحسن قوامها ، قالت الفتاة مباهية :

— لقد أهدانيها حايم .

فسألتها ليلى : « ذلك الفتى الصغير ؟ » .

قالت « نعم ، كم تظنين عمره ؟ » .

ففكرت ليلى ثم قالت : « هو طفل » .

فقالت الفتاة ضاحكة: « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه ، وهو أيضا يحبني ، ولكن أمه . . أوه ، إنها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا وهو لايعبأ بفقري . لكن . . أمه . . . صعب » .

ولم يكن على وجهها ألم ، وهي تقص هذا ولا في عينيها أسف ، فلم تر ليلى أن من واجبها أن تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهي تفكر في إبراهيم وتساءل نفسها أتراه يذكرها الآن ؟ وماذا يصنع لو علم ؟

— ٣ —

قال إبراهيم لنفسه في الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد إلى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة :

— إن لليل عون للضعيف . لأنه يغير وجه الأشياء . ولكن النهار يجلوها ويبديها على حقيقتها ، فلا بأس الآن من العود إلى رسالة ليلى فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب إلى لتقول فقط أنها سعيدة ولتأمرني بعدم اللحاق بها .

وكانت المرارة التي في نفس إبراهيم من ذلك الضرب الأخرس الذي تعيي الإنسان العبارة عنه ، لا كتلك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكة الأطراف ، الوضاءة كالماس ، وكان إبراهيم رجلا ينقصه التواضع وإن كان ينقصه الكبر أن يكون به كبر ، على حد تعبير أبي فراس الحمداني ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر ولا لىء تلقى تحت عيون الخنازير وكان يرص العبارة فوق العبارة الأخرى ويكظها جميعاً بشخصيته حتى لتحس أن ألفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقله بخوالجه هو ، وأنه لا سبيل لك إلى رأي أو إحساس فيما وراء هذا الكوم المكدس من الآراء والإحساسات وأن عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح انثنى الى رساله ليلى ، ولم يخطىء ظنه ، ولو أخطأ لاعتد

ذلك من ذنوب ليلى . وكانت الرسالة طويلة وفيها خلاصة تاريخها منذ توفى والدها إلى أن رفعت عنها وعن أختها الوصاية وفيها تشرح كيف أغواها الوصى وعبث بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولى على مالها بعد أن يبدد منه جانبا ليس بالقليل ، ولكنها لم تشر إلى الجنين الذى أعانها الدكتور نبيه على انتزاعه من بين أحشائها قبل موعده ، وما الداعى إلى ذلك وقد تزوجها الدكتور نبيه آخر الأمر . إنه سر لا يعلمه سواه فيحسن ألا يتجاوز إلى غيره وما دام أنه هو قد دفنه ولم يحفله بعد ذلك ! فما أولاها هى بأن تتناساه .

وقال إبراهيم لنفسه : « ياللها من فاجرة تتزوج رجلا ثم تكتب إلى بلا مناسبة تقول أنها تحبنى ! ولكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع الحرارة فى القبل والعناق » .

وزادت مرارته قطرة — اذا كان إلى هذا سبيل .

الفصـــل الثـــانى

فليسمع ختام الامر كله

هى مقدمة الربيع ، وكل شىء هادىء والشجر كأنه مستح أن يظل متعريا وحوله الخضرة مهتزة زابية ، وكأنما هو يبذل أقصى ما فى وسعه ليكتسى ويخرج أوراقه النضيرة التى ستحجب أشعـــــة الشمس التى أعانتها على الوجود وغذتها وأنمتها ، وقد خيل لابراهيم وهو يجيل عينه فى خضرة الارض ورونق السماء وصفاء الجو ، كأن بالازهار دهشة هذا الدفء الجديد فى الدنيا ، فهى لا تزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز فى حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء انما يخادعها ويغالطها فى حقيقة الزمن ، حتى إذا اطمأنت عاد فحمل عليها بقره وصره .

وكان ابراهيم قد عاد إلى مارى بقلب مثقل وعين نفاذة ونفس غير مرتاحة إلى اعتياض الذى هو أدنى من الذى هو اعلى وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته إلى الاسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها ، وأن يوسع دائرة عمله ، وعـــلم ابراهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة موموقة كذلك حدثته أمه فى صبيحة ذلك اليوم فى مستهل الربيع وزادت على هذا بعد أن قصت عليه ما اتصل بها :

« لقد كنت أفكر فيها لك » .

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها للاحظت سهومه وتحجر نظرته وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئا مما عانى ابنها ، ولم ترموجبا للالحاح فى أمر لا جدوى فيه ولاطائل تحته ، وأوهمها

صمت ابراهيم أنه لا يزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كعهده مذ ماتت زوجته .

ولم يستغرب ابراهيم أن يتزوج الدكتور من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجية أن يتخطى الدكتور أختها سميحة ، وان كان هذا كله قد حز في نفسه ، ولم يدهشه ما سمعه عن حب شوشو للدكتور ، وقال لنفسه لعل هذا الحب الذي يصفون أكذوبة أراضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامنا في زاوية من زوايا نفسها وهي لا تدرى ، وقد كان هو — ابراهيم — يحب ثلاثا من النساء في وقت معا وهو مدرك لهذا التثليث ، فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهي غير مدركة لذلك . فيكون أحد حبيها طافيا على اللجة ويكون الآخر راسبا في قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن ابراهيم رجح عنده أن حب شوشو له هو ، لم يكن حبا لشخصه وانما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ، ومدلولها الاشمل ، فمن السهل أن تتحول من شخص معين إلى شخص آخر معين ما دام كل منهما موافقا صالحا ؛ لأن العاطفة في هذه الحالة لا تكون حبا لفلان بالذات ، بل فورة نضج أنثوى تبغي الرجولة والسلام ، وبدا لابراهيم أن هذا التعليل أصح وأسد ، فان الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحول — إذا صح هذا التعبير — والفتاة المصرية — في الأغلب والأعم — تذهب إلى الزوج وهي لا تحمل له حبا ، وانما تحمل له نضجا جنسيا قابلا لان يتعلق بشخصه إذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه الى نفسه وما أكثر ما يبدأ الزواج في مصر بلا حب . وليس بالنادر أن يبدأ بمقدار من الكره الخفيف . ثم لا تلبث المعاشرة والاحساس بالواجب — احساسا درج كل

من الزوجين على توطين النفس عليه — أن يفضيا إلى ما يشبه الحب المتبادل وإن كان من العسير أن يسمى حبا لانتفاء امتحان الوسط واغرائه . وذلك أن المرأة الغربية يقبل عليها الرجال ويهجمون عليها وفى مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها وإغراء . ثم ينتهى الأمر بايثارها أحدهم بعد أن تتخل عواطفها وخوالجها ، وتعرف أن هذا الاحد الذى تؤثره هو الذى تصبو إليه وتتمثل فيه معانى الرجولة التى تطلبها أنوثتها .

وقد تخطىء فى الغربلة أو يدفعها ظرف غير الحب الى التحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال ، وكان حبها لاشك فى أنه لشخص معين ، أما أختها المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان ، والاختبار عندها فى أضيق دائرة وقد لايكون ثم اختيار بتاتا ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذى صهر الامتحان ومركزه الإغراء ، ولكنه ليس به ، ومن هنا كان ايمان إبراهيم بحب ليلى قوياً وخيبة أمله فيه عظيمة .

على أنه ما عتم أن انصرف عن مارى أيضا — انصرف عنها بسبب لا يصرف سواه لفرط ما أنطوى عليه من الشذوذ ، ذلك أنه قصد إلى دارها عصر يوم — بعد أن اتصل به زوج شوشو بأيام ، فقالت له الخادمة إنها مستلقية على سريرها فليدخل عليها اذا شاء ، فألفاها نائمة . هذا هو السبب ، والقارىء معذور اذا استغرب به ولكن أعصاب ابراهيم كانت مضطربة مرتبكة ، فخرج وهو يقول لنفسه :

— إنه ليس ثم أبشع من منظر الانسان وهو نائم ... فان النوم حالة ذهول ينبغى أن لا يطلع عليها أحد ، ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلادة حيال حركتها الدائمة ، ولقد حاولت أن لا أنظر الى مارى ولكنى كنت أسمع أنفاسها ولا أستطيع أن أحول عينى عن وجهها المتعب المكدود ، وقد كان هذا حقيقا أن يدفعنى الى العطف عليها . ولكنى أحسست بعد برهة أن معين عطفى قد نضب ، وأنى لم أعد أعبأ أنائمة هى أم ميتة .

ولم يخبرها إبراهيم ولا حاول أن يلقاها ليشرح لها هذا ، لانه خشى أن لا تفهم فيبغضها ، وهو يكره أن يضطر أن يكره الناس .

— ٢ —

وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر الى سبحتها وتخالسه النظر :

— يا بنى ألم تفكر فى الاستقرار ؟

ولم تزد . كأنما كان هذا سؤالا أخطره ببالها منظر حبات السبحة وهى تتداولها بأصابعها . فنهض ابراهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :

— الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة انما اخترعت لان الانسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئنا الى ما يتوقع ، فان الخيال لعنة — أو هو كذلك فى اعتبار أكثر الناس أو فى تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لانه مزعج مقلقل ، والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ، ويشعر أنه له ويصبح ملكا لهذا البيت مشدودا اليه مقيدا به . والناس فى العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رءوسهم كل ليلة . وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم . نعم فإن الانسان انما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجنسى . كأنما يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفى لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .

فنهضت وهى تتمتم بالدعاء له .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعدى ؟ صحرائى التى لا يلتقط الطير فيها حبا ولا يجاوب فى خرابها قلب قلبا . ولا يغيرها صيف أو شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟

كذلك كانت قديما وكذلك أبقاها الله . . . لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها وجها مستعارا يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعا ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها المحل . ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوؤه وينام على صدرها المتموج — فى مثل وشى الرياض تنفح روحا وريحانا ، ويتداعى الطير على أيكها اعلانا ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحيانا »

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعا إذ أخبط فى الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء !

« بودى لو تماسكت حباتى . وثبتت ذراتى . ولانت مواطئى لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به » . . .

وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى المدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تخوض فيه قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا لا نملك خلافه . وقانونا لا نستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت الا سواء . وهل تراك تملك من أمرك كثيرا أو قليلا ؟ »

* * *

« وهبت الريح بى كالمجنونة . فعدت وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط . وسفت الرمال فى وجهى حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمنى ، وتسابقت زمامها إلى أذنى فوقفت مكانى لا أريمه . وقلت لنفسى « ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف ! »

« فلت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة . وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغريبة التى تمتزج فيها الصراخ بالغناء . ويختلط به الألم والطرب . وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبيح والخير والشر ! ويا ليت من يدرى ماذا تصنع إذن ؟ أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شىء وتمحوه ؟ أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذررته هذه الرياح ! » . فهمست فى أذنى الرياح :

« ما الحسن وما القبيح ؟ وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما الاحساس والعقل ؟ والخصب والجدب . والصحة والسقم . واليأس والأمل ؟ والبكاء والضحك ؟

« فرفعت رأسى حائرا . وأدرت عينى واجما . ثم أطرقت مفعما ثم نهضت أمشى »

« ودلفت بى رجلاى إلى المقابر فتخللتها إلى بجلمث فيه شطر من ماضى وقعدت واسندت ظهرى إلى حجارته ، وأنا اقول لنفسى :

« الموت على الأقل راحة . فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب . . . »

« فخلص الى صوت من جانب القبر أن « لا » .

« قلت « كيف لا ؟ »

« واستدرت حتى واجهت اضواء القبر .

«قال الصوت : «لا» على التحقيق . أن لى هنا سنوات لا اعلم عددها ولعلها اقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل ايامى التى صارت كلها ليالى . أو لعلها

كثيرة فما أدرى وقد حجبت عنى الدنيا ، ولوكان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت؟ ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الاحياء ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا ، وأنت على الاقل تذكرنى فأبقى بذكراك . فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وان كانت ظهورنا توجعنا أحيانا من طوله . ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الأخير . وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جد أعلى لى مسكين ، مسكين قد استوفى ميتاته جميعا ولم يبق منه شيء ! . . . وليت ادكاريه ينفعه ! إذن لرددت اليه بعض الوجود . ولكن هيهات ! انما يجدى الذكر من فوقها دون من هم فى جوفها مثلى » .

قلت « ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءك ذلك ؟

قال الصوت « كلا ! سيان عندى أن تفى لى او لا تفى ؛ ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فانى بعد أن مت ، لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره . ولا التفت الى وفائك أو غدرك ، وانى لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرنى للذاتى بل لما طابت به نفسك فافعل ما بدا لك . ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية . ولكن ابق لى رقعة صغيرة زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء » .

قلت « فاذا نسيتك كغيرى ؟ »

قال الصوت « اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه ، وعسى أن يكون بعيدا »

قلت « حسن . سأحيا من أجلك . وأتقى المهالك اكراما لك وضنا بك أن تلحق الاموات جدا ! »

قال الصوت : « اتفقنا . فالى الملتقى ! »

فسرت فى بدنى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول « الى الملتقى » ونهضت

عن القبر ممتلئا رغبة فى الحياة . وضننا بها وحرصا عليها ، وعدت أدراجى إلى دارى خفيفا كأنما حططت عن كاهلى وقرا . جعلت أقول فى الطريق :

– نعم سأحيا من أجلها !

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى أذنى الشيطان اللعين :

– تقول من أجل من ؟ .

وقهقه !

فغاظنى ذلك وأخجلنى ايضا . فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب في وجهه !

• صدر من السلسلة •

١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)
٣- الغصن الذهبى (الجزء الأول)
٤- الغصن الذهبى (الجزء الثانى)
٥- كليله ودمنه
٦- ابن جبير
٧- فى موكب الشمس
٨- هاملت
٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
١١- رمز الأفعى في التراث العربى
١٢- التراث القصصي عند العرب
١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
١٥- جماعة أبوللو (الجزء الأول)
١٦- جماعة أبوللو (الجزء الثانى)
١٧- الأساطير
١٨- ابراهيم الكاتب

رقم الإيداع : ٨٠١٦/ ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موناليزا سابقا) *

قسيمة اشتراك

إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاســـــــم : ....

العنـــــوان : ....

رقم التليفـــون : ....

حوالة بريدية رقم : .... باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ : ....

التوقيع :

م	اسم السلسلة	موعد الاصدار	قيمة الاشتراك ٦ أشهر		قيمة الاشتراك سنة كاملة	
١	أصــوات أدبيـــة	نصف شهرية	١٢		٢٤	
٢	إبـداعـــــات	نصف شهرية	٦		١٢	
٣	كـتـابات أدبيـــة	شــهــرية	١٢		٢٤	
٤	آفاق الـتـرجـمـة	شــهــرية	١٢		٢٤	
٥	آفـاق الكـتـابة	شــهــرية	٦		١٢	
٦	الـذخــــائر	شــهــرية	٣٠		٦٠	
٧	ذاكـرة الكـتـابة	شــهــرية	١٨		٣٦	
٨	مطبـوعات الهيـئة	شــهــرية	١٢		٢٤	
٩	الدراسات الشعبيـة	شــهــرية	١٢		٢٤	
١٠	حـين مــصــر	شــهــرية	٦		١٢	
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شــهــرية	٦		١٢	
١٢	مـجلة قطر الندى	نصف شهرية	١٦		٣٢	
١٣	مـجلة آفاق المسرح	فـصـليـة	٤		٨	
١٤	آفاق الفن التشكيلي	شــهــرية	٢٤		٤٨	
١٥	الجــــوائز	شــهــرية	٦		١٢	
١٦	آفـاق السـينـمـا	فـصـليـة	١٨		٣٦	

ضع علامة (✓) أمام السلاسل التي تريد الاشتراك فيها في المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ أ ش أمين سامي – قصر العيني – القاهرة

ت : ٢٥٦٤٨٤١ – ٢٥٦٤٨٤٢ – فاكس : ٢٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدي : ١١٥٦٢

شوشو فتاة يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم غض ووجه صبيح متألق ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بروقعها مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها في عزلة ، قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدنين ، فلم تألف أذنها عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك التعمل الذى يدرب الفتاة عليه تنبه الشعور بنفسها وتوقعها من الجالس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عيناها بمزية : هى أن من يراهما لا يحتاج أن يعدوهما أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما تجتلى نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . تحدق « فيه » تحديقك « فى » بئر ، ولا ترنو « إليه » كما ترنو « إلى » رسم .

